

كلب آل باسكرفيل

عصير الكتب

كلب آل باسكرفيل





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

العنوان: كلب آل باسكرفيل

ترجمة: إيمان سعودي

تحرير: أحمد القرملاوي

تدقيق لغوي: منى عبد الهادي الشريف

الطبعة الأولى: مايو 2021م

رقم الإيداع: 2021/7864م

الترقيم الدولي: 978-977-85876-7-8

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار





كلب آل باسكرفيل



الفصل الأول

السيد شيرلوك هولمز

اعتاد السيد شيرلوك هولمز الاستيقاظ في وقتٍ متأخرٍ من الصباح، إلا في بعض المناسبات النادرة التي يظل فيها مستيقظًا طوال الليل، وقد جلس إلى مائدة الإفطار، بينما وقفتُ على السجادة المفروشة أمام المدفأة، والتقطتُ العصا التي تركها زائرنا وراءه في الليلة الماضية. كانت قطعة فاخرة وسميكة من الخشب، من النوع المعروف باسم (محامي بينانج)[1] ذات رأسٍ منتفخ، أسفله مباشرة يلتف شريط فضي عريض يبلغ نحو البوصة عرضًا، منقوشة عليه عبارة تقول «إهداء إلى جيمس مورتيمر، عضو كلية الجراحين الملكية، من أصدقائه في م. ت. ك.»، مع تاريخ لعام 1884. كانت مجرد عصا كالتي يعتاد طبيب أسرة تقليدي حملها – مهيبة وصلبة وباعثة على الطمأنينة.

– حسنًا يا واتسون، ماذا تستنتج منها؟

كان هولمز جالسًا موليًا ظهره إليَّ، ولم أمنحه أي إشارة عما أفعله.

– كيف علمت بما أفعله؟ أظن أن لديك عينَين في مؤخرة رأسك.

قال:

- لديَّ على الأقل إبريق قهوة مطلي بالفضة ومصقول بعناية أمامي. ولكن أخبرني يا واتسون، ماذا تستنتج من عصا زائرنا؟ فهذا التذكار الذي تركه لنا -عن طريق الخطأ- اكتسب أهمية، بعد أن فاتنا لسوء الحظ لقاؤه ومعرفة غايته. أسمعني النظرية التي كوَّنتها عن الرجل من خلال فحصها.

قلت متبعًا أساليب رفيقي قدر المستطاع: «أعتقد أن الدكتور مورتيمر طبيب ناجح، وكبير السن، ويحظى بقدرٍ كبير من الاحترام إلى الحد الذي يدفع مَن يعرفونه لمنحه هذه العصا علامة على تقديرهم».

قال هولمز:

– جيد! ممتاز!

– أظن أيضًا أنه طبيب أرياف، وعلى الأرجح يذهب في الكثير من زياراته سيرًا على الأقدام.

– ولِمَ ذلك؟

– لأن هذه العصا، مع أنها كانت في الأصل عصًا جميلة، قد بليت لدرجة لا أكاد أتخيل معها أن يحملها طبيب في المدينة. لقد اهترأ كعبها الحديدي السميك، لذا فمن الواضح أنه سار بها كثيرًا.

قال هولمز: «منطقيٌّ جدًّا!»

- ثم لدينا أيضًا ‹أصدقاء م. ت. ك.› التي تعني، حسبما أظن، مجموعة صيد شيء ما، وهي مجموعة صيد محلية ربما قدَّم لأعضائها مساعدة طبية ما، فقدموا له هذه الهدية الصغيرة في المقابل.

قال هولمز، وهو يدفع كرسيه إلى الخلف ويشعل سيجارة:

- إنك تتفوق على نفسك حقًّا يا واتسون. عليَّ القول بأنك عادة ما تقلل من شأن قدراتك الخاصة في كل التقارير التي تفضَّلت بتقديمها عن إنجازاتي الصغيرة. ربما لا تكون مضيئًا بذاتك، لكنك موصِّل للضوء، فبعض الأشخاص الذين لا يتمتعون بالعبقرية تكون لديهم قدرة ملحوظة على تحفيزها. أعترف يا صديقي العزيز بأنني مدينٌ لك بالكثير.

لم يبُح هولمز بهذا القدر من قبل قطُّ، وعليَّ الاعتراف بأن كلماته أسعدتني كثيرًا، فلطالما انزعجت من لا مبالاته بإعجابي، وبسعيي الدؤوب لترويج أساليبه. وشعرتُ بالفخر كذلك لأنني أتقنت نظامه لدرجة أنني صرتُ أطبِّقه تطبيقًا ينال استحسانه. بعدها أخذ العصا من يدي وفحصها لبضع دقائق بعينيه المجردتين. ثم بدا الاهتمام على وجهه وألقى سيجارته وحمل العصا إلى النافذة ونظر إليها مرة أخرى مستخدمًا عدسة محدبة.

قال عندما عاد إلى ركنه المفضل من الأريكة:

- هذا مثير للاهتمام، فمع بساطته. ثمة دليل أو اثنان واضحان على العصا بكل تأكيد. وهو ما يمنحنا الأساس للعديد من الاستدلالات.

سألتُ ببعض التفاخر:

– هل فاتني أي شيء؟ أنا موقن بعدم إغفالي لأي أثر.

– أخشى يا عزيزي واتسون أن معظم استنتاجاتك كانت خاطئة. فإنني حينما قلتُ إنك تحفِّزني إنما قصدتُ بصراحة أنني أستدلُّ أحيانًا على الصواب عن طريق ملاحظة أخطائك. ولا أعني أنَّك مخطئ تمامًا الآن. فهذا الرجل بالتأكيد طبيب أرياف. ويسير كثيرًا.

– لقد كنتُ محقًّا إذن.

– حتى الآن.

– ولكن هذا كل شيء.

– لا، لا يا عزيزي واتسون، ليس كل شيء، ليس كذلك على الإطلاق. فإنني أرى مثلًا أن الأرجح أن تكون الهدية المقدمة لطبيب من مستشفى، وليس من مجموعة صيد، وعند وضع الأحرف الأولية «ت. ك.» بعد كلمة مستشفى نجد اسم (تشيرنج كروس) يفرض نفسه ببديهية تامة.

– قد تكون مُحقًّا.

– الأرجح أن نسير في هذا الاتجاه. وإذا انطلقنا من هذه الفرضية وبدأنا العمل عليها، سنجد لدينا أسُسًا جديدة تساعدنا في بناء نظريتنا عن هذا الزائر المجهول.

– حسنٌ إذن، بافتراض أن «م. ت. ك.» تلك تعني «مستشفى تشيرنج كروس» أي استنتاجات إضافية نستخلصها من ذلك؟

– أليست واضحة؟ أنت تعرف أساليبي، فطبِّقها!

– لا يمكنني التفكير سوى في الاستنتاج الواضح من أن الرجل قد مارس الطب في المدينة قبل الانتقال إلى الريف.

– أعتقد أننا نستطيع الذهاب لأبعد من ذلك. انظر إليها في هذا الضوء. في أي مناسبة يكون تقديم مثل هذه الهدية مرجحًا بدرجة أكبر؟ في أي مناسبة قد يتَّحد أصدقاؤه للتعبير عن مشاعرهم الطيبة؟ بالتأكيد كان هذا في اللحظة التي استقال فيها الطبيب مورتيمر من الخدمة في المستشفى من أجل تدشين عيادته الخاصة. إننا نعرف بوجود الهدية. ونعتقد أنه انتقل من مستشفى في المدينة إلى عيادة في الريف. هل نبالغ إذن في استنتاجاتنا إن قلنا إن الهدية كانت بمناسبة التغيير؟

– يبدو هذا واردًا من دون شك.

– والآن ستلاحظ أنه من غير الممكن أن يكون الطبيب ضمن طاقم المستشفى، لأن مثل هذه الوظيفة لا يمكن أن يمارسها إلا طبيب متمرِّس في عيادة في لندن، ومثل هذا الطبيب لن ينجرف إلى عيادة ريفية. ماذا كان يعمل إذن؟ إذا كان يعمل في المستشفى ولم يكن ضمن طاقمها فلا يمكن إلا أن يكون طبيبًا منزليًّا أو حكيمًا منزليًّا، وهو المنصب الذي يشغله الطالب بعد تخرُّجه من كلية الطب. ولقد غادر إلى الريف منذ خمس سنوات، فالتاريخ مدون على العصا. إذن فطبيبك المنزلي الجليل كبير السن يتلاشى في الهواء يا عزيزي واتسون، ويظهر شاب لم يبلغ الثلاثين من العمر، ودود غير طموح وشارد الذهن ولديه كلب أثير، يمكنني أن أصفه على نحوٍ تقريبي بأنه أكبر من كلب الترير وأصغر من كلب الدرواس.

ضحكت بعدم تصديق بينما أسند شيرلوك هولمز ظهره إلى أريكته ونفث حلقات صغيرة متموجة من الدخان تصاعدت حتى السقف.

قلت:

– أما عن الجزء الأخير، فليست لدي أي وسيلة للتحقق مما قلت. ولكن لحسن الحظ ليس صعبًا اكتشاف بعض التفاصيل عن عمر الرجل ومسيرته المهنية.

أنزلت الدليل الطبي من رفي الطبي الصغير وبحثت عن الاسم. كان به الكثير ممن يُدعون مورتيمر، لكنَّ واحدًا منهم فقط يمكن أن يكون زائرنا. قرأتُ سجلَّه بصوتٍ مرتفع.

«جيمس مورتيمر، عضو كلية الجراحين الملكية، 1882، جريمبن، دارتمور، ديفون. طبيب منزلي، من 1 إلى 1884 في مستشفى تشيرنج كروس. فاز بجائزة جاكسون لعلم الأمراض المقارن، عن مقال بعنوان (هل المرض انتكاسة؟) عضو مراسل في الجمعية الباثولوجية السويدية. مؤلف كتاب (غرائب التأسل الرجعي) (لانسيت 1882). و(هل نتطور؟) (مجلة علم النفس، مارس، 1883). مسؤول طبي في أبرشيات جريمبن وتورسلي وهاي بارو».

قال هولمز بابتسامة خبيثة:

– لا ذكر لمجموعة الصيد المحلية يا واتسون، لكنه طبيب أرياف، كما لاحظت بذكاء شديد. أعتقد أنني محق تمامًا في استنتاجاتي. أما عن صفاته، فقد قلتُ – حسبما أتذكر – إنه ودود وغير طموح وشارد الذهن. فمن واقع خبرتي، لا يتلقى التزكية إلا رجل ودود، ولا يتخلى عن مهنته في لندن للانتقال إلى الريف إلا شخص غير طموح، ولا يترك عصاه بدلًا من بطاقته التعريفية في غرفتك بعد الانتظار لمدة ساعة إلا رجل شارد الذهن.

– وماذا عن الكلب؟

– اعتاد أن يحمل هذه العصا خلف سيده. ونظرًا لكونها عصا ثقيلة فقد كان الكلب يمسكها بإحكامٍ من المنتصف، وآثار أسنانه ظاهرة بوضوح شديد. كما أن فك الكلب – كما هو واضح من المسافة بين هذه الآثار – عريض للغاية في رأيي بالنسبة لكلب ترير وليس عريضًا بما فيه الكفاية ليكون درواسًا. ربما هو – نعم، يا إلهي! إنه كلب سبنيلي مجعد الشعر.

كان قد نهض وأخذ يذرع الغرفة بينما يتحدث. ثم توقف أمام النافذة، وكانت في صوته نبرة ثقة جعلتني أنظر إليه في دهشة.

– من أين تأتي بكل هذا اليقين يا صديقي العزيز؟

– لسببٍ بسيط للغاية، وهو أنني أرى الكلب نفسه على عتبة بابنا، وها هو مالكه يقرع الجرس. رجاءً لا تتحرك من مكانك يا واتسون. إنه زميل مهنتك، وربما يكون في حضورك عونًا لي. نحن الآن بصدد لحظة مصيرية يا واتسون، تلك اللحظة التي تسمع فيها وقع خطوات على درج حياتك، ولا تعلم أخَيرًا هي أم شرًا. تُرى ماذا يبغي رجل العلم الطبيب مورتيمر من شيرلوك هولمز المحقق؟ تفضَّل بالدخول!

كان مظهر زائرنا كمفاجأة لي، فقد توقعت طبيبًا ريفيًّا تقليديًّا، لكنه كان رجلًا طويل القامة نحيفًا له أنف طويل كالمنقار، ينتأ بين عينين رماديتين حادتين متقاربتين تتألقان بلمعان شديد خلف زوج من العدسات ذات الإطار الذهبي. كان يرتدي ملابس مهنية لكنها فوضوية إلى حد ما، حيث كان معطفه مغبرًا وسرواله مهترئًا. ومع صغر سنه كان ظهره الطويل محدودبًا حقًّا، وكان يسير برأس مائل إلى الأمام، ومظهر عام يشي بدماثة الخلق. عندما دخل، سقطت عيناه على العصا في يد هولمز، فأسرع إليها مطلقًا صيحة فرح وقال: «يا لسعادتي! لم أكن واثقًا مما إن كنت تركتها هنا أم في مكتب الشحن. لم أكن لأفرِّط في هذه العصا مقابل أي شيء في العالم».

قال هولمز:

– إنها هدية، كما فهمت.

– نعم يا سيدي.

– من مستشفى تشيرنج كروس؟

– من واحدٍ أو اثنين من أصدقائي هناك بمناسبة زفافي.

قال هولمز وهو يهز رأسه:

– أوه، هذا سيئ!

طرف الطبيب مورتيمر بعينيه من خلال نظارته بدهشة خافتة.

– لماذا هو سيئ؟

– لأنك أفسدت استدلالاتنا الصغيرة لا أكثر. أتقول زفافك؟

–نعم يا سيدي. لقد تزوجت، ومن ثم اضطررتُ إلى ترك المستشفى، ومعها كل أمل في إنشاء عيادة استشارية. كان عليَّ أن أؤسس منزلًا لأسرتي.

قال هولمز:

– حسن، حسن، لم نكن مخطئَين تمامًا بعد كل شيء. والآن أيها الطبيب جيمس مورتيمر.

– سيد مورتيمر، يا سيدي، سيد، إنني مجرد عضو بسيط في كلية الجراحين الملكية.

– ورجلٌ ذو عقلٍ شديد الاهتمام بالتفاصيل، كما هو واضح.

– هاوٍ للعلوم يا سيد هولمز، جامع أصداف على شواطئ المحيط المجهول الكبير. أفترض أن من أخاطبه هو السيد شيرلوك هولمز وليس …

– لا، هذا صديقي الدكتور واتسون.

– سعدت بلقائك يا سيدي. لقد سمعت اسمك يُذكر مصحوبًا باسم صديقك. إنك لتثير اهتمامي يا سيد هولمز. لم أتوقع مثل هذه الجمجمة الطويلة أو هذا التطور الملحوظ في العصب فوق الحجاجي. أيضيرك أن أمرر إصبعي بطول الشق المخي المركزي الخاص بك؟ إن قالبًا لجمجمتك يا سيدي سيكون مفخرة لأي متحف أنثروبولوجي حتى تُتاح النسخة الأصلية. لا أقصد التملُّق، لكني أقرُّ بأنني أطمع في جمجمتك.

لوَّح شيرلوك هولمز مشيرًا لزائرنا الغريب بالجلوس قائلًا:

– إنك شغوف بتخصصك أيها السيد حسبما أرى، مثلما أنا شغوفٌ بتخصصي. ألاحظ من سبابتك أنك تلف سجائرك بنفسك. لا تتردد في إشعال واحدة.

أخرج الرجل ورقة وتبغًا وبرمهما معًا ببراعة منقطعة النظير. كانت أصابعه الطويلة مرتعشة سريعة الحركة، وعصبية كقرون استشعار إحدى الحشرات.

بقي هولمز صامتًا، لكنني أدركت من نظراته المختلسة المتفحصة مدى الاهتمام الذي أولاه لرفيقنا الغريب.

ثم قال أخيرًا:

– يغلب عليَّ الظن يا سيدي أنك لم تشرفني بزيارتك ليلة أمس، ومرة أخرى اليوم فقط لأجل فحص جمجمتي.

– لا يا سيدي، لا، وإن أسعدني أن أتيحت ليَّ الفرصة لفعل هذا أيضًا. لقد جئتك يا سيد هولمز؛ لأنني أدركت أنني رجلٌ غير مؤهَّل واجهته فجأة أكثر المشكلات خطورة واستثنائية. ولأنني أعلم أنك ثاني أفضل خبير في أوروبا.

سأله هولمز بشيء من الحدة:

– أحقًّا يا سيدي؟ هل لي أن أسأل عن هوية الشخص الذي حاز شرف المركز الأول؟

– كرجلٍ ذي عقلٍ علمي شديد الاهتمام بالتفاصيل، لا أملك إلا أن أكون مولعًا بموهبة السيد بيرتيلون.

– لماذا لم تستشره إذن؟

– لقد قلت يا سيدي إن هذا ينطبق على العقل العلمي المهتم بالتفاصيل. ولكن لا أحد يستطيع مضاهاتك كمحقق عملي من دون ريب. أستميحك عذرًا يا سيدي إن كنت عن غير عمد…

قال هولمز:

- رويدك. لِمَ لا تتلطَّف أيها الطبيب مورتيمر وتخبرني بوضوح بطبيعة المشكلة التي تطلب مساعدتي فيها دون مزيدٍ من اللَّغط؟

“Penang lawyer” اسم شائع لعصا خشبية منتفخة الرأس، ويُعتقد أن الاسم إشارة مازحة لكونها أداة لفض المنازعات في بينانج.

الفصل الثاني

لعنة آل باسكرفيل

قال الدكتور جيمس مورتيمر: «لدي مخطوطة في جيبي».

قال هولمز: «لمحتُها عندما دخلت الغرفة».

– إنها مخطوطة قديمة.

– تعود إلى أوائل القرن الثامن عشر، ما لم تكن مزورة.

– كيف علمت يا سيدي؟

– كان يظهر منها بوصة أو بوصتان طوال الوقت الذي كنت تتحدَّث فيه، ما سمح لي بفحصها. إنه لخبير ضعيف المستوى ذاك الذي لا يستطيع تحديد أي عِقدٍ تنتمي إليه وثيقة ما. لعلك قرأت أطروحتي عن الموضوع. أظن أن تلك المخطوطة تعود إلى العام 1730.

سحب الطبيب مورتيمر المخطوطة من جيب صدريته قائلًا:

– الواقع أنها تعود إلى العام 1742 تحديدًا. لقد عَهد لي بها السير تشارلز باسكرفيل، الذي أثار موته المفاجئ والمأساوي منذ نحو ثلاثة شهور كثيرًا من اللغط في ديفونشاير. لقد كنت صديقًا له بالإضافة لكوني طبيبه المرافق. كان رجلًا عقلانيًّا يا سيدي، فطِنًا وعمليًّا، ولا يتمتع بالخيال مثلي. ومع ذلك، فقد أولى هذه الوثيقة اهتمامًا بالغًا، وكان متأهِّبًا في أعماقه لتلك النهاية التي أدركته.

مدَّ هولمز يده ليتناول المخطوطة ثم فردها على ركبته.

– يمكنك أن تلاحظ يا واتسون الاستخدام المتبادل لحروف (S) الطويلة والقصيرة. تلك هي إحدى الدلائل العديدة التي مكنتني من تحديد التاريخ.

نظرتُ من فوق كتفه إلى الورقة الصفراء والنَّص الباهت المكتوب عليها. كُتب في أعلاها: «قصر باسكرفيل» ثم أسفله خُطَّ على عجل بأرقام كبيرة: «1742».

– يبدو أنه بيان من نوع ما.

– نعم، إنه يحكي أسطورة معينة تتوارثها عائلة باسكرفيل.

– لكنني ظننت أن المسألة التي أردت استشارتي بشأنها هي مسألة أكثر حداثة وعملية.

– إنها الأحدث. إنها مسألة تبلغ من العملية والإلحاح أن يجب البت فيها في غضون أربعٍ وعشرين ساعة. لكن المخطوطة قصيرة وترتبط ارتباطًا وثيقًا بالقضية. اسمح لي أن أقرأها لك.

استرخى هولمز في مقعده، جامعًا رؤوس أصابعه معًا، وأغلق عينيه باستسلام. وجَّه الطبيب مورتيمر المخطوطة ناحية الضوء ثم أخذ يقرأ بصوتٍ مرتفع أجش الرواية الغريبة الموغلة في القدم:

«ثارت أقوال عدة عن أصل كلب آل باسكرفيل، ولمَّا كنتُ واحدًا من أحفاد هوجو باسكرفيل، فقد سمعتُ القصة من أبي، الذي سمعها بدوره من أبيه؛ لذلك هأنذا أحكيها وكلي إيمان بأنها حدثت كما سمعتها. وأود منكم يا أبنائي أن تؤمنوا بأن العدالة التي تعاقِب على الخطيئة يمكنها أيضًا أن تغفرها بكل كرم، وأنه ما من ذنب كبير إلا ويمكن محوه بالصلاة والتوبة. فتعلَّموا إذن من هذه القصة ألا تخشوا عواقب الماضي، بل احذروا في المستقبل تلك الأهواء القبيحة التي عانت منها عائلتنا بكل أسف، والتي قد لا تمحوها توبتنا مرة أخرى.

اعلموا إذن أنه إبان التمرد العظيم (وهو التاريخ الذي دوَّنه المؤرخ اللورد كلاريندون والذي أوصيكم بشدة أن تطلعوا عليه) كانت إقطاعية باسكرفيل مملوكة لهوجو باسكرفيل، ولا يمكن إنكار أنه كان أكثر الرجال جموحًا ودنسًا وإلحادًا. ومع ذلك فقد عَذَره جيرانه في الحقيقة، حيث رأوا أن القديسين لم يزدهروا قط في تلك المنطقة، لكنه كان يتميز بطبعٍ وحشي غاشم وفريد جعل اسمه مضربًا للأمثال في الغرب. وقد تصادف أن وقع هوجو هذا في الحب (إن جاز فعلًا لعاطفته المظلمة تلك أن تحمل مثل هذا الاسم الباهر)، فقد أحب ابنة مزارع كان يملك ضيعة بالقرب من إقطاعية باسكرفيل. لكن الفتاة ذات السمعة الطيبة كانت دائمًا تتجنبه، لخشيتها من سمعته الشريرة. ثم حدث في أحد أعياد الملاك ميخائيل أن سطا هوجو وخمسة أو ستة من رفاقه الأشرار العاطلين على المزرعة واختطفوا الفتاة، بينما كان والدها وإخوتها خارج المنزل، كما كان يعلم يقينًا. أحضروا الفتاة إلى القصر وحبسوها في غرفة علوية، بينما جلس هوجو وأصدقاؤه يحتسون الخمر لفترة طويلة في الأسفل، كعادتهم كل ليلة. أما المسكينة المحتجزة في الطابق العلوي فقد كاد الفزع يذهب بعقلها مما سمعت من الغناء والصراخ والفحش المنبعث من الأسفل، فقد قيل إن هوجو باسكرفيل كان يتفوَّه في سكره بألفاظ كفيلة بتدمير من يسمعها. أخيرًا وتحت ضغط خوفها، أتت على ما يعجز عنه أشجع الرجال وأعلاهم همة، فقد هبطت من أسفل الإفريز متعلِّقة باللبلاب النامي الذي كان وما زال يغطي الحائط الجنوبي، واتخذت طريق العودة إلى ذويها عبر الرابية، وكانت تفصل بين قصر باسكرفيل ومزرعة والدها مسافة ثلاثة فراسخ.

تصادف بعد وقت قليل أن ترك هوجو ضيوفه وذهب ليحمل بعض الطعام والشراب – وربما أشياء أخرى أسوأ – لأسيرته، ليجد القفص خاليًا والطير قد هرب. حينها أصبح كمن تلبَّسه الشيطان، واندفع هابطًا الدرج إلى قاعة الطعام، وقفز على المائدة الكبيرة، مبعثرًا الأباريق والأطباق في كل صوب، وصرخ عاليًا أمام جميع الرفاق بأنه سوف يسلم جسده وروحه لكل قوى الشر إن هو استطاع اللحاق بالفتاة. وبينما وقف المحتفلون مذعورين من غضب الرجل، صرخ شريرٌ آخر – أو ربما كان مخمورًا أكثر من الباقين – بأن عليهم إطلاق كلاب الصيد خلفها. فانطلق هوجو من الدار صارخًا في ساسته بأن عليهم سَرج جواده وإطلاق كلابه، وإعطاءها وشاح الفتاة، ثم الدفع بها إلى الصف، وهكذا انطلق في مطاردة كبيرة في ضوء القمر بامتداد الرابية.

لبعض الوقت وقف المحتفلون بألسنة معقودة، عاجزين عن فهم كل ما حدث بالسرعة الكافية. لكن سرعان ما أدركت أذهانهم المشوشة طبيعة الفعل الذي كاد يقع في أراضي الرابية. ساد صخب، وهرع البعض إلى مسدساتهم، والبعض إلى خيولهم، والبعض إلى المزيد من الخمر. لكن في النهاية، عاد شيءٌ

من الرُّشد إلى عقولهم المجنونة، وامتطى كل منهم – وعددهم ثلاثة عشر – حصانًا وانطلقوا في أثر هوجو. تألق القمر بوضوح فوقهم، وقادوا خيولهم بسرعة جنبًا إلى جنب، متبعين المسار الذي لا بد أن الفتاة قد سلكته إن كانت تريد بلوغ منزلها.

قطعوا ميلًا أو اثنين قبل أن يمروا بأحد رعاة الغنم الليليين الذين يرعون في أراضي الرابية، فصاحوا فيه سائلين إن كان قد رأى المطاردة. وحسبما تقول القصة، تملَّك الرجل الفزع لدرجة لم يستطع معها التفوه إلا بالقليل، لكنه في النهاية قال إنه رأى الفتاة البائسة، والكلاب في أثرها. ثم استطرد قائلًا: «ورأيت شيئًا آخر، فقد مر بي هوجو باسكرفيل على صهوة جواده الأسود، ومن خلفه كان يركض في صمت كلبٌ من الجحيم، أدعو الله ألا يكون في عقبي يومًا».

وهكذا لعن الرفاق السُكارى الراعي وانطلقوا قُدمًا، ولكن سرعان ما اقشعرت جلودهم عندما جاءهم صوت خبيب عبر الرابية، ثم مر الجواد الأسود المغطى بالزبَد الأبيض بسرجٍ فارغ ولجامٍ يتطاير خلفه. قاد المحتفلون خيولهم مقتربين من بعضهم بعد أن تمكن الخوف منهم، لكنهم واصلوا المطاردة عبر الرابية، مع أن كلًا منهم كان ليسره أن يقود حصانه عائدًا، فقط لو كان بمفرده. ومع تقدمهم البطيء بهذه الطريقة وصلوا أخيرًا إلى كلاب الصيد. فمع شهرة تلك الكلاب بشجاعتها وسلالتها النقية، إلا أنها كانت تنشج محتشدة حول حافة منحدر عميق أو هوة – كما نسميها – فوق الرابية، بعضها كان ينسل مبتعدًا، وبعضها انتصب شعر عنقه وهو ينظر إلى الأسفل تجاه الهوة الضيقة بأعين جاحظة.

توقف الركب وقد أصبحوا – كما لك أن تتخيل – أكثر اتزانًا مما كانوا عليه ابتداءً. لم يكن أغلبهم ليتقدم بأي حال من الأحوال، لكن ثلاثة منهم كانوا أكثر جرأة، أو ربما أكثر ثملًا، قادوا خيولهم هابطين المنحدر. انتهى المنحدر بفسحة واسعة كان فيها – وما زال – اثنان من تلك الأحجار الضخمة التي وضعها بعض القدامى في الأيام الغابرة. كان القمر ساطعًا برَّاقًا فوق الفسحة الخالية، وفي منتصفها رقدت الفتاة التعِيسة حيث سقطت، صرِيعة الخوف والتعب. ولكن لم يكن مشهد جسدها، ولا حتى جسد هوجو باسكرفيل الراقد بالقرب منها، هو ما جعل الشعر ينتصب على رؤوس أولئك السكارى الثلاثة المتهورين، بل المخلوق القبيح الذي انحنى فوق هوجو مقتلعًا حلقه، كان وحشًا أسود كبيرًا، يشبه كلب صيد، لكنه أضخم من أي كلب صيد وقعت عليه عين بشر. وبعدما انتزع المخلوق حلق هوجو باسكرفيل، أدار عينيه المتوهجتين وفكيه اللذين يقطران دمًا تجاههم، فصرخ الثلاثة فزعين وفرُّوا على خيولهم طلبًا للنجاة، واستمر صراخهم بامتداد الرابية. وقيل إن أحدهم قد مات في تلك الليلة فزعًا مما رأى، وظل الآخران محطمين لما تبقى من حياتهما.

تلك يا أبنائي هي قصَّة ظهور الكلب التي لم تزل تجر الهلع على العائلة منذ ذلك الحين. وإن كنت دونتها، فذلك لأن ما يُعرف واضحًا يكون أقل إثارة للرعب مما يُلمح به ويُترك للتخمين. ولا يسعنا إنكار أن كثيرًا من أفراد أسرتنا قد لاقوا حتفهم على نحو مؤسف، ومفاجئ، ودموي، وغامض. ومع ذلك فإنَّا نلوذ بالعناية الإلهية اللانهائية، التي لن تعاقب إلى الأبد الأبرياء بعد الجيلين الثالث أو الرابع اللذين طالهما الوعيد في الكتب المقدسة. إلى تلك العناية الإلهية أستودعكم يا أبنائي، وأحذِّركم من عبور الرابية في الساعات المظلمة التي تتعاظم فيها قوى الشر».

[هذا كتاب من هوجو باسكرفيل لابنيه رودجر وجون، مع تعليمات بألا يتفوَّها بشيءٍ منه لشقيقتهما إليزابيث].

أنهى الطبيب مورتيمر قراءة هذه الرواية الفريدة، ثم رفع نظارته إلى جبهته وحدق إلى السيد شيرلوك هولمز. تثاءب الأخير وقذف عقب سيجارته في النار قائلًا:

– حسنًا؟

– ألا تجدها مثيرة للاهتمام؟

– إنها كذلك لمن يهوى الخرافات.

أخرج الطبيب مورتيمر جريدة مطوية من جيبه.

– والآن يا سيد هولمز، سأعرض عليك شيئًا أكثر حداثة إلى حدٍ ما. هذه هي قصاصة من جريدة وقائع مقاطعة ديفون بتاريخ الرابع عشر من مايو لهذا العام. إنه سردٌ موجز للحقائق المُثارة حول مصرع السير تشارلز باسكرفيل الذي وقع قبل بضعة أيام من هذا التاريخ.

مالَ صديقي قليلًا إلى الأمام وارتسم على وجهه تعبير يشي بالاهتمام. أما زائرنا فأعاد ارتداء نظارته وأخذ يقرأ:

«الموت المفاجئ للسير تشارلز باسكرفيل – الذي ورد اسمه كمرشح ليبرالي محتمل لميد ديفون في الانتخابات المقبلة – قد ألقى بظلاله على المقاطعة. فمع أن السير تشارلز لم يعش في قصر باسكرفيل إلا لفترة قصيرة نسبيًّا فإن شخصيته اللطيفة وكرمه الشديد نالا إعجاب واحترام كل من عرفوه. إنه لجدير بالإعجاب أن نجد، في هذه الأيام التي كثُر فيها مُحدثو النعمة، حالة يستطيع فيها سليل عائلة عريقة قاست سنواتٍ عجافًا أن يصنع ثروته الخاصة ويعود بها، ليستعيد مجد سلالته الغابر. ومن المعروف أن السير تشارلز قد جنى مبالغ كبيرة من المال من المضاربة في جنوب إفريقيا. وكان أكثر حكمة ممن استمروا حتى دارت الدائرة عليهم، فحقق مكاسبه وعاد بها إلى إنجلترا. ومع أنه لم يمضِ على إقامته في قصر باسكرفيل سوى عامين، فقد شاع الحديث عن ضخامة مخططات إعادة التعمير والتحسينات التي أوقفتها وفاته. ولمَّا كان محرومًا من الأطفال، فقد أعلن عن رغبته في أن يستفيد سكان الريف كلهم من ثروته الوافرة خلال حياته، لذلك فُجع الكثيرون في وفاته المفاجئة. وكثيرًا ما كتبنا عن تبرعاته السخية للجمعيات الخيرية المحلية والإقليمية في أعمدة جريدتنا.

لم توضح التحقيقات ملابسات موت السير تشارلز بالكامل، لكنها على الأقل قدمت ما يكفي لحسم تلك الشائعات التي أثارتها الخُرافات المحلية. ما من سببٍ للاشتباه في وقوع جريمة، أو لتخيل أن الوفاة قد حدثت لغير الأسباب الطبيعية. كان السير تشارلز أرمل، ويمكن القول إنه كان رجلًا ذا طبيعة عقلية غريبة من بعض النواحي. فقد كان يفضل البساطة مع أنه كان ذا ثروة كبيرة، وكان خادماه في قصر باسكرفيل هما السيد باريمور وزوجته، حيث يعمل الزوج خادمًا شخصيًّا والزوجة مدبرةً للقصر. توضح شهادتهما – التي تدعمها شهادات العديد من الأصدقاء – أن صحة السير تشارلز كانت معتلة منذ فترة، وتشير بصفة خاصة إلى مرضٍ قلبي ما، يتجلى في تغير اللون وضيق التنفس، ونوبات الاكتئاب

العصبي الحادة. وقد أدلى الطبيب مورتيمر – صديق المتوفَّى والمرافق الطبي له – بشهادة تحمل ذات المعنى.

إن وقائع القضية بسيطة. فقد كان السير تشارلز باسكرفيل معتادًا قبل ذهابه إلى الفراش كل ليلة أن يسير في الممشى الذي تحفه أشجار الطُّقسوس بحديقة قصر باسكرفيل، وذلك وفق شهادة آل باريمور. وفي الرابع من مايو أعلن السير تشارلز عن نيته في السفر إلى لندن في اليوم التالي، وأصدر أوامره لباريمور بتجهيز أمتعته. وخرج في تلك الليلة كالمعتاد لمسيرته الليلية، التي اعتاد تدخين السيجار فيها. ثم لم يعُد قط. حينما وجد باريمور أن باب القصر ما زال مفتوحًا في الساعة الثانية عشرة، فأصابه الذعر وأشعل مصباحًا، وذهب بحثًا عن سيدِه. كان يومًا ممطرًا، مما سهل تتبع آثار أقدام السير تشارلز على الممشى. في منتصف هذا الممشى، توجد بوابة تؤدي إلى الرابية في الخارج، وثمة أدلة على أن السير تشارلز قد وقف هناك لبعض الوقت، ثم تابع طريقه في الممشى. وفي نهاية هذا الممشى اكتُشفت جثته. ظلت واقعة واحدة في حديث باريمور دون تفسير؛ فقد تغير شكل آثار أقدام سيده في اللحظة التي تجاوز فيها بوابة الرابية، وبدا منذ ذلك الحين وكأنه يمشي على أصابع قدميه. في ذلك الوقت كان تاجر خيول غجري يُدعى مارفي فوق الرابية على مسافة ليست ببعيدة، لكنه حسب اعترافه كان ثملًا. قال إنه سمع صراخًا، لكنه غير قادر على تحديد الاتجاه الذي جاء منه. لم تُكتشف أي علامات عنف على جسد السير تشارلز، ومع أن شهادة الطبيب مورتيمر تشير إلى تشوه رهيب في الوجه – كان هائلًا لدرجة رفض معها الطبيب في البداية تصديق أن من يرقد أمامه هو صديقه ومريضه حقًّا – إلا أنه أوضح أن هذا عرض غير نادر في حالات ضيق التنفس والموت بسبب إجهاد القلب. وقد عزز تشريح الجثة هذا التفسير، الذي أظهر وجود مرض عضوي مزمن، وأصدرت هيئة محلفي محكمة الجنايات حكمًا يتوافق مع الشهادة الطبية. ومن الجيد أن سار الحُكم على هذا النحو، لأنه من الضروري دون شك أن يستقر وريث السير تشارلز في قصر باسكرفيل، ويواصل العمل الخيري الذي كان قد توقف. وإذا لم يضع هذا الحكم العقلاني حدًّا للخرافات التي أشيعت فيما يتعلق بالقضية، فقد يتعذر العثور على من يرضى بالسكن في قصر باسكرفيل. ومن المعروف أن أقرب الأقرباء هو السيد هنري باسكرفيل – إن كان لا يزال على قيد الحياة – ابن شقيق السير تشارلز باسكرفيل الأصغر. وآخر ما عُرف عن الشاب هو أنه يعيش في أمريكا، وتجري التحقيقات سعيًا لإبلاغه عن حظه الحسن».

طوى الطبيب مورتيمر جريدته وأعادها إلى جيبه.

– هذه هي الوقائع المُعلنة عن وفاة السير تشارلز باسكرفيل يا سيد هولمز.

قال شيرلوك هولمز:

– أشكرك على لفت انتباهي إلى قضية تحمل دون شك بعض السمات المثيرة. لقد سبق وقرأتُ بعض التعليقات الصحفية في ذاك الوقت، بيد أنِّي كنت منشغلًا بشدة بقضية الأحجار الكريمة التي سُرقت من الفاتيكان، وفي خضم حرصي على مساعدة البابا فاتني العديد من القضايا الإنجليزية المثيرة للاهتمام. هل قلتَ إن هذا المقال يحتوي على كل الوقائع المعلنة؟

– نعم.

– أطلعني إذن على الوقائع السرية.

قالها وتراجع في مقعده جامعًا أطراف أصابعه معًا، وارتسمت على وجهه أكثر التعبيرات هدوءًا وحصافة.

قال الطبيب مورتيمر بانفعالٍ متزايد:

– لسوف أخبرك بسرٍّ لم أبُح به لأحدٍ قط. وما كان إخفائي له أمام محكمة الجنايات إلا لأنني رجلُ علم، وأكره أن أضع نفسي موضع من يصدق الخرافات الشعبية. أما دافعي الآخر فكان خشيتي أن يظل قصر باسكرفيل – كما تقول الجريدة – مهجورًا إن حدث ما يزيد من سمعته القاتمة. لهذين السببين ظننت أنِّي محق في عدم التحدُّث بما أعرفه، فما من فائدة تُرجى من ذلك. أما معك، فليس ثمة سبب يمنعني من أن أكون صادقًا تمام الصدق. إن سُكان الرابية قليلون للغاية، ومن يعيشون بالقرب من بعضهم يلتقون كثيرًا. لهذا السبب كنت ألتقي بالسير تشارلز باسكرفيل كثيرًا. فباستثناء السيد فرانكلاند صاحب منزل لافتر، والسيد ستابلتون عالم الطبيعة، لا يوجد رجال متعلمون آخرون على بعد عدة أميال. ومع طبيعة السير تشارلز الانطوائية، فقد أصبحنا صديقين بسبب مرضه، ثم وطَّد أواصر الصداقة بيننا اشتراكنا في بعض الاهتمامات العلمية كذلك. كان قد رجع من جنوب إفريقيا وفي حوزته الكثير من المعارف العلمية، وكنا نقضي أمسيات عدة ساحرة في مناقشة علم التشريح المقارن لبوشمان وهوتنتوت.

خلال الأشهر القليلة الماضية تيقنت أن أعصاب السير تشارلز كانت مُنهكة إلى حد الانهيار. كانت الأسطورة التي قصصتها لتوي قد سيطرت عليه تمام السيطرة – حتى إنه ما من شيءٍ كان ليدفعه إلى الخروج إلى الرابية في الليل مع أنها تقع ضمن الأراضي التي يملكها. أعلم كم يبدو هذا غريبًا يا سيد هولمز، لكنه كان مقتنعًا بحق أن مصيرًا مريعًا قد ألمَّ بعائلته، ولا بد أن القصص التي سمعها عن أجداده لم تكن تبعث على التفاؤل بحال. استحوذت عليه فكرة أن روحًا شريرة تصاحبه باستمرار، وقد سألني في أكثر من مناسبة عمَّا إن كنتُ شهدت أي مخلوق غريب أو سمعت نباح كلب في رحلاتي العلاجية الليلية. لكم من مرة سألني هذا السؤال الأخير بصوتٍ يهتز انفعالًا.

أتذكر جيدًا يوم قُدت عربتي إلى منزله في إحدى الأمسيات، قبل الحادث المميت بثلاثة أسابيع. كان واقفًا عند الباب. ترجلت عن عربتي ووقفت أمامه حينما رأيت عينيه مثبتتين فوق كتفي، ومتسعتين في هلعٍ شديد. استدرت بسرعة وبالكاد استطعتُ أن ألمح شيئًا بدا لي كعِجلٍ أسود كبير يركض مبتعدًا. كان منفعلًا وجزِعًا لدرجة اضطررت معها للذهاب بحثًا عن هذا الحيوان. لكنه كان قد اختفى، تاركًا السير تشارلز في أسوأ حالاته. بقيتُ معه طوال المساء، وأسرَّ لي حينها بتلك القصة التي قرأتُها عليك في البداية، ليفسر لي انفعالاته. إنني أروي لكما تلك الواقعة الصغيرة لأنها تكتسب بعض الأهمية في ضوء المأساة التي أعقبتها، لكنني كنت مقتنعًا آنذاك بأن المسألة بالغة السخافة وأن انفعاله لا مبرر له.

اقترحتُ على السير تشارلز أن يسافر إلى لندن. فقد علمتُ بأن قلبه مريض، وبدا جليًّا أن القلق المستمر الذي عاش فيه – حتى وإن كان السبب فيه خياليًّا – فلا بد سيكون له تأثيرٌ خطير على صحته. لذلك خطر لي أن بضعة أشهر بين ملهيات المدينة ستعيده رجلًا آخر. وكان للسيد ستابلتون – الذي هو

صديق لكلينا ويهتم كثيرًا بصحة السير تشارلز – الرأي نفسه. وفي اللحظة الأخيرة وقعت هذه الفاجعة الرهيبة.

في ليلة وفاة السير تشارلز، وبعد أن اكتشف الجثة خادمه باريمور، بعث لي برسالة مع الحوذي بيركنز. كنتُ يومها متيقظًا حتى وقتٍ متأخر، لذلك تمكنت من الوصول إلى قصر باسكرفيل في غضون ساعة من الحادث. وقد فحصت وتأكدت من كل الوقائع المذكورة في التحقيق. وتتبعت آثار الأقدام بطول ممشى أشجار الطقسوس، ورأيت النقطة التي تقع عند بوابة الرابية حيث بدا أنه توقف، ولاحظت التغيير في شكل الآثار بعد تلك النقطة، ولاحظت عدم وجود أي آثار أقدام أخرى على الحصى الناعم عدا تلك الخاصة بباريمور، وأخيرًا فحصت الجثة بعناية، والتي لم يكن أحد قد مسها حتى وصلْتُ. كان السير تشارلز مستلقيًا على وجهه، وكانت ذراعاه ممدودتين وأصابعه مغروسة في الأرض، وملامحه متشنجة في انفعال قوي، حتى إنني استطعتُ تمييز هُويته بصعوبة. وتيقنت من عدم وجود أي إصابة جسدية من أي نوع. غير أن باريمور لم يُدلِ بالحقيقة كاملةً في التحقيق. فقد صرح بأننا لم نجد أي آثار أقدام على الأرض حول الجثة. لم يلحظها هو، لكنني رأيتُها – على بعد مسافة قصيرة، واضحة وحديثة العهد.

– آثار أقدام؟

– آثار أقدام.

– لرجلٍ أم امرأة؟

رمقنا الطبيب مورتيمر بنظرة غريبة للحظة، ثم انخفض صوته حتى صار همسًا وأجاب:

– كانت آثار أقدام كلبٍ عملاق يا سيد هولمز!

الفصل الثالث

المشكلة

اجتاحتني القشعريرة لدى سماعي تلك الكلمات الأخيرة. ثمة رعشة في صوت الطبيب أظهرت تزلزله العميق بما رواه. أما هولمز فقد مال إلى الأمام في خضم حماسته، ولمعت عيناه كعادتهما كلما جذب انتباهه شيء ما.

– أرأيت تلك الآثار؟

– مثلما أراك الآن بكل وضوح.

– ولم تخبر أحدًا؟

– وما الفائدة؟

– وكيف لم يرها غيرك؟

– لقد كانت تلك الآثار على بُعد عشرين ياردة من الجثة ولم يُبالِ بها أحد. لا أظن أنني كنت لأهتم بها لو لم أعرف بتلك الأسطورة.

– هل توجد كثير من كلاب الرعي على الرابية؟

– بالطبع، لكن هذا لم يكن كلبَ رعي.

– أتقصد أنه أكبر حجمًا؟

– بل كان عملاقًا.

– لكنه لم يقترب من الجثة، أليس كذلك؟

– بلى.

– وكيف كان الطقس في هذه الليلة؟

– رطبًا وباردًا.

– ولكن هل أمطرت حقًّا؟

– لا.

– وكيف يبدو الممشى؟

– ثمة سياجان من أشجار الطقسوس القديمة، يبلغ ارتفاعهما اثني عشر قدمًا ولا يمكن المرور من خلالهما. ويبلغ طول الممشى بينهما نحو ثمانية أقدام.

– هل من شيء بين السياجين والممشى؟

– نعم، هناك شريطٌ عشبي يبلغ عرضه نحو ستة أقدام على كلا الجانبين.

– وحسبما فهمت، يمكن المرور من خلال سياج الطقسوس في نقطة واحدة عبر بوابة، أليس كذلك؟

– بلى، البوابة الصغيرة التي تؤدي إلى الرابية.

– هل من فتحات أخرى؟

– لا.

– إذن، فلكي يصل المرء إلى ممشى الطقسوس، عليه إما أن يأتيه من القصر أو يدخله من بوابة الرابية.

– ثمة طريق يمر عبر الكوخ الصيفي في الطرف البعيد من الممشى.

– هل بلغه السير تشارلز؟

– لا؛ بل رقد على بعد نحو خمسين ياردة منه.

– والآن أخبرني أيها الطبيب مورتيمر – وهذا مهم – أن الآثار التي رأيتها كانت على الممر وليس على العشب.

– لم يكن ثمة آثار على العشب.

– هل كانت على الجانب نفسه من الممر الذي تقع فيه بوابة الرابية؟

– نعم؛ كانت على حافة الممر على الجانب نفسه الذي تقع فيه البوابة.

– إنك تثير اهتمامي على نحوٍ متزايد. نقطة أخرى، هل كانت البوابة الصغيرة مغلقة؟

– نعم، مغلقة ومؤصدة.

– كم يبلغ ارتفاعها؟

– نحو أربعة أقدام.

– إذن يمكن لأي أحد أن يثب فوقها؟

– نعم.

– وما العلامات التي رأيتها عند البوابة الصغيرة؟

– لا شيء على وجه الخصوص.

– يا إلهي! ألم يعاينها أحد؟

– بلى، لقد عاينتُها بنفسي.

– ولم تجد شيئًا؟

– كان الوضع كله فوضويًا للغاية. لكن بدا لي واضحًا أن السير تشارلز وقف هناك لخمس أو عشر دقائق.

– كيف عرفت؟

– لأن كمية الرماد المتساقط من سيجارته كانت الضعف.

– ممتاز! إنه زميل يا واتسون، له نفس الاهتمامات. لكن ماذا عن الآثار؟

– لقد ترك آثاره في كل مكان على تلك البقعة الصغيرة من الحصى. ولم أرَ أي آثار أخرى.

ضرب هولمز بقبضته على ركبته بتحسر، وصاح:

– ليتني كنت هناك! الحق أنها قضية ذات أهمية استثنائية، تحتاج إلى خبير علمي. كان بوسعي أن أقرأ الكثير على صفحة الحصى تلك قبل أن يلطخها المطر، وتشوهها قباقيب القرويين الفضوليين. أوه أيها الطبيب مورتيمر، أيها الطبيب مورتيمر، مجرد التفكير في أنك لم تستدعني! يتعيَّن عليك حقًّا تبرير الكثير.

– لم أستطع استدعاءك يا سيد هولمز من دون كشف هذه الوقائع للعالم، وقد وضَّحت لك أسباب عدم رغبتي في ذلك. بالإضافة إلى، بالإضافة إلى...

– لِمَ أنت متردد؟

– ثمة عالَم يكون فيه أمهر المحققين وأعظمهم خبرة بلا فائدة

– أتعني أن هذا المخلوق خارق للطبيعة؟

– لم أقل هذا.

– لا، ولكن من الواضح أنك تعتقده كذلك.

– منذ وقوع المأساة يا سيد هولمز، ترددت على مسامعي العديد من الحوادث التي يصعب أن تتوافق مع النظام المستقر للطبيعة.

– مثل ماذا؟

– سمعتُ أن بعض الناس قبل وقوع الحادث رأوا فوق الرابية مخلوقًا يماثل شيطان آل باسكرفيل هذا، والذي لا يشبه أي حيوان عرفه العِلم. وقد اتفقوا جميعًا على أنه مخلوقٌ ضخم شبحيٌ مريع يتوهج في الظلام. لقد استجوبت أولئك الرجال، أحدهم قروي حصيف، والآخر بيطري، والآخر مزارع في أراضي الرابية، وقد أخبرني ثلاثتهم بالقصة ذاتها عن هذا الشبح المخيف، الذي يشبه تمام الشبه الكلب المذكور في الأسطورة. أؤكد لكما أن الرعب قد ساد المقاطعة بأكملها، فلم يعد يجرؤ على عبور الرابية إلا رجل جسور بحق.

– وأنت، يا رجل العلم المثقف، أتصدق أن هذا المخلوق خارق للطبيعة؟

– لم أعد أدري ماذا أصدق؟

هز هولمز كتفيه قائلًا:

– لقد ظلت تحقيقاتي حتى هذه اللحظة حبيسة هذا العالم، لقد قاومت الشر على استحياء، أما مواجهة الشيطان بنفسه، فتلك على الأرجح مهمة بالغة الطموح. ومع ذلك، عليك أن تعترف بأن آثار الأقدام مادية.

– لقد كان كلب الأسطورة ماديًّا بما يكفي لانتزاع حلق الرجل، ومع ذلك كان شيطانيًّا.

– أراك تحوَّلت إلى عالِم في الخوارق. ولكن أخبرني الآن أيها الطبيب مورتيمر، أما وقد تبنَّيت هذا الرأي، لمَ جئت لاستشارتي في الأصل؟ إنك تخبرني ألا جدوى من التحقيق في وفاة السير تشارلز، وفي

الوقت نفسه تريد مني التحقيق فيها.

– لم أقل إني أريد منك ذلك.

– كيف يمكنني مساعدتك إذن؟

قال الطبيب مورتيمر وهو ينظر إلى ساعته:

– بأن تنصحني بما يجب عليَّ فعله مع السير هنري باسكرفيل، الذي سيصل إلى محطة ووترلو في غضون ساعة وربع الساعة بالضبط.

– الوريث الشرعي؟

– نعم. عند وفاة السير تشارلز استفسرنا عن هذا الشاب وعلمنا أنه كان يعمل في الزراعة في كندا. ومن القصص التي وصلتنا عرفنا أنه شاب محترم من شتى النواحي. لا أتحدث بصفتي طبيبًا، بل وصيًّا ومنفذًا لوصية السير تشارلز.

– أليس هناك أحدٌ غيره ينازعه في الميراث؟

– نعم. القريب الوحيد الآخر الذي تمكنا من تتبعه هو رودجر باسكرفيل، الأخ الأصغر بين ثلاثة أشقاء كان أكبرهم السير تشارلز المسكين. أما الأخ الثاني – الذي مات صغيرًا – فهو والد هذا الشاب المدعو هنري. وأما الثالث المدعو رودجر، فقد كان الابن الضال للعائلة. لقد ورث تسلُّط سلالة باسكرفيل القديمة، وحسبما سمعتُ، كان يشبه الصورة التي تملكها العائلة لهوجو الكبير بالضبط. وقد جعل الأمور في إنجلترا تحتدم لدرجة تعذر معها بقاؤه فيها، ففرَّ إلى أمريكا الوسطى، حيث مات بالحمى الصفراء في عام 1876. وهكذا فإن هنري هو آخر آل باسكرفيل. وسوف ألتقيه بعد ساعة وعشر دقائق في محطة ووترلو. لقد تلقيت برقية تفيد بأنه وصل إلى ساوثهامبتون هذا الصباح. والآن يا سيد هولمز ما الذي تنصحني بفعله معه؟

– لماذا لا يذهب إلى قصر آبائه؟

– من الطبيعي أن يفعل هذا، أليس كذلك؟ ومع ذلك، ضع في اعتبارك أن كل فرد من آل باسكرفيل يذهب إلى هناك يلقى مصيرًا كارثيًّا. أنا واثق أن السير تشارلز لو استطاع الحديث معي قبل وفاته لحذرني من إحضار آخر فرد من السلالة العريقة، ووريث ثروته الكبيرة، إلى ذاك المكان المميت. ومع ذلك، لا يمكنني إنكار أن رخاء الريف الفقير البائس بأكمله يعتمد على وجوده. وأن كل العمل الشاق الذي أنجزه السير تشارلز سيصير هباءً إن لم يسكن أحد قصر باسكرفيل. أخشى أن اهتمامي الشخصي قد يجعلني منحازًا لرأيٍ دون آخر، لذا أرفع القضية أمامك وأسألك النصيحة.

فكر هولمز هنيهة قبل أن يقول:

– ببساطة، أنت تعتقد أن ثمة قوة شيطانية تجعل من دارتمور مكانًا غير آمن لفرد من آل باسكرفيل – هل هذا ما تعتقده؟

– يمكنني على الأقل أن أقول إن ثمة أدلة تجعل هذا محتملًا.

– بالضبط. ولكن إن كانت نظريتك الخارقة للطبيعة صحيحة، فيقينًا يمكن للشيطان أن يبلغ الشاب في لندن بنفس سهولة بلوغه في ديفونشاير. فالشياطين على حد علمي لا تمتلك قوى محلِّية فقط.

– إنك تتعامل مع المسألة باستخفاف يا سيد هولمز، وهو ما لم تكن لتفعله لو كنت مكاني. إذن فأنت ترى، حسبما فهمت، أن الشاب سيكون آمنًا في ديفونشاير مثلما سيكون في لندن. إنه سيصل في غضون خمس وخمسين دقيقة، فبم توصي؟

– أوصيك يا سيدي أن تستقل عربة أجرة، وتُبعد كلبك السبنيلي الذي يخدش بابي، وتذهب إلى ووترلو لملاقاة السير هنري باسكرفيل.

– ثم؟

– ثم لن تقول له شيئًا على الإطلاق، حتى أحسم رأيي في الموضوع.

– وكم من الوقت تحتاج لكي تحسم رأيك؟

– أربع وعشرين ساعة. سأكون في غاية الامتنان أيها الطبيب مورتيمر إن أتيت إلى هنا في العاشرة من صباح الغد، وسيفيدني في خططي المستقبلية أن تحضر السير هنري باسكرفيل معك.

– لك ذلك يا سيد هولمز.

قالها ودوَّن الموعد في عُجالة على سوار قميصه، وأسرع منصرفًا بأسلوبه الغريب المتأمِّل شارد الذهن. أوقفه هولمز على قمة الدَّرج.

– عندي سؤال واحد آخر أيها الطبيب مورتيمر. هل قلت إن بعض الناس قبل وفاة السير تشارلز باسكرفيل قد رأوا هذا الشبح فوق الرابية؟

– ثلاثة أشخاص فعلوا ذلك.

– هل رآه أحد بعدها؟

– لم أسمع بذلك.

– شكرًا لك. عمت صباحًا.

عاد هولمز إلى مقعده بتلك النظرة الهادئة المفعمة بالرضا الداخلي والتي تعني أن لديه مهمة تروق له.

– هل ستخرج يا واتسون؟

– ما لم يكن في إمكاني مساعدتك.

– لا يا صديقي العزيز، فأنا لا ألجأ إلى مساعدتك إلا في ساعة العمل. ولكن تلك القضية بديعة، إنها فريدة حقًّا من عدة أوجه. حينما تمرُّ بمتجر برادلي، هلا طلبت منه أن يرسل لي رطلًا من أجود أنواع التبغ؟ شكرًا لك. وسأكون شاكرًا أيضًا إن استطعت ألا تعود قبل حلول المساء. حينها سيسرني مقارنة الانطباعات حول تلك المشكلة المثيرة للاهتمام التي عُرضت علينا هذا الصباح.

كنت أعرف أن الوحدة والعُزلة من الأشياء الضرورية جدًّا لصديقي هولمز في تلك الأوقات التي تتطلب تركيزًا مكثفًا، والتي يزن خلالها كل جزئية من الأدلة، ويكوِّن نظريات بديلة ويوازن كل منها في مقابل

الأخرى، ويرتب كل تفصيلة حسب أهميتها. لذلك أمضيت اليوم في النادي ولم أعُد إلى شارع بيكر حتى المساء. كانت الساعة تقترب من التاسعة عندما وجدت نفسي في غرفة معيشتنا مرة أخرى.

ما إن فتحت الباب حتى ظننتُ أن حريقًا قد اندلع؛ فقد كانت الغرفة غاصة بالدخان لدرجة أن ضوء المصباح الموضوع على الطاولة كان ضبابيًّا. لكن سرعان ما تنفست الصعداء حين أدركت أن هذا دخان التبغ النفاذ الذي تسلل إلى حلقي وأصابني بنوبة سعال. رأيت هولمز بصعوبة من خلال الضباب ملتفًّا برداء النوم على مقعدٍ ذي ذراعين، غليونه الأسود بين شفتيه، فيما تستقر حوله عدة أكوام من الورق.

قال: «هل أصبت بالبرد يا واتسون؟».

– كلا، إنه هذا الدخان السام.

– الآن بعد أن قلت هذا، أظنه حقًّا كثيفًا على نحو ما.

– كثيف! إنه لا يطاق.

– افتح النافذة إذن! لقد بقيت في ناديك طوال اليوم كما أرى.

– يا إلهي!

– هل أنا محق؟

– بكل تأكيد، ولكن كيف عرفت؟

ضحك على تساؤلي الحائر.

– ثمة عذوبة مبهجة فيك يا واتسون، ما يجعل ممارسة أي قوى صغيرة أمتلكها عليك أمرًا ممتعًا. إن رجلًا نبيلًا يخرج في يومٍ ممطرٍ وموحل، ويعود نظيفًا في المساء ولا تزال قبعته وحذاؤه لامعين، لا بد أن يكون قد قضى اليوم كله عالقًا في مكانٍ ما. لكنه لا يملك أصدقاء مقربين، فأين يمكن أن يكون إذن؟ أليس هذا واضحًا؟

– حسنًا، إنه واضح نوعًا ما.

– العالم مليء بالأشياء الواضحة التي لا يلاحظها أحد بأي حال. أين تظنني كنت؟

– عالقًا في مكان ما أيضًا.

– على العكس، لقد ذهبت إلى ديفونشاير.

– روحيًّا؟

– بالضبط. لقد ظل جسدي على هذا المقعد، ويؤسفني أن ألاحظ أنه استهلك في غيابي قِدرين كبيرين من القهوة وكمية لا تصدَّق من التبغ. فبعد مغادرتك أرسلت إلى متجر ستامفورد بطلب الحصول على خريطة تفصيلية لهذا الجزء من الرابية، وحلقت روحي فوقها طوال اليوم. والنتيجة أني صرتُ أعرفها عن ظهر قلب.

– هل أحسبها خريطة كبيرة إذن؟

فضَّ قسمًا واحدًا ووضعه على ركبته

– كبيرة جدًّا. هنا تقع المنطقة التي تعنينا. وهذا هو قصر باسكرفيل في المنتصف.

– ذلك المحاط بالغابة؟

– بالضبط. أتخيل أن ممشى الطقسوس – مع أنه غير مذكور بهذا الاسم – لا بد أن يمتد على طول هذا الخط، بحيث تقع الرابية كما تلاحظ على يمينه. هذه المجموعة الصغيرة من المباني هنا هي قرية جريمبن، حيث يوجد مقر صديقنا الدكتور مورتيمر. لا يوجد سوى عدد قليل جدًّا من المساكن المتناثرة داخل دائرة قطرها خمسة أميال كما ترى. وها هو ذا منزل لافتر الذي ورد ذكره في الرواية. ثمة منزل موضح هنا قد يكون مسكن عالم الطبيعة – ستابلتون، حسبما أتذكر. وهاتان هما مزرعتان في قلب الرابية، اسمهما هاي تور وفولماير. ثم على بعد أربعة عشر ميلًا يقع سجن برنستاون الكبير. وتمتد الرابية المقفرة الخالية من الحياة بين هذه النقاط المتناثرة وحولها. هذا إذن هو المسرح الذي جرت فوقه المأساة، والذي سنحاول باستخدامه أن نعيد تصورها مرة أخرى.

– لا بد أنه مكانٌ موحش.

– نعم، إنه المكان المناسب. إذا أراد الشيطان أن تكون له يدٌ في شؤون الناس.

– أنت تميل إذن للتفسير الخارق للطبيعة.

– قد يكون وكلاء الشيطان من لحم ودم، أليس هذا ممكنًا؟ ثمة سؤالان ينتظراننا بادئ ذي بدء. الأول هو ما إذا كانت أي جريمة قد ارتُكبت في الأصل؛ والثاني هو ما نوع الجريمة وكيف ارتُكبت؟ بالطبع لو كان ظن الدكتور مورتيمر صحيحًا، وكنا نتعامل مع قوى خارجة عن نواميس الطبيعة، فتلك ستكون نهاية تحقيقنا. لكننا ملزمون باستنفاد جميع الفرضيات الأخرى قبل اللجوء إلى هذه الفرضية. أظن أننا سنغلق هذه النافذة مرة أخرى، إن لم يكن لديك مانع. إنه لشيء غريب، لكن الأماكن المغلقة تساعدني على التركيز. لم أصل بعد إلى حد الدخول في صندوق كي أفكر، بيد أن هذه هي النتيجة المنطقية لقناعاتي. هل أدرت القضية في ذهنك؟

– نعم، لقد فكرت فيها كثيرًا على مدار اليوم.

– وماذا استنتجت؟

– إنها محيرة جدًّا.

– إن لها طابعًا خاصًّا بكل تأكيد. ثمة نقاط مميزة بشأنها. فمثلًا ذاك التغير في شكل آثار الأقدام، ماذا تستنتج منه؟

– قال مورتيمر إن الرجل كان يسير على رؤوس أصابعه في ذلك الجزء من الممشى.

– لقد كرر فحسب ما قاله أحمق ما خلال التحقيق. ما الذي يحمل رجلًا على السير على رؤوس أصابعه في الممشى؟

– ماذا إذن؟

– لقد كان يعدو يا واتسون – يعدو يائسًا، يعدو للنجاة بحياته، يعدو حتى انفجر قلبه وسقط على وجهه صريعًا.

– يعدو هربًا من ماذا؟

– هنا تكمن مشكلتنا. ثمة دلائل على أن الرجل فقد عقله من الخوف حتى قبل أن يبدأ العدْو.

– كيف يمكنك الجزم بهذا؟

– إنني أفترض أن ما أخافه قد أتى من الرابية. إن كان الحال هكذا، وهو الأكثر احتمالًا، فلن يعدو بعيدًا عن قصره بدلًا من أن يعدو تجاهه إلا رجلًا فقد صوابه. وإذا اعتبرنا شهادة الغجري صحيحة، فقد ركض صارخًا يطلب المساعدة من اتجاه يتعذَّر الحصول على مساعدة منه. ثم من كان ينتظر في تلك الليلة، ولماذا كان ينتظره في ممشى الطقسوس بدلًا من انتظاره في القصر؟

– أتعتقد أنه كان ينتظر أحدًا؟

– لقد كان الرجل مسنًّا وواهنًا. يمكننا أن نتفهم خروجه في نزهة ليلية، لكن الأرض كانت رطبة والليلة عاصفة. هل من الطبيعي أن يقف لخمس أو عشر دقائق، كما استخلص الطبيب مورتيمر من رماد السيجار؟ إن هذا ليس بأسلوب من يتريض.

– لكنه كان يخرج كل مساء.

– لا أظنه كان ينتظر عند بوابة الرابية كل مساء. بل على العكس، تقول الشهادات إنه كان يتحاشى الرابية. لكنه انتظر هناك في تلك الليلة، الليلة التي تسبق رحيله إلى لندن. لقد أصبح للقضية جسدٌ يا واتسون. إنها تزداد ترابطًا. هلا ناولتني كماني، سنُرجئ أي تفكير في هذه المسألة حتى نلتقي بالطبيب مورتيمر والسير هنري باسكرفيل في الصباح.

الفصل الرابع

السير هنري باسكرفيل

انتهينا من فطورنا مبكرًا، وانتظر هولمز اللقاء الموعود واضعًا روبه المنزلي. أتى عميلانا في موعدهما، فلم تكد تدق الساعة العاشرة حتى ظهر الطبيب مورتيمر يتبعه البارون الشاب. كان الأخير رجلًا ضئيلَ الحجم نشيطًا ذا عينين داكنتين وحاجبين أسودين كثيفين ووجهٍ قوي شرس، يناهز الثلاثين من عمره. وكان مفتول العضلات، وقد لوَّحته الشمس كشخصٍ قضى أغلب عمره في الهواء الطلق، ومع ذلك، كان في عينيه الثابتتين ومشيته الواثقة الهادئة شيءٌ ما يشي بنبله.

قال الطبيب مورتيمر:

– هذا هو السير هنري باسكرفيل.

فقال السير هنري:

– بالضبط، والغريب يا سيد شيرلوك هولمز أنه لو لم يقترح صديقي الحضور معه هذا الصباح، لجئت أنا بمفردي. فأنا على علم ببراعتك في حل الألغاز، وقد واجهني أحدها هذا الصباح واستعصى عليَّ حله.

– اجلس رجاءً أيها السير هنري. هل تعني أنك خضت بنفسك تجربة غريبة منذ وصولك إلى لندن؟

– ليس شيئًا ذا بال يا سيد هولمز. إنها مزحة على الأرجح لا أكثر. فقد وصلتني هذه الرسالة، إن جاز أن تدعوها رسالة.

قالها ووضع ظرفًا على الطاولة، وانكببنا جميعًا عليه. كان من نوعية شائعة، رمادية اللون. كُتب عليه عنوان بخط رديء يقول: «السير هنري باسكرفيل، فندق نورثمبرلاند» وكان الختم البريدي يشير إلى (محطة تشيرنج كروس) وتاريخ الإرسال يشير إلى مساء اليوم السابق.

سأل هولمز زائرنا وهو يرمقه باهتمام:

– من يعرف أنك تنوي الإقامة في فندق نورثمبرلاند؟

– لا أحد. لم أقرر ذلك إلا بعد أن التقيت بالطبيب مورتيمر.

– ولكن لا شك أن الطبيب مورتيمر كان يقيم هناك حقًّا.

قال الطبيب:

– لا، لقد مكثتُ لدى صديق، لم يكن ثمة دليل على أننا سنقيم بهذا الفندق.

– همم! يبدو أن أحدهم مهتمٌّ كثيرًا بتحركاتك.

قالها وأخرج من الظرف نصف ورقة مطوية إلى أربعة أقسام. فضها وفردها على الطاولة. في منتصفها تشكلت عبارة واحدة من قصاصات عليها كلمات مطبوعة. وكانت على النحو التالي:

(إن كنت) (تقدر) (فعليك) (قواك العقلية) (الابتعاد عن) (حياتك).

كانت كلمة (الرابية) هي الوحيدة المكتوبة بالحبر.

قال السير هنري باسكرفيل:

– والآن، هلا أخبرتني يا سيد هولمز، ما معنى هذا، ومن ذا الذي يولي شؤوني هذا الاهتمام الشديد؟

– ما رأيك في هذا أيها الطبيب مورتيمر؟ عليك أن تقر بأنه ما من شيءٍ خارق للطبيعة في تلك الرسالة بأي حال.

– نعم يا سيدي، ولكن يجوز أيضًا أنها أتت من شخصٍ مقتنع بوجود شيء خارق للطبيعة.

سأل السير هنري بحدة:

– أي شيء؟ يبدو لي أنكم جميعًا أيها السادة تعرفون عن شؤوني أكثر مما أعرف.

قال شيرلوك هولمز:

– لسوف تشاركنا معرفتنا قبل أن تغادر هذه الغرفة أيها السير هنري. أعدك بهذا، لكننا سنقتصر في الوقت الحاضر بعد إذنك على تلك الرسالة المثيرة للفضول، والتي لا بد من أنها أُعدَّت وأُرسلت مساء الأمس. هل تملك عدد الأمس من جريدة التايمز يا واتسون؟

– إنه هنا في الزاوية.

– هلا ناولتني إياه؟ أريد الصفحة الداخلية من فضلك، تلك التي تحوي المقالات الافتتاحية.

ثم ألقى نظرة سريعة عليها، وعيناه تركضان إلى أعلى وأسفل الأعمدة.

– ها هو ذا مقال اقتصادي عن التجارة الحرة. اسمح لي بأن أقرأ لك مقتطفًا منه.

«إن كنت تتصور أن الضرائب الجمركية تقدِّر تجارتك المحلية، فعليك أن تفحص قواك العقلية، فمن البديهي أن مثل هذا التشريع سيؤدي بالثروات على المدى الطويل إلى الابتعاد عن البلد، ويُقلص من قيمة وارداتنا، ويخفض مستوى حياتك وحياة كل مواطن في بلادنا العزيزة».

صاح هولمز بسعادة غامرة وهو يفرك يديه بغبطة:

– ما رأيك في هذا يا واتسون؟ يا له من شعورٍ رائع!

نظر الطبيب مورتيمر إلى هولمز بشيءٍ من الاهتمام المهني، بينما نظر إليَّ السير هنري باسكرفيل بعينيه الداكنتين الحائرتين، ثم قال:

– لا أعرف الكثير عن الجمارك وغيرها من هذا القبيل، لكن يبدو لي أننا ابتعدنا كثيرًا عن المسار الذي تتعلق به الرسالة.

– على العكس، أعتقد أننا على أكثر المسارات صوابًا أيها السير هنري. أما واتسون فيعرف عن أساليبي أكثر منك، بيد أنِّي أخشى أن يكون هو الآخر لم يدرك أهمية هذه الفقرة.

– لا، لم أفعل. أعترف بأنني لا أرى أية صلة.

– لكن ثمة صلة وثيقة يا عزيزي واتسون، لدرجة أن إحداهما يمكن استخلاصه من الأخرى. (إن كنت) (تقدر) (فعليك) (قواك العقلية) (الابتعاد عن) (حياتك)، ألا ترى الآن من أين أُخذت هذه

الكلمات؟

صاح السير هنري:

– يا إلهي! معك حق، حسنًا، أليس هذا عبقريًّا!

قال الطبيب مورتيمر محدقًا إلى صديقي في ذهول:

– إن هذا يا سيد هولمز ليفوق كل ما تصوَّرته. فيمكنني أن أفهم إن قال أحدهم بأن الكلمات مقتطعة من جريدة ما؛ ولكن أن تحدد اسم الجريدة، وتضيف أنها جاءت من المقال الافتتاحي، لهو حقًّا أحد أروع الأشياء التي رأيتُها على الإطلاق. كيف فعلت ذلك؟

– أفترض أيها الطبيب أن بإمكانك أن تميز بين جمجمة رجل من أصول إفريقية، وجمجمة رجل من الإسكيمو، أليس كذلك؟

– بلى، بكل تأكيد.

– لكن كيف؟

– لأنها هوايتي المفضلة. فالاختلافات واضحة. القمة فوق الحاجبين وزاوية الوجه ومُنحنى الفك العلوي وال– ...

– وهذه أيضًا هوايتي المفضلة، والاختلافات واضحة بالقدر ذاته. فأنا أرى فرقًا بين الطباعة البرجوازية كثيرة المسافات المستخدمة في مقالات التايمز والطباعة الرديئة لجريدة مسائية سعرها نصف بنس، بقدر الفرق الذي تراه بين الزنجي ورجل الإسكيمو. إن تحديد نوع الطباعة لهو أحد فروع المعرفة البسيطة للخبير الجنائي المميز، وإن كنت أعترف أني خلطت ذات مرة في صغري بين جريدتي ليدز ميركوري وويسترن مورنينج نيوز. لكن المقالات الافتتاحية لجريدة التايمز مميزة بكليتها، ومحالٌ أن تكون تلك الكلمات مأخوذة من غيرها. ولما كانت الرسالة قد أرسلت بالأمس فإن الاحتمال الأكبر هو أننا سنجد الكلمات في عدد الأمس.

قال السير هنري باسكرفيل:

– إذن يا سيد هولمز، فحسبما فهمت، قام أحدهم وقصَّ هذه الرسالة بالمقص...

– قال هولمز:

– مقص أظافر، يمكنك أن ترى كم كان حدُّ المقص قصيرًا، حتى إنه اضطر لقطع كلمتي (الابتعاد عن) على مرتين.

– هكذا إذن. قص أحدهم الرسالة بمقص قصير الحد، ولصقها بلاصق...

قال هولمز: «صمغ».

– بصمغٍ على الورقة. لكنني أريد أن أعرف لماذا اضطر إلى كتابة كلمة (الرابية)؟

– لأنه لم يستطع العثور عليها مطبوعة. كانت الكلمات الأخرى كلها بسيطة ويُحتمل وجودها في أي عدد، لكن كلمة (الرابية) أقل شيوعًا.

– ربَّاه، بالطبع هذا يفسِّر الأمر. هل استنتجت أي شيء آخر من هذه الرسالة يا سيد هولمز؟

– ثمة دليل أو اثنان، ومع ذلك فقد بُذل جهد فائق لإزالة كل القرائن. فالعنوان كما تلاحظ مدوَّن بخط رديء. لكن من النادر أن تجد جريدة التايمز في أيدي من لم يتلقوا تعليمًا عاليًا. ومن ثم يمكننا اعتبار أن من جمع الرسالة رجلٌ مثقف أراد أن يتظاهر بأنه ليس كذلك، ومحاولته إخفاء خطه تشير إلى أنك قد تتعرف عليه. ويمكنك أن تلاحظ أيضًا أن الكلمات ليست ملصقة على خطٍ واحد دقيق، ولكن بعضها يعلو كثيرًا عن البعض الآخر. كلمة 'الحياة' على سبيل المثال بعيدة تمامًا عن مكانها الصحيح. قد يشير هذا إلى الإهمال، أو إلى الانفعال والعجلة من جانب المرسِل. غير أني أميل إلى الاحتمال الأخير، لأنه من الواضح أن المسألة مهمة، ومن غير المرجح أن يكون جامع مثل هذه الرسالة مهملًا. وإذا كان في عجلة من أمره فهذا يطرح سؤالًا مهمًّا: لماذا يكون في عجلة من أمره، فمن شأن أي رسالة تُرسل في الصباح الباكر أن تصل السير هنري قبل أن يغادر فندقه. هل كان المرسِل يخشى أن يقاطعه أحد؟ ومن ذا الذي قد يقاطعه؟

قال الطبيب مورتيمر:

– ها قد وصلنا الآن إلى مرحلة التخمين.

– بل قل المرحلة التي نوازن فيها بين الاحتمالات ونختار أرجحها. هذا هو الاستخدام العلمي للخيال، لكننا نمتلك أيضًا بعض الأسس المادية لنبني عليها افتراضاتنا. والآن، لا شك أنك ستطلق على ما سأقوله تخمينًا، إلا إنني أكاد أجزم بأن هذا العنوان كُتب في فندق.

– لِمَ تقول هذا؟

– إذا فحصته بدقة، سترى أن القلم والحبر كليهما لم يكونا في أحسن حالاتهما أثناء الكتابة. فقد نثر القلم الحبر مرتين في كلمة واحدة، وجفَّ ثلاث مرات أثناء كتابة عنوان قصير، مما يدل على وجود حبر قليل للغاية في الزجاجة. والآن، قلَّما يُسمح لقلمٍ أو زجاجة حبر خاصين أن يكونا في مثل هذه الحالة، ومؤكَّد أن وجودهما معًا هكذا أمر جد نادر. لكنك تعرف حبر الفندق وقلم الفندق، حيث نادرًا ما يحصل المرء على أفضل من ذلك. بل أراهن أننا لو فحصنا سلال المهملات الخاصة بالفنادق القريبة من محطة تشيرنج كروس فلسوف نعثر على بقايا افتتاحية التايمز الممزقة، ولسوف نضع أيدينا مباشرة على مُرسِل هذه الرسالة الفريدة. مهلًا! مهلًا! ما هذا؟

قالها وهو يفحص الورقة التي لُصقت عليها الكلمات بحرص، ويمسكها على بُعد بوصة أو اثنتين فقط من عينيه.

– ما الأمر؟

قال وهو يلقيها بعيدًا

– لا شيء، إنها نصف ورقة فارغة، دون أي علامة مائية عليها حتى. أعتقد أننا استخلصنا قدر المستطاع من هذه الرسالة الغريبة؛ والآن أيها السير هنري، هل صادفت شيئًا غريبًا آخر منذ وصلت إلى لندن؟

– لا يا سيد هولمز، لا أظن هذا.

– ألم تلحظ وجود شخص يتبعك أو يراقبك؟

قال ضيفنا: «أشعر كأنما خطوت لتوي إلى داخل رواية رخيصة، لِمَ قد يريد أي أحد أن يتبعني أو يراقبني؟»

– أوشكنا على التطرق إلى هذا. هل لديك أي شيء آخر لتبلغنا به قبل أن نبدأ؟

– حسنًا، هذا يعتمد على ما تظنه يستحق الإبلاغ عنه.

– أظن أن أي شيء خارج نمط الحياة المعتاد يستحق الإبلاغ عنه.

ابتسم السير هنري.

– لا أعرف الكثير عن الحياة البريطانية بعد، فقد قضيت حياتي كلها تقريبًا في أمريكا وكندا. لكنني أرجو ألا يكون فقدان إحدى فردتيّ حذائي جزءًا من نمط الحياة المعتاد هنا.

– هل فقدت إحدى فردتيّ حذائك؟

صاح الطبيب مورتيمر: «لقد نسيت المكان الذي وضعتها فيه يا سيدي العزيز ليس إلا. سوف تجدها عندما تعود إلى الفندق. ما جدوى إزعاج السيد هولمز بمثل هذه التفاهات؟»

– حسنًا، هو من سألني عن أي شيء خارج النمط المعتاد.

قال هولمز: «بالضبط، مهما بدا الحادث تافهًا. هل تقول إنك فقدت إحدى فردتيّ حذائك؟»

– حسنًا، لقد أضعتها، بطريقة ما. لقد وضعت الحذاء خارج باب غرفتي ليلة أمس، ولم أجد سوى فردة واحدة في الصباح. لم أتوصل إلى شيء من الغلام الذي أمرته بتنظيفهما. أسوأ ما في الأمر أنني ابتعت الحذاء للتو من شارع ستراند ليلة أمس، ولم أرتده قط.

– إن كنت لم ترتده، لماذا تركته إذن في الخارج للتنظيف؟

– لقد كان حذاءً مدبوغًا ولم يخضع للتلميع قط. لذا تركته في الخارج.

– أتقصد أنك بمجرد وصولك إلى لندن بالأمس، خرجت على الفور وابتعت هذا الحذاء؟

– لقد تسوَّقتُ كثيرًا. ورافقني الطبيب مورتيمر. كما تعلم، إذا كنت على وشك أن أكون إقطاعيًّا فعليَّ أن أرتدي كأحد الإقطاعيين، وقد كنت مهملًا في مظهري بعض الشيء وأنا في الغرب. من بين أشياء أخرى اشتريتها كان هذا الحذاء البني – دفعت ستة دولارات ثمنًا له – وسُرقت إحدى فردتيه قبل حتى أن أضعه في قدمي.

قال شيرلوك هولمز: «لا أرى جدوى من سرقته مُطلقًا. أعترف بأنني أوافق الطبيب مورتيمر رأيه وأنه سرعان ما ستعثر على حذائك المفقود».

فقال البارون بحسم: «حسنًا أيها السادة، يبدو لي أنني تحدثت بما فيه الكفاية عن القليل الذي أعرفه. حان الوقت لتفي بوعدك وتعطيني تقريرًا كاملًا عما نحن جميعًا بصدده».

أجابه هولمز: «طلبك منطقي جدًّا. أعتقد أيها الطبيب مورتيمر أن أفضل ما يمكن أن تفعله هو أن تخبر السير هنري قصتك كما أخبرتنا إياها».

وهكذا تشجَّع صديقنا الطبيب وأخرج أوراقه من جيبه، وعرض القضية بأكملها كما فعل صباح الأمس. استمع السير هنري باسكرفيل باهتمام بالغ، وبصيحات اندهاش بين الحين والآخر.

ثم قال عندما انتهت الحكاية الطويلة:

– حسنًا، يبدو أنني حصلت على إرث يصحبه ثأر. لطالما سمعت عن هذا الكلب منذ نعومة أظافري، فتلك هي القصة الأثيرة للعائلة، ومع ذلك لم أفكر قط في أخذها على محمل الجد. أما فيما يتعلق بوفاة عمي – حسنًا، يبدو أن رأسي يغلي بما سمعت، ولا يمكنني استيعابه بعد. يبدو أن أحدًا لم يحسم أمره فيما إذا كانت هذه القضية بحاجة إلى رجل شرطة أم رجل دين.

– بالضبط.

– والآن تظهر هذه الرسالة التي وصلتني في الفندق. أظن أنها تُكمِل الأحجية.

قال الطبيب مورتيمر: «إنها تدل فيما يبدو أن ثمة من يعرف أكثر مما نعرفه نحن عمَّا يجري على الرابية».

قال هولمز «وتدل أيضًا على أن هذا الشخص لا يكن لك عداوة، ما دام يحذرك من الخطر».

– أو ربما يريد، لسببٍ في نفسه، أن يخيفني.

– حسنًا، هذا وارد أيضًا بكل تأكيد. إنني مدين لك بالكثير أيها الطبيب مورتيمر، لأنك عرَّفتني بمشكلة يتفرَّع منها كل تلك النظريات البديلة المثيرة للاهتمام. لكن السؤال الذي علينا حسمه الآن أيها السير هنري هو: هل ستذهب إلى قصر باسكرفيل؟

– ولم لا؟

– يبدو أنه محفوفٌ بالخطر.

– هل تعني خطرًا من شيطان العائلة أم تقصد خطرًا من إنسان؟

– حسنًا، هذا ما يتعين علينا اكتشافه.

قطَّب السير هنري حاجبيه واحمر وجهه غضبًا وقال: «أيًّا كان فإجابتي ثابتة. لا شيطان يا سيد هولمز، ولا إنسان على وجه هذه الأرض يمكنه أن يحول بيني وبين الذهاب إلى بيت عائلتي. هذه هي إجابتي النهائية».

كان واضحًا أن حمية آل باسكرفيل لم تهدأ في هذا الفرد الأخير من سلالتهم. ثم استطرد قائلًا:

– وفي الوقت نفسه، لم يُتح لي الوقت الكافي للتفكير في كل ما أخبرتني به. إنه لأمر جلل أن يتعين على المرء أن يعي ويقرر في جلسة واحدة. أود أن أحظى بساعة من الهدوء وحدي لأحسم أمري. والآن، استمع إليَّ يا سيد هولمز، إنها الحادية عشرة والنصف، لذا سأعود إلى فندقي الآن. وأقترح أن تأتيا أنت وصديقك الدكتور واتسون لتناول الغداء معنا في الثانية. حينها سأكون قادرًا على إخبارك بقراري.

– هل يناسبك هذا يا واتسون؟

– تمامًا.

– إذن فلتنتظر مجيئنا أيها السير هنري. هل أستدعي لك سيارة أجرة؟

– أفضل السير، فقد أربكني هذا الأمر لحد ما.

قال رفيقه: «يسرني أن أنضم إليك».

– إذن سنلتقي مجددًا في تمام الثانية. إلى اللقاء وطاب صباحكما!

سمعنا صوت خطوات ضيفينا تهبط الدَّرج وصوت انغلاق باب المنزل. وفجأة تحوَّل هولمز من رجلٍ حالم فاتر إلى شعلة من النشاط.

– أحضر قبعتك وحذاءك يا واتسون، بسرعة! يجب ألا نضيع لحظة! قالها واندفع إلى غرفته في روبه المنزلي ثم عاد بعد بضع ثوانٍ وقد وضع معطفًا. أسرعنا هابطين الدرج معًا وخرجنا إلى الشارع. كان الطبيب مورتيمر وباسكرفيل لا يزالان مرئيين على بعد نحو مائتي ياردة أمامنا في اتجاه شارع أوكسفورد.

– هل يجب أن أركض وأستوقفهما؟

– يا إلهي! لا يا عزيزي واتسون. إنني مكتفٍ تمامًا بصحبتك ما دمت تتحملني. إن صديقينا حكيمان، فيا له من صباح لطيف للتمشية!

قالها وأسرع في مشيته حتى قلَّصنا المسافة التي تفصلنا عنهما إلى النصف تقريبًا. وهكذا تبعناهما – محافظين على مسافة مئة ياردة بيننا – إلى شارع أوكسفورد ومنه إلى شارع ريجنت. وما أن توقف صديقانا وحدقا إلى نافذة متجر، حتى فعل هولمز المثل. وبعدها بلحظة أطلق صيحة رضا صغيرة، وعندما تتبعت اتجاه نظرته المتحمسة، رأيت عربة أجرة يجرها الخيل بداخلها رجل، وقد توقفت على الجانب الآخر من الشارع ثم عادت الآن لتتقدم مرة أخرى ببطء.

– ها هو ذا الرجل الذي نبحث عنه يا واتسون! تعالَ! سنلقي نظرة عليه من كثب، إن لم نستطع أكثر.

في تلك اللحظة لمحتُ لحية سوداء كثيفة وعينين ثاقبتين تنظران إلينا من النافذة الجانبية للعربة. وعلى الفور فتح صاحبهما الباب العلوي للعربة، وصاح بشيءٍ ما للسائق فانطلق بالعربة بجنون مبتعدًا عن شارع ريجنت. بحث هولمز حوله عن عربة أخرى بلهفة، ولمَّا لم يجد واحدة فارغة على مرمى البصر، انطلق في مطاردة جامحة وسط حركة المرور المتدفقة. بيد أن انطلاقة العربة كانت سريعة جدًّا، وكانت قد توارت عن الأنظار تمامًا.

قال هولمز بمرارة عندما ظهر من بين تيار العربات المارة لاهثًا وشاحبًا ومستاءً: «هل سبق ورأيت مثل هذا الحظ العاثر؟ وسوء الإدارة أيضًا؟ واتسون، واتسون، إن كنت رجلًا أمينًا فعليك أن تسجل هذا أيضًا وتضعه في مواجهة نجاحاتي!»

– من كان هذا الرجل؟

– ليست لدي فكرة.

– أهو جاسوس؟

– حسنًا، كان واضحًا مما سمعناه أن أحدهم يراقب السير هنري باسكرفيل مراقبة لصيقة منذ وصل إلى المدينة. وإلا كيف عرف بهذه السرعة أنه اختار النزول في فندق نورثمبرلاند؟ فخطر لي أنه ما دام قد

تعقبه في اليوم الأول، فلا بد سيتعقبه في اليوم الثاني. لعلك لاحظت أنني نظرتُ من النافذة مرتين حينما كان الطبيب مورتيمر يقرأ علينا أسطورته.

– نعم، أتذكر هذا.

– لقد كنت أرصد المتسكعين في الشارع، لكني لم أرَ أحدًا. نحن نتعامل مع رجلٍ ذكي يا واتسون. إن هذه القضية تزداد عمقًا، ومع أني لم أحسم أمري بصفة نهائية فيما إن كنا نتعامل مع قوى خيرة أم شريرة، بيد أني دائمًا ما أميز الإصرار والعزيمة. حينما انصرف صديقانا تبعتهما على الفور على أمل رؤية مرافقهما الخفي، لكنه كان من المكر بحيث لم يتصرف بثقة زائدة ويتبعهما على قدميه، بل لجأ إلى عربة أجرة حتى يمكنه التسكع خلفهما أو تجاوزهما دون أن يلحظاه. وكان لخطته ميزة إضافية بحيث إن استقلا عربة أجرة، سيكون على أتم استعداد لتتبعهما. لكنَّ بها عيبًا واحدًا وواضحًا.

– أنها تضعه تحت رحمة سائق العربة.

– بالضبط.

– من المؤسف أننا لم ندون رقم العربة!

– يا عزيزي واتسون، إنك لا تظن حقًّا أنِّي أغفلت التقاط رقم العربة في خضم تصرفي الأخرق. رقمها هو 2704، لكن هذا غير مفيد لنا في الوقت الحالي.

– لا أرى ما كان بإمكانك فعله أكثر مما فعلت.

– عند ملاحظة عربة الأجرة كان عليَّ أن أستدير على الفور وأسير في الاتجاه الآخر. ثم أستقل عربة أجرة أخرى في تأنٍّ وأتبع الأولى من مسافة مناسبة، أو – وهو التصرف الأفضل – أستقل السيارة إلى فندق نورثمبرلاند وأنتظر هناك. وعندما يتبع رجلنا المجهول السير هنري باسكرفيل إلى الفندق كانت ستتاح لنا الفرصة لقلب السحر على الساحر ومراقبته حيث أراد أن يراقِب. أما والأمر هكذا، بحماسة طائشة منَّا استغلها خصمنا بسرعة وطاقة غير عادية، خنَّا نفسينا وفقدنا الرجل.

كنا نسير في شارع ريجنت ببطء أثناء هذه المحادثة، وقد اختفى الطبيب مورتيمر ورفيقه من أمامنا منذ فترة طويلة.

قال هولمز: «لا جدوى من تتبعهما، فقد انفصل عنهما المراقِب ولن يعود. يجب أن نرى أي بطاقات بقيت في أيدينا ونلعبها بحسم. هل أنت متأكد أن ما رأيناه في العربة كان وجه رجل؟»

– لم أرَ سوى اللحية.

– وأنا كذلك – والتي أظنها على الأرجح زائفة. إن رجلًا ذكيًّا في مهمة حساسة كهذه من المنطقي أن يستخدم لحية لإخفاء ملامحه. تعالَ يا واتسون!

دلف إلى أحد مكاتب البريد المحلية، حيث استقبله المدير استقبالًا حارًّا.

– آه، ويلسون، أرى أنك لم تنسَ بعد القضية الصغيرة التي حالفني الحظ بمساعدتك فيها، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي، لم أنسَ قط. لقد أنقذت سمعتي، وربما حياتي أيضًا.

– أنت تُبالغ يا صديقي العزيز. إنني أتذكَّر يا ويلسون أن لديك بين صِبيتك فتًى يدعى كارترايت، كان قد أظهر بعض المهارة أثناء التحقيق.

– نعم يا سيدي، ما زال معنا.

– هل يمكنك استدعاؤه؟ شكرًا لك! ويسعدني استبدال ورقة الخمسة جنيهات هذه بفكة.

لبَّى فتى في الرابعة عشر، ذو وجه مشرق متحمس، استدعاء المدير، ووقف يحدق باحترام كبير إلى المحقق الشهير.

قال هولمز: «دعني أطلع على دليل الفنادق، شكرًا لك! والآن يا كارترايت، توجد هنا أسماء ثلاثة وعشرين فندقًا، كلها في المناطق القريبة من محطة تشيرنج كروس. هل تراها؟».

– نعم يا سيدي.

– ستزور كلًّا منها تباعًا.

– نعم يا سيدي.

– ستبدأ في كل مرة بمنح الحارس الخارجي شلنًا واحدًا. إليك ثلاثة وعشرون شلنًا.

– نعم يا سيدي.

– ثم تخبره بأنك تريد أن ترى مهملات الأمس، وأن ثمة برقية مهمة قد سُلمت بالخطأ وأنت تبحث عنها. هل تفهم؟

– نعم يا سيدي.

– لكن ما تبحث عنه في الحقيقة هو صفحة مركزية من جريدة التايمز بها بعض الثقوب التي قُصت بمقص. ها هي ذي نسخة من الجريدة. إنها هذه الصفحة. يمكنك التعرف عليها بسهولة، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي.

– في كل مرة سيرسلك الحارس الخارجي إلى حارس البهو، والذي ستمنحه أيضًا شلنًا. إليك ثلاثة وعشرون شلنًا. ستكتشف ربما في عشرين حالة من الثلاث وعشرين حالة أنهم أحرقوا مهملات اليوم السابق أو ألقوها. أما في الحالات الثلاث الأخر فسيعرضون عليك كومة من الأوراق، فتبحث عن هذه الصفحة من التايمز بينها. إن فرص العثور عليها ضئيلة جدًّا. إليك عشرة شلنات أخرى في حالة الطوارئ. أرسل لي تقريرًا في برقية إلى شارع بيكر قبل المساء. والآن يا واتسون، لم يتبقَ لنا سوى اكتشاف هوية سائق عربة الأجرة رقم 2704، ومن ثم نذهب إلى أحد معارض اللوحات في شارع بوند ونسلي وقتنا حتى يحين موعد ذهابنا إلى الفندق.

الفصل الخامس

ثلاثة خيوط مقطوعة

كان لشيرلوك هولمز قدرة فريدة على فصل عقله متى شاء. فبدا لساعتين كأنما قد نسي قضيتنا الغريبة تمامًا، وانغمس بكُليته في لوحات الفنانين البلجيكيين المعاصرين. ولم يتحدث عن شيءٍ عدا الفن – الذي لم يعرف عنه سوى أقل القليل – منذ غادرنا المعرض وإلى أن وجدنا أنفسنا في فندق نورثمبرلاند.

قال موظف الاستقبال: «السير هنري ينتظركما في الطابق العلوي، لقد وجَّه بأن أسمح لكما بالصعود بمجرد وصولكما».

قال هولمز: «هل تسمح لي بالاطلاع على سجل الزوار؟»

– تفضَّل.

رأينا في السجل اسمين أُضيفا بعد اسم باسكرفيل. أحدهما كان ثيوفيلوس جونسون وعائلته من نيوكاسل؛ والأخرى كانت السيدة أولدمور وخادمتها من هاي لودج، ألتون.

توجَّه هولمز بحديثه إلى الموظف قائلًا: «لا بد أن هذا هو جونسون نفسه الذي أعرفه، محامٍ أشيب الشعر ويعرج في سيره، صحيح؟»

– لا يا سيدي، إنه السيد جونسون مالك المنجم، رجلٌ مفعم بالنشاط، ليس أكبر سنًّا منك.

– لا بد أنك مخطئ فيما يتعلق بمهنته.

– كلا يا سيدي! لقد اعتاد النزول في هذا الفندق لسنوات عديدة، ونحن نعرفه جيدًا.

– آه، هذا يحسم الأمر إذن. أعتقد أنني أذكر اسم السيدة أولدمور أيضًا. اعذر فضولي، لكن كثيرًا ما يسعى المرء إلى صديق ما، فإذا به يجد صديقًا آخر.

– إنها سيدة مُقعدة يا سيدي. كان زوجها يومًا عمدة جلوستر. دائمًا ما تنزل عندنا حين تزور المدينة.

– شكرًا لك؛ أخشى أنني لا أستطيع أن أدعي معرفتي بها.

ثم أكمل بصوت خفيض عندما صعدنا الدرج معًا:

– لقد أثبتنا حقيقة أكثر أهمية عبر هذه الأسئلة يا واتسون، فنحن الآن نعلم أن أولئك المهتمين بصديقنا لم ينزلوا في هذا الفندق. إنهم مع حرصهم الشديد على مراقبته، كما رأينا بأعيننا، فهُم حريصون بالقدر ذاته على ألا يراهم. وتلك الحقيقة تشير إلى شيءٍ خطير.

– إلام تشير؟

– إنها تشير – مهلًا يا صديقي العزيز، ما الأمر؟

عندما اقتربنا من قمة الدرج وجدنا السير هنري باسكرفيل أمامنا بنفسه. كان وجهه يشتاط غضبًا، ويحمل في إحدى يديه حذاءً قديمًا متسخًا. كان حانقًا لدرجة لم يستطع معها الحديث بسهولة، وحينما تحدَّث كان ذلك بلكنة سوقية غربية لا تُشبه في شيءٍ ما تلك التي سمعناها منه في الصباح.

صاح قائلًا:

– كأنهم يحسبونني مُغفلًا في هذا الفندق. إنهم يعبثون مع الشخص الخطأ. أقسم لئن لم يجد هذا الغلام حذائي المفقود لأجعلن حياتهم جحيمًا. يمكنني تقبُّل المزاح بصدرٍ رحب يا سيد هولمز، بيد أنهم تجاوزوا الحد قليلًا هذه المرة.

– أما زلت تبحث عن حذائك؟

–نعم يا سيدي، وسوف أعثر عليه.

– لكن، ألم تقل إنه كان حذاءً بنيًّا جديدًا؟

–كان كذلك يا سيدي. والآن أصبح حذاءً أسود قديمًا.

– ماذا؟ إنك لا تقصد...

– هذا بالضبط ما أقصده. لم يكن لدي سوى ثلاثة أحذية – البني الجديد والأسود القديم والحذاء الجلدي الذي أرتديه. بالأمس أخذوا فردة الحذاء البني، واليوم سرقوا واحدة من الحذاء الأسود. هل عثرت عليها؟ تحدَّث يا رجل ولا تقف محدقًا!

كان النادل الألماني المرتبك قد ظهر في المشهد.

– لا يا سيدي؛ لقد سألت في جميع أنحاء الفندق، لكن أحدًا لم يسمع بها.

– حسنًا، إما أن تعود فردة الحذاء تلك قبل غروب الشمس أو أقابل المدير وأخبره بأنني سأترك الفندق على الفور.

– سنعثر عليه يا سيدي. أعدك أنك إن تحليت بالقليل من الصبر سنعثر عليه.

– ضع في اعتبارك أن هذا آخر شيء أفقده في وكر اللصوص هذا. حسنٌ، حسنٌ يا سيد هولمز، اعذرني على إزعاجك بمثل هذا الأمر التافه.

– أعتقد أنه أمر يستحق الانزعاج.

– عجيبٌ أنك تعتقد هذا.

– كيف تفسر الأمر؟

– لم أحاول تفسيره. إنه أكثر الأمور التي صادفتها جنونًا وغرابة.

قال هولمز مفكرًا: «إنه الأغرب ربما».

– ماذا تستنتج أنت منه؟

– حسنًا، لا أدعي أنني فهمت قضيتك بعد. إنها بالغة التعقيد أيها السير هنري. فعندما نقرنها بوفاة عمك، تُصبح أكثر القضايا التي تعاملتُ معها عُمقًا وتفرُّدًا. بيد أننا نمسك في أيدينا عدة خيوط، وأحدها

حتمًا سيرشدنا إلى الحقيقة. قد نضيع الوقت في اتباع خيطٍ خطأ، لكننا سنصل إلى الصواب عاجلًا أو آجلًا.

حظينا بمأدبة غداء شهية لم يُقَل عليها شيءٌ يُذكر عن الموضوع الذي جمعنا. ثم ذهبنا إلى غرفة الجلوس الخاصة وسأل هولمز باسكرفيل عن نواياه.

– نويتُ الذهاب إلى قصر باسكرفيل.

– ومتى ذلك؟

– بحلول نهاية الأسبوع.

قال هولمز:

– أعتقد أن قرارك حكيم على كل حال. فلدي أدلة وافرة على أن ثمة من يُلاحقك في لندن، وسيكون صعبًا، من بين ملايين الموجودين في هذه المدينة العظيمة أن نكتشف هُوية من يلاحقونك وما أهدافهم. إن كانت نواياهم خبيثة فقد يُلحقون بك الأذى، ولن نستطيع منعهم. هل تعلم أيها الطبيب مورتيمر أنكما كنتما مطارَدَين منذ غادرتما منزلي في صبيحة اليوم؟

انتفض الطبيب مورتيمر بعنف.

– مُطارَدَين! ممن؟

– هذا للأسف ما لا أستطيع الإجابة عنه. هل كان من بين جيرانك أو معارفك في دارتمور من له لحية كثيفة سوداء؟

– لا. أو دعني أفكِّر. يا إلهي! نعم. هناك باريمور يا سيدي، خادم السير تشارلز، إن له لحية كثيفة سوداء.

– ها! أين هو باريمور؟

– إنه المسؤول عن القصر.

– الأسلم أن نتحقق مما إن كان هناك حقًّا، أم أنه قدِم إلى لندن.

– كيف ستفعل هذا؟

– أعطني استمارة برقيات. «هل كل شيء جاهز لاستقبال السير هنري؟» تلك ستفي بالغرض. المرسل إليه: السيد باريمور، قصر باسكرفيل. ما أقرب مكتب برقيات؟

– جريمبن.

– حسنٌ إذن، سنُرسل برقية ثانية إلى مدير مكتب بريد جريمبن تقول: تلك البرقية تُسلَّم إلى يد السيد باريمور. وفي حالة غيابه، نرجو إعادة البرقية إلى السير هنري باسكرفيل في فندق نورثمبرلاند، هكذا سنعرف قبل المساء ما إذا كان باريمور في موقعه بديفونشاير أم لا.

قال باسكرفيل: «عظيم. لكن أيها الطبيب مورتيمر، من باريمور هذا؟»

–ابن قيِّم القصر السابق المتوفَّى. إنهم يعتنون بالقصر منذ أربعة أجيال. وهو وزوجته جديران بكل الاحترام على حد علمي.

قال باسكرفيل: «ومن ناحية أخرى، ما دام لم يأتِ أحدٌ من أفراد العائلة ليعيش في القصر، سيظل آل باريمور يعيشان في قصر مترف دون أن يكون عليهما فعل أي شيء في المقابل».

– هذا صحيح.

سأل هولمز: «هل استفاد باريمور بأي شكل من وصية السير تشارلز؟»

–لقد حصل هو وزوجته على خمسمئة جنيه لكل منهما.

– ها! هل يعلمان بهذا؟

–نعم؛ لقد كان السير تشارلز مولعًا بالحديث عن شروط وصيته.

– هذا مثير للاهتمام حقًّا.

قال الطبيب مورتيمر: «أتمنى ألا تنظر بعين الشك لكل شخصٍ تلقَّى إرثًا من السير تشارلز، فقد ترك لي أيضًا ألفًا من الجنيهات».

– حقًّا! هل من أحدٍ آخر؟

–بعض المبالغ الصغيرة لعددٍ من الأفراد، وتبرعات للكثير من الجمعيات الخيرية. أما البقية فقد ذهبت كلها إلى السير هنري.

– وكم كانت تلك البقية؟

– سبعمئة وأربعون ألفًا من الجنيهات.

رفع هولمز حاجبيه في دهشة قائلًا: «لم أدرِ أن هذا المبلغ الضخم على المحك».

– كان السير تشارلز مشهورًا بثرائه، لكننا لم نعرف مدى ثرائه إلى أن فحصنا سنداته. كانت القيمة الإجمالية للممتلكات قريبة من المليون.

– يا إلهي! إنه رهان قد يلعب المرء من أجله باستماته. لدي سؤال آخر أيها الطبيب مورتيمر. لنفترض أن مكروهًا قد حدث لصديقنا الشاب هنا – فلتغفر لي تلك الفرضية الكريهة – من سيرث الأرض؟

– لقد مات رودجر باسكرفيل، الأخ الأصغر للسير تشارلز، دون أن يتزوج، لذلك ستؤول الأرض إلى جيمس ديزموند، ابن عمومته من بعيد، وهو قسيس مسن يعيش في ويستمورلاند.

– شكرًا لك. إن هذه التفاصيل جميعها على قدرٍ كبير من الأهمية. هل قابلت السيد جيمس ديزموند؟

– نعم، جاء ذات مرة لزيارة السير تشارلز. إنه رجل ذو مظهر مهيب ورع. أتذكر أنه رفض قبول أي هبة من السير تشارلز، مع أنه قد ألحَّ عليه.

– وهذا الرجل الزاهد سيكون وريثًا لثروة السير تشارلز.

– إنه الوريث الشرعي للأرض. أما المال فسيرثه إن لم يرغب المالك الحالي في غير ذلك، فبإمكانه أن يفعل به ما يشاء.

– وهل كتبت وصيتك أيها السير هنري؟

– كلا يا سيد هولمز، لم يسعفني الوقت، فلم أعلم بمجريات الأمور إلا بالأمس. لكنني أشعر على أي

حال بأن المال ينبغي أن يبقى مع اللقب والأرض. كان عمي المسكين مؤمنًا بهذا. فأنَّى للمالك أن يُعيد أمجاد آل باسكرفيل إن لم يكن يملك من المال ما يكفي للحفاظ على الممتلكات؟ القصر والأرض والمال لا بد أن يبقوا معًا.

– كلام سليم. حسنًا، أوافقك الرأي أيها السير هنري بخصوص ذهابك إلى ديفونشاير دونما تأخير. ثمة احتياطٌ واحد عليَّ اتخاذه. وهو أنك لن تذهب بمفردك بأي شكل.

– سيعود الطبيب مورتيمر معي.

– لدى الطبيب مورتيمر عيادته التي عليه الاعتناء بها، ومنزله يبعد عن منزلك أميالًا. قد لا يكون قادرًا على مساعدتك حتى وإن سعى لهذا بكل طاقته. كلا أيها السير هنري، لا بد أن تصطحب معك شخصًا موثوقًا يظل إلى جوارك ولا يتركك أبدًا.

– هل يمكنك أن تأتي بنفسك يا سيد هولمز؟

– سأحضر بنفسي إن تأزمت الأمور؛ لكنك تفهم كيف يتعذر عليَّ، مع أعمالي الاستشارية الكثيرة والمناشدات التي تصلني من جهاتٍ عدة دونما هوادة، أن أغيب عن لندن لفترة غير معلومة. ففي هذه اللحظة، يحاول أحد المبتزين أن يُلطِّخ سمعة أحد أكثر الشخصيات احترامًا في إنجلترا، وما من أحد سواي قادرٌ على منع فضيحة كارثية. إنك تفهم دون شك كيف يستحيل عليَّ الذهاب إلى دارتمور.

– بمن توصي إذن؟

وضع هولمز يده على ذراعي.

– إذا قَبِل صديقي، فلن تعثر على أحدٍ خير منه ليكون إلى جوارك في أي مأزقٍ. أقول قولي هذا بثقة تامة.

باغتني هولمز باقتراحه، ولكن قبل أن أحير جوابًا، أمسك باسكرفيل بيدي وهزَّها بحرارة قائلًا:

– حسنٌ، أنت أهل لها يا دكتور واتسون. إنك تعرف مشكلتي، وتعرف عن القضية قدر ما أعرف. إن تفضَّلت بالمجيء إلى قصر باسكرفيل وأعنتني، لن أنسى لك هذا أبدًا.

ولأن أي وعدٍ بالمغامرة يفتنني دائمًا، ولأنني شعرت بالإطراء من كلمات هولمز، وترحيب البارون الحماسي، قلتُ:

– سآتي معك بكل سرور، ليس لديَّ ما هو أفضل لأشغل به وقتي.

قال هولمز: «أرجو أن تبعث لي تقريرًا بما يجد أولًا بأول، وإن وقعت مشكلة، سأرشدك إلى ما ينبغي عمله. أحسب أننا سنكون جميعًا على أتم استعداد بحلول يوم السبت».

– هل يناسبك هذا يا دكتور واتسون؟

– تمامًا.

– موعدنا يوم السبت إذن، ما لم نخبرك بغير هذا، سنلتقي في محطة بادينجتون لركوب قطار العاشرة والنصف.

نهضنا للانصراف حينما أطلق باسكرفيل صيحة ظفر، وغاص في أحد أركان الغرفة ساحبًا حذاءً بنيًّا من تحت الخزانة.

صاح قائلًا: «حذائي المفقود!»

قال شيرلوك هولمز «ليت مشكلاتنا كلها تختفي بهذه السهولة!»

أعقب الطبيب مورتيمر: «أمرٌ غريب! لقد فتشت الغرفة بعناية قبل الغداء».

قال باسكرفيل: «وأنا كذلك، فتشتُ كل بوصة منها».

– لم تكن فردة الحذاء هنا حينئذٍ.

– لا شك إذن أن النادل وضعها هناك بينما نتناول طعام الغداء.

استُدعي الألماني، لكنه أعلن عدم معرفته بأي شيء عن هذا الموضوع، ولم يبلغنا التحقيق أي نتيجة. وهكذا أضيف لغز جديد إلى سلسلة الألغاز الصغيرة المتتابعة التي تبدو اعتباطية لا علة لها ولا مبرر. فإذا نحينا القصة الكئيبة لوفاة السير تشارلز بأكملها جانبًا، سنجد أنفسنا قد أصبحنا خلال يومين أمام سلسلة من الحوادث العجيبة، بدايةً من الرسالة المطبوعة، ثم الجاسوس ذي اللحية السوداء في عربة الأجرة، ثم فقدان الحذاء البني الجديد، يليه الحذاء الأسود القديم، وانتهاءً بعودة الحذاء البني الجديد. جلس هولمز صامتًا في عربة الأجرة أثناء عودتنا إلى شارع بيكر، ورأيتُ انشغال ذهنه من حاجبيه المقطبين ووجهه الجاد، كنت مثله، أحاول ربط كل تلك الحلقات الغريبة بعضها ببعض. جلس غارقًا في التفكير وفي دخان التبغ طوال الظهيرة وحتى وقتٍ متأخرٍ من الليل.

وقبيل العشاء وصلتنا برقيتان. كانت الأولى تقول:

عرفتُ للتو أن باريمور في القصر.

– باسكرفيل

والثانية تقول:

زرت ثلاثة وعشرين فندقًا حسب التعليمات، لكنني متأسف لإبلاغكم بعدم عثوري على صفحة جريدة التايمز المقصوصة.

– كارترايت.

– ها قد انقطع اثنان من خيوطي يا واتسون. لا شيء أكثر استفزازًا من قضية تسير فيها كل الأمور ضدك. علينا أن نبحث عن خيطٍ آخر.

– لم يزل لدينا سائق عربة الأجرة التي أقلَّت الجاسوس.

– بالضبط. لقد أرسلت برقية بطلب الحصول على اسمه وعنوانه من السجلات الرسمية. لن أندهش إن كان هذا إجابة طلبي.

تبين أن رنين الجرس كان يحمل ما هو أكثر إرضاءً من إجابة طلب هولمز، فما أن فُتح الباب حتى دخل رجل رثُّ الهيئة اتضح أنه هو الرجل بنفسه.

قال: «لقد تلقيت رسالة من المكتب الرئيس تفيد بأن رجلًا محترمًا في هذا العنوان استفسر عن العربة رقم 2704، لقد قُدتُّ عربتي هذه لمدة سبع سنوات ولم أتلقَّ شكوى واحدة. لذا أتيت من الباحة إلى هنا مباشرة لأسألك وجهًا لوجه عما لديك ضدي».

قال هولمز: «ليس لدي شيءٌ ضدك أيها الرجل الطيب. على العكس، لديَّ نصف جنيه ذهبي إن أنت منحتني إجابة واضحة عن سؤالي».

قال سائق عربة الأجرة بابتسامة عريضة:

– حسنًا، إنه يومٌ لطيف دون شك. ما سؤالك يا سيدي؟

– بادئ ذي بدء أريد اسمك وعنوانك، في حال أردتك مرة أخرى.

– جون كليتون، 3 شارع تيربي، المنطقة الإدارية. وعربة الأجرة خاصتي تخرج من باحة شيبلي، بالقرب من محطة واترلو.

دوَّن شيرلوك هولمز ذلك.

– والآن يا كليتون، أخبرني بكل شيء عن الراكب الذي جاء وراقب منزلنا هذا في العاشرة من صباح اليوم ثم تتبع الرجلين إلى شارع ريجنت.

اندهش الرجل وبدا محرجًا بعض الشيء وقال: «عجبًا! لا فائدة من إخباري إياك بأي شيء، فأنت تعرف كل ما أعرفه حقًّا حسبما يبدو. الواقع أن ذلك السيد أخبرني بأنه محقق، وأن عليَّ ألا أشي به لأي أحد».

– إنها مسألة شديدة الخطورة يا صديقي المحترم، وقد تجد نفسك في موقف شديد السوء إن حاولت أن تخفي عني شيئًا. أتقول إن هذا الراكب أخبرك بأنه محقق؟

– نعم، بالضبط.

– متى قال هذا؟

– بينما يغادر العربة.

– هل قال أي شيء آخر؟

– لقد ذكر اسمه.

بادلني هولمز نظرة انتصار سريعة، وقال: «أوه، هل ذكر اسمه إذن؟ يا له من تصرفٍ أرعن. ما الاسم الذي ذكره؟»

قال سائق عربة الأجرة: «اسمه السيد شيرلوك هولمز».

لم أرَ صديقي قط مصدومًا أكثر من صدمته من رد السائق. للحظة جلس صامتًا في ذهول. ثم انفجر ضاحكًا وقال:

– صدمة يا واتسون! صدمة لا يمكن إنكارها! أشعر بنصل سيفه سريعًا ومرنًا كنصل سيفي. لقد فاقني براعة هذه المرة. كان اسمه شيرلوك هولمز إذن، أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي، إنه اسم السيد المحترم.

– عظيم! أخبرني من أين أقللته وكل ما حدث.

– لقد استوقفني في التاسعة والنصف من ميدان ترافلجر. وقال إنه محقق، وعرض عليَّ جنيهَين إن نفَّذت أوامره بحذافيرها طوال اليوم، ولم أطرح أي أسئلة. وافقتُ بسعادة. وذهبنا أولًا إلى فندق نورثمبرلاند وانتظرنا هناك حتى خرج رجلان واستقلا عربة أجرة من الصف. تبعنا عربتهما حتى توقفت في مكانٍ ما بالقرب من هنا.

قال هولمز: «هنا بالتحديد».

– حسنًا، لست واثقًا من هذا، لكني أراهن بأن الراكب كان على دراية جيدة بالمكان. توقفنا في منتصف الشارع وانتظرنا لمدة ساعة ونصف. ثم مرَّ الرجلان بنا سائرَين، فتبعناهما من شارع بيكر حتى...

قال هولمز: «أعرف».

– ثم وصلنا إلى ثلاثة أرباع شارع ريجنت. ثم فتح السيد الباب العلوي للعربة وصاح بي قائلًا إن عليَّ الانطلاق إلى محطة واترلو بأقصى سرعة. ألهبت ظهر الفرس بالسوط وكنا هناك بعد أقل من عشر دقائق. ثم دفع الجنيهين اللذين وعد بهما -كما يجدر بشخصٍ محترم- واتجه إلى المحطة. وبينما يسير مبتعدًا، استدار ناحيتي قائلًا: ربما تهمك معرفة أنك كنت في صُحبة السيد شيرلوك هولمز. وهكذا عرفت اسمه.

– فهمتُ. ألم تره مرة أخرى؟

– ليس بعد أن دخل إلى المحطة.

– وكيف تصف السيد شيرلوك هولمز؟

حكَّ السائق رأسه. «حسنًا، لم يكن في مجمله رجلًا يسهل وصفه. أعتقد أنه يناهز الأربعين عامًا، متوسط الطول، أقصر منك يا سيدي ببوصتين أو ثلاث. كان يرتدي زيًّا أنيقًا، وله لحية سوداء لها نهاية مربعة، ووجه شاحب. لا أعلم إذا كنت أستطيع قول ما هو أكثر من هذا».

– لون عينيه؟

– لا، لا أستطيع تذكُّر هذا.

– ألا تتذكر شيئًا آخر؟

– لا يا سيدي، لا شيء.

– حسنًا، ها هو ذا نصف الجنيه الذهبي إذن. ولك مثله إن أمكنك جلب أي معلومات أخرى. طاب مساؤك!

– طاب مساؤك يا سيدي، شكرًا لك!

انصرف كليتون مقهقهًا، فالتفت لي هولمز وهز كتفيه بابتسامة حزينة. ثم قال:

– وها قد خاب خيطنا الثالث، وانتهينا حيثما بدأنا، يا للوغد الماكر! كان يعرف منزلنا، ويعرف أن السير هنري باسكرفيل استشارني، وتعرَّفني في شارع ريجنت، واستنتج أنني حصلت على رقم عربة

الأجرة، وأنني سأضع يدي على السائق، فأرسل هذه الرسالة الجريئة. صدِّقني يا واتسون، إن خصمنا هذه المرة ليس سهلًا. لقد هزمني في لندن. ولا يسعني إلا أن أتمنى لك حظًا أوفر في ديفونشاير. لكنني لست مطمئنًا في قرارة نفسي.

– بشأن ماذا؟

– بشأن إرسالك. إنها قضية بغيضة يا واتسون، قضية بغيضة وخطِرة، وكلما رأيت المزيد منها ازداد بغضي لها. ربما تضحك من هذا يا صديقي العزيز، ولكن ثق أنني لن يرتاح بالي حتى أراك قد عُدت سالمًا معافى إلى شارع بيكر مرة أخرى.

الفصل السادس

قصر باسكرفيل

كان السير هنري باسكرفيل والطبيب مورتيمر جاهزَين في اليوم المحدد للانطلاق إلى ديفونشاير. ركب السيد شيرلوك هولمز معي إلى المحطة وأعطاني آخر تعاليم ووصايا الوداع.

قال: «لن أعبث بتفكيرك بنظرياتي وشكوكي يا واتسون. لا أريد منك سوى إبلاغي بالوقائع بأدق تفاصيلها، وأن تترك لي مهمة تفسيرها».

سألته: «أي نوع من الوقائع؟»

– أي شيء قد يبدو ذا صلة بالقضية، حتى وإن كان غير مباشر، لا سيما علاقات الشاب باسكرفيل بجيرانه، وأي تفاصيل جديدة تتعلق بوفاة السير تشارلز. لقد أجريت بعض التحريات بنفسي في الأيام القليلة الماضية، لكنني أخشى أنها لم تثمر شيئًا. لم أتأكد إلا من أمرٍ واحد، وهو أن السيد جيمس ديزموند – الوريث التالي – رجلٌ مسن دمث الخُلق، ومحال أن تصدر منه مثل هذه التصرفات. إنني موقن أن بإمكاننا استبعاده تمامًا من حساباتنا. وهكذا لن يبقى إلا أولئك الذين يحيطون بالسير هنري باسكرفيل على الرابية نفسها.

– أليس الأسلم أن نبدأ بطرد الزوجين باريمور أولًا؟

– لا، لا يسعنا ارتكاب مثل هذا الخطأ. فإن كانا بريئين سنكون قد ظلمناهما ظلمًا بيِّنًا، وإن كانا مذنبين فعلينا ألا نترك لهما الفرصة ليعلما بشكوكنا الخاصة بهما. لا، لا سنحتفظ بهما على قائمة المشتبه فيهم. لدينا حوذيُّ القصر، حسبما أتذكر، واثنان من المزارعين في أراضي الرابية، وصديقنا الطبيب مورتيمر الذي أحسبه صادقًا، وزوجته التي لا نعرف عنها شيئًا، وستابلتون عالم الطبيعة، وأخته التي قيل إنها شابة فاتنة، ولدينا السيد فرانكلاند، صاحب منزل لافتر، الذي لا نعرف عنه شيئًا هو الآخر، وواحدٌ أو اثنان من الجيران الآخرين. أولئك هم القوم الذين يجب أن يكونوا محل دراستك المستفيضة.

– سأبذل قصارى جهدي.

– إن معك أسلحتك، أليس كذلك؟

– بلى، خطر لي أنه من الأفضل أن آخذهم معي.

– بكل تأكيد. احتفظ بمسدسك بقربك ليلَ نهارَ، ولا تتخل عن احتياطاتك أبدًا.

كان صديقانا قد حجزا عربة من الدرجة الأولى وينتظراننا على الرصيف.

قال الطبيب مورتيمر ردًّا على أسئلة صديقي: «لا، لم يطرأ لدينا أي جديد. يمكنني أن أجزم بشيءٍ واحد، وهو أننا لم نكن مُطاردَين في اليومين السابقين. لم نخرج قط دون أن نتيقن من أن أحدًا لا

يطاردنا، ولم يكن ممكنًا لأحدٍ أن يفلت من ملاحظتنا».

– هل بقيتما دومًا معًا؟

– باستثناء بعد ظهر أمس؛ فقد اعتدت تخصيص يومٍ كامل للترفيه حينما آتي إلى المدينة، لذا فقد قضيته في متحف كلية الجراحين.

قال باسكرفيل: «أما أنا فقد ذهبت للتنزه في الحديقة، لكننا لم نواجه متاعب من أي نوع».

هزَّ هولمز رأسه وقد عَلت وجهه جدية بالغة، ثم قال:

– لم يكن هذا التصرف حكيمًا بحال. أتوسل إليك أيها السير هنري ألا تتجول بمفردك. قد يقع لك مكروه عظيم إن فعلت. هل وجدت حذاءك الآخر؟

– لا يا سيدي، لقد ضاع إلى الأبد.

– أمرٌ غريب جدًّا. حسنًا، إلى اللقاء.

وأضاف عندما بدأ القطار في الانزلاق بجوار الرصيف.

– تذكر أيها السير هنري العبارة التي قرأها علينا الطبيب مورتيمر في الأسطورة القديمة، وتجنب الرابية في تلك الساعات المظلمة التي تتعاظم فيها قوى الشر.

نظرتُ إلى الرصيف بعد أن ابتعدنا عنه فرأيت خيال هولمز الطويل المنتصب يقف بلا حراك ويحدق إلينا.

كانت الرحلة سريعة وممتعة، وقد أمضيتها في التعرف أكثر على رفيقيَّ واللعب مع كلب الطبيب مورتيمر. وفي غضون ساعات قليلة أصبحت التربة البنية حمراء اللون، وتغير القرميد إلى جرانيت، ورعت الأبقار الحمراء في الحقول المسيجة بإحكام، وأعلنت الأعشاب المزدهرة، والنباتات وافرة النماء عن بيئة أكثر خصوبة، وإن كانت أكثر كآبة. حدَّق الشاب باسكرفيل خارج النافذة بتوق، وصاح مبتهجًا عندما تعرف على السمات المألوفة لديفونشاير.

قال: «لقد رأيت أنحاء كثيرة من العالم منذ غادرتها يا دكتور واتسون، لكني لم أرَ مكانًا يضاهيها قط».

قلتُ: «لم أرَ قط رجلًا من ديفونشاير لا يقسم بجمال بلدته».

قال الطبيب مورتيمر: «هذا يعتمد على سلالة الرجال بقدر ما يعتمد على البلدة، نظرة سريعة على صديقنا هنا تكشف عن الرأس المستدير الذي يميز السَّلتِيِّين، والذي يحمل بداخله الحميَّة السَّلتِية وقوة الانتماء. لقد كان رأس السير تشارلز المسكين من نوع شديد النُّدرة، يحمل سمات نصفها غيلية، ونصفها إيفرنية. لكنك كنت صغيرًا جدًّا عندما زُرت قصر باسكرفيل آخر مرة، أليس كذلك؟»

– لقد كنت صبيًّا في سن المراهقة وقت وفاة والدي، ولم أرَ القصر قط، لأنه عاش في منزل ريفي صغير على الساحل الجنوبي. وبعدها ذهبت مباشرة إلى صديقٍ لي في أمريكا. صدِّقني إن التجربة برمتها جديدة عليَّ، تمامًا مثلما هي بالنسبة للدكتور واتسون، وإنني لمتلهف لرؤية الرابية في أقرب وقت ممكن.

قال الطبيب مورتيمر مشيرًا من نافذة العربة: «حقًّا؟ إذن فأمنيتك سهلة التحقيق، لأن تلك هي نظرتك الأولى إلى الرابية».

فوق المربعات الخضراء للحقول والمنحنى الخفيض للغابة، ارتفع عن بعد تلٌّ رماديٌّ كئيبٌ، ذو قمة غريبة متعرجة وغائمة غامضة بعيدة، كمشهدٍ خيالي ينتمي لحُلم. ظل باسكرفيل يحدق إليه طويلًا، وقرأتُ على وجهه الملتهف مدى ما كانت تعنيه له تلك النظرة الأولى إلى هذه البقعة الغريبة التي ساد أسلافه فيها لعهود، وتركوا بصماتهم فيها بعمق. جلس هناك بحُلته الصوفية، ولكنته الأمريكية، في زاوية عربة سكة الحديد، لكنني حينما نظرت إلى وجهه المظلم والمعبِّر، شعرت أكثر من أي وقت مضى كم كان سليلًا لتلك السلالة العريقة من الرجال المتقدين المهيمنين. كان ثمة اعتزاز وشجاعة وقوة في حاجبيه الكثين وأنفه الدقيق، وعينيه العسليتين الكبيرتين. وإن كان مسعانا الذي يقبع أمامنا على تلك الرابية المحظورة صعبًا وخطيرًا، فلدي ها هنا رفيقٌ يجرؤ المرء على خوض المغامرات بجانبه متيقنًا من أنه سيخوضها بكل بشجاعة.

توقف القطار عند محطة صغيرة على جانب الطريق وترجَّلنا جميعًا. وفي الخارج كانت تنتظرنا، خلف السياج الأبيض المنخفض، عربة يجرها زوجان من الخيول القصيرة. بدا واضحًا أن مجيئنا لاقى ترحيبًا عظيمًا، فقد تجمع مدير المحطة والحمالون حولنا لنقل أمتعتنا. كانت المنطقة ريفية جميلة وبسيطة، لكنني فوجئت بجنديين يرتديان زيًّا داكنًا ويقفان عند البوابة، متكئين على بندقيتيهما القصيرتين ويرمقاننا بتفحص أثناء مرورنا. حيَّا الحوذيُّ – وهو رجل صغير الحجم متجهم الوجه مقطب الحاجبين – السير هنري باسكرفيل، وفي غضون دقائق قليلة كنا ننطلق مسرعين على الطريق الأبيض الواسع. امتدت أراضي المرعى المتموجة على جانبينا عالية، وبرزت المنازل القديمة ذات الأسقف الجملونية من بين أوراق الشجر الخضراء الكثيفة، ولكن من خلف الريف المسالم المشمس رأيتُ الرابية الموحشة ترتفع مظلمة في سماء الليل وتقطعها التلال المتعرجة التي تنذر بالشر.

انحرفت العربة متأرجحة إلى طريق جانبي، وتقدمنا صاعدين في مسارات حفرتها العجلات على مرِّ القرون، تحفُّها ضفتان عاليتان على كلا الجانبين، مثقلتان بالوحل المتساقط وسراخس العقرب السميكة. لمعت السراخس البرونزية والعليق المُرقَّش في ضوء شمس الغروب. واصلنا الصعود باطراد، ومررنا فوق جسرٍ ضيق من الجرانيت، وتجنبنا جدولًا صاخبًا يتدفق بسرعة إلى الأسفل، يعلوه الزبد ويهدر بين الصخور الرمادية. انتهى كل من الطريق والجدول بوادٍ ممتلئ بأشجار البلوط والتنوب. مع كل منعطف كان باسكرفيل يطلق صيحة سرور، ناظرًا حوله بشغف، وطارحًا عددًا لا يُحصى من الأسئلة. بدا كل شيء جميلًا في عينيه، لكني كنت أرى أن ثمة مسحة من الكآبة تغمر الريف، تحمل بوضوح آثار نهاية العام. فقد افترشت الأوراق الصفراء الطرُق وتساقطت علينا أثناء مرورنا. تلاشت قعقعة عجلاتنا عندما سِرنا عبر أكوام النباتات المتعفنة – التي بدت لي هدايا حزينة تُلقيها الطبيعة أمام عربة وريث آل باسكرفيل العائد.

صاح الطبيب مورتيمر: «يا إلهي! ما هذا؟»

كان أمامنا منحنًى شديد الانحدار من الأرض المكسوة بالحشائش، يكوِّن جزءًا من جوانب الرابية. وعلى قمته جندي قوي يكتنفه الظلام يمتطي حصانًا ويحمل سلاحه على ساعده مهيأً وجاهزًا، كان يقف ساكنًا بلا حراك كتمثالٍ لأحد الفرسان مستقر على قاعدة حجرية. وكان يراقب الطريق الذي جئنا منه.

سأل الطبيب مورتيمر: «ما هذا يا بيركنز؟»

استدار سائقنا نصف استدارة في مقعده، وقال:

– لقد هرب أحد السجناء منذ ثلاثة أيام من سجن برنستاون يا سيدي، ولم يزل طليقًا. والخفر يراقبون كل طريق وكل محطة، لكنهم لم يعثروا عليه بعد. الحقيقة أن المزارعين هنا لا يروقهم ما يحدث يا سيدي.

– حسنًا، علمت إنهم سيحصلون على خمسة جنيهات، إن هم استطاعوا الإدلاء بمعلومات.

– نعم يا سيدي، لكن فرصة الحصول على الجنيهات الخمسة ضعيفة عند مقارنتها بفرصة قطع رقبتك. إنه ليس كأي سجين عادي كما تعلم. إنه رجل لا يردعه شيء.

– من يكون إذن؟

– إنه سيلدن، سفَّاح نوتنج هيل.

أتذكر القضية جيدًا، لأنها كانت إحدى القضايا التي اهتم بها هولمز بسبب الضراوة الشديدة للجريمة والوحشية الغاشمة التي ميزت جميع أفعال القاتل. وقد خُففت عقوبة الإعدام بسبب بعض الشكوك التي حامت حول سلامته العقلية، والتي جعلت سلوكه همجيًّا. ازدادت عربتنا ارتفاعًا وامتدت أمامنا المساحة الشاسعة للرابية، المرقطة بدروبٍ وهضابٍ متعرجة وصخرية. وقد هبت منها ريح باردة جعلتنا نرتعد. في مكان ما هناك، على ذلك السهل المقفر، يكمن هذا البربري، مختبئًا داخل جُحره كوحشٍ ضار، يمتلئ قلبه ضغينة ضد كل الجنس الذي نبذه. لم يكن ينقصنا غير هذا لاستكمال الإيحاء الكئيب للقفر القاحل والريح الباردة والسماء المظلمة. حتى باسكرفيل التزم الصمت وأحكم معطفه أكثر حول جسده.

كنا قد تركنا الريف الخصيب خلفنا وأسفل منا. فنظرنا إليه ورأينا الأشعة المائلة لشمس الغروب تحول الجداول إلى خيوط من الذهب تتوهج على التربة الحمراء المحروثة حديثًا، والغابات المتشابكة. صار الطريق أمامنا أكثر كآبة وبرية فوق منحدرات ضخمة خمرية وزيتونية اللون، تتناثر فيها صخور عملاقة. مررنا بين الحين والآخر بأكواخ على الرابية، محاطة بأسوار وأسقف حجرية، لا يخترق حدودها الصلبة أي نبات. وفجأة رأينا من تحتنا منخفضًا يشبه الكوب، مرقعًا بأشجار البلوط والتنوب المتقزمة التي التَوَت، وانثَنَت بفعل غضبة العواصف على مرِّ السنين. ارتفع برجان عاليان وضيقان فوق الأشجار. أشار السائق بسوطه قائلًا: «قصر باسكرفيل».

انتصب صاحب القصر محدقًا بعينين براقتين وخدين متوردين. بعد بضع دقائق وصلنا إلى بوابات المدخل التي ازدانت بالكثير من الزخارف البديعة المشغولة من الحديد، مع أعمدة متضررة بفعل الطقس على كلا الجانبين، مرقعة بالأشنات، وتعلوها رؤوس الخنازير الخاصة بآل باسكرفيل. كان

المدخل عبارة عن خراب من الجرانيت الأسود وأضلُع من العوارض الخشبية المكشوفة، ولكن في مواجهته انتصب مبنى جديد نصف مشيد كان أول ثمرة لذهب السير تشارلز الذي جاء به من جنوب إفريقيا.

مررنا عبر البوابة إلى الطريق المشجر، حيث اختفى صوت العجلات مرة أخرى بين أوراق الأشجار، وضربت الأشجار القديمة بأغصانها صانعة نفقًا كئيبًا فوق رؤوسنا. ارتجف باسكرفيل وهو ينظر إلى الطريق الطويل المظلم المؤدي إلى القصر المتوهج كشبح في نهايته.

سأل بصوت خفيض: «هل وقعت المأساة هنا؟»

– لا، لا، إن ممشى الطقسوس يقع على الجانب الآخر.

نظر الوريث الشاب حوله بوجهٍ كئيب.

قال: «لا عجب أن عمي شعر بقرب نزول كارثة عليه في مثل هذا المكان، إنه كافٍ لإثارة رعب أي رجل. سوف أجلب صفًّا من المصابيح الكهربائية إلى هنا في غضون ستة أشهر، ولن تتعرف بعدها على المكان، مع شدة إضاءة تبلغ ألف شمعة من شركة سوان وإديسون، هنا تمامًا أمام باب القصر».

انفتح الطريق على مساحة واسعة من العشب، وظهر القصر أمامنا. في الضوء المتلاشي، استطعت أن أرى أن مركز القصر عبارة عن كتلة ثقيلة من البناء، تبرز منها شُرفة. كانت الواجهة بأكملها مغطاة باللبلاب، مع بقعة مكشوفة هنا وهناك اخترقت فيها نافذة أو شعار نبالة الغطاء النباتي الداكن. ارتفع من هذه الكتلة المركزية برجان توأمان قديمان، مزودان بشُرفات وفتحات بها العديد من الكوات. وعلى يمين ويسار البرجين كان ثمة أجنحة أكثر حداثة من الجرانيت الأسود. ظهر ضوء خافت من خلال النوافذ ذات الفواصل الثقيلة، وتصاعد عمود أسود من الدخان من المداخن العالية التي ارتفعت من السقف شديد الانحدار.

– مرحبًا أيها السير هنري، مرحبًا بك في قصر باسكرفيل!

خطا رجلٌ طويل من ظل الشرفة ليفتح باب العربة. وظهر ظل امرأة أمام الضوء الأصفر المنبعث من القصر؛ خرجت لتساعد الرجل في إنزال حقائبنا.

قال الطبيب مورتيمر:

– أتمانع في انصرافي إلى منزلي مباشرةً أيها السير هنري؟ إن زوجتي تنتظرني.

– ألن تبقى لتناول العشاء؟

– نعم، لا بد لي أن أنصرف. على الأرجح سأجد مهمة ما في انتظاري. كنت أود البقاء لأريكما القصر، لكن باريمور أفضل مني كمُرشد. إلى اللقاء، ولا تترددا في استدعائي في أي وقت، ليلًا كان أو نهارًا، إن دعت الضرورة لذلك.

تلاشى صوت العجلات في نهاية الطريق بينما دخلنا أنا والسير هنري إلى القصر، وقعقع الباب بصوت عالٍ خلفنا. وجدنا أنفسنا في قصرٍ لطيفٍ منيف ذي عوارض ثقيلة من خشب البلوط الذي اسودَّ بفعل الزمن. طقطقت النار وقرقعت في المدفأة قديمة الطراز خلف الحاجز الحديدي العالي. ومددنا أنا والسير

هنري إليها أيدينا التي تخدَّرت من جراء رحلتنا الطويلة، ثم نظرنا حولنا إلى النافذة العالية الشفافة ذات الزجاج القديم الملون، والألواح المصنوعة من خشب البلوط، ورؤوس الأيائل، وشعارات النبالة على الجدران، والتي بدت كلها باهتة وكئيبة في الضوء الخافت للمصباح المركزي.

قال السير هنري: «إنه كما تخيلته تمامًا. أليست صورة مثالية لقصر الأجداد القدامى؟ إنها لفكرة مهيبة أن يكون هذا القصر هو نفسه الذي عاش فيه أسلافي لخمسمئة عام مضت».

رأيت وجهه المظلم يضيء بحماسٍ صبياني وهو يجيل النظر فيما حوله. كان الضوء يسقط عليه حيثما وقف، لكن ظلالًا طويلة زحفت على الجدران وتدلت فوقه كمظلة سوداء. عاد باريمور بعد أن انتهى من نقل أمتعتنا إلى غرفنا، ووقف أمامنا بالطريقة الخانعة لخادم مدرب جيدًا. كان رجلًا وسيمًا، طويل القامة، ذا لحية مربعة وملامح شاحبة ومميزة.

– أتريدان العشاء الآن يا سيديَّ؟

– أهو جاهز؟

– في غضون دقائق قليلة يا سيدي. ستجدان مياهًا ساخنة في غرفتيكما. يُسعدنا أنا وزوجتي أن نعكف على خدمتك أيها السير هنري، حتى تتخذ ترتيباتك الجديدة، لكنك تعلم أنه في ظل الظروف الجديدة سيتطلب هذا القصر عددًا أكبر من العاملين.

– أي ظروف جديدة؟

– أقصد يا سيدي أن السير تشارلز عاش حياة انطوائية جدًّا، لذا كنا قادرين على تلبية احتياجاته. أما أنت فمن الطبيعي أنك تريد التمتع بصُحبة أكبر، ومن ثم ستحتاج إلى إجراء تغييرات على العاملين في القصر.

– هل تعني أنك وزوجتك تودان المغادرة؟

– حينما يناسبك ذلك يا سيدي.

– لكن عائلتك ظلت معنا لأجيال، أليس كذلك؟ يؤسفني أن أبدأ حياتي هنا بقطع صلة عائلية قديمة.

بدا لي أنني رأيت بعض علامات الانفعال على وجه الخادم الأبيض.

– أشعر بهذا يا سيدي، وكذلك زوجتي. لكن الحقيقة أننا كنا مُتعلِّقين بالسير تشارلز أشدَّ التعلق، وسببت لنا وفاته صدمة، جعلت هذه التُخوم من حولنا تؤلمنا كثيرًا. أخشى أنه لن يطيب لنا البقاء في قصر باسكرفيل أبدًا.

– لكن ماذا تنويان أن تفعلا؟

– ليس لدي شك يا سيدي في أننا سننجح في إثبات نفسينا في عملٍ ما. لقد أسبغ علينا السير تشارلز كرمه ومنحنا الوسائل التي تعيننا على ذلك. والآن يا سيدي، أظن أن الوقت قد حان كي أريكما غرفتيكما.

دار رواق مربع الشكل ذو حاجز خشبي حول قمة البهو القديم يصعد إليه درج مزدوج. ومن هذه النقطة المركزية امتد ممران طويلان بامتداد المبنى بأكمله، تطل عليهما جميع غرف النوم. كانت غرفتي

في نفس الجناح الذي تقع فيه غرفة باسكرفيل، وتكاد تكون مجاورة لها. بدت هذه الغرف أكثر حداثة إذا ما قورنَت بالجزء المركزي من القصر، ولعب ورق الحائط الزاهي والشموع الكثيرة دورًا في إزالة الانطباع الكئيب الذي تركه وصولنا في ذهني.

أما غرفة الطعام المطلة على البهو فكانت تعج بالظلال والكآبة. كانت عبارة عن قاعة طويلة مع درجة تفصل بين المنصة التي تجلس عليها العائلة والجزء المنخفض المخصص لتابعيهم. وتطل عليها من إحدى نهايتيها منصة للمنشدين. ربما تتحسن أجواؤها مع صفوف من المشاعل المشتعلة لإضاءتها، والألوان والمرح الصاخب لمأدبة من زمنٍ غابر، لكن في هذه اللحظة ومع وجود رجلين يرتديان الملابس السوداء ويجلسان في الدائرة الصغيرة التي يضيئها مصباح مظلل، يصبح صوت المرء خافتًا وروحه مثقلة. حدق إلينا صف من صور الأسلاف المظلمة بمختلف الثياب، بدءًا من فارس من العصر الإليزابيثي إلى رجلٍ من مجلس الوصاية على العرش، أرهبونا بصحبتهم الصامتة. تحدثنا قليلًا، وسُررت عن نفسي عندما انتهت الوجبة واستطعنا الانتقال إلى غرفة بلياردو عصرية؛ لتدخين السيجار.

قال السير هنري: «إنه مكان غير بهيج بالمرة، أظن أن بإمكاننا التخفيف من حدة كآبته، لكنني لا أشعر في الوقت الحالي بأي سلامٍ نفسي. لا غرو أن عمي قد أصابه الاكتئاب من جراء عيشه بمفرده في مثل هذا القصر. على أي حال، إن ناسبك هذا، سنأوي إلى فُرُشِنا مبكرًا الليلة، وربما تبدو الأمور أكثر بهجة في الصباح».

أزحت ستائري قبل أن أخلد إلى الفراش ونظرت من نافذتي. كانت تطل على المساحة العشبية التي تقع أمام باب القصر. وخلفها أَنَّت مجموعتان من الأشجار وتأرجحتا بفعل الرياح الثائرة. ظهر نصف قمر من بين السحب المتسارعة. ورأيت في ضوئه البارد وراء الأشجار شريطًا متقطعًا من الصخور والمنحنى الطويل المنخفض للرابية الكئيبة. أغلقتُ الستائر وشعرت بأن انطباعي الأخير كان متوافقًا مع ما سبقه.

لكنه لم يكن الأخير تمامًا. فقد وجدت نفسي متعبًا، ولكن متيقظًا، أتقلب بقلق من جانب إلى آخر، باحثًا عن النوم الذي لن يأتي. وبعيدًا كانت ساعة تدق معلنة عن مرور أرباع الساعات، لكن بخلاف ذلك، ساد صمت قاتل على القصر القديم. وفجأة، في سكون الليل التام، ترامى إلى مسامعي صوت واضح رنان لا لبس فيه. كان صوت بكاء امرأة، الشهيق المكبوت المختنق لامرأة مزقها حزنٌ مستبد. جلستُ في الفراش وأصخت السمع. لا يمكن لهذا الصوت أن يكون بعيدًا، إنه في القصر دون أدنى ريب. انتظرت لمدة نصف الساعة متأهبًا لسماعه من جديد، غير أنه لم يصدر أي صوتٍ آخر بخلاف دقات الساعة وحفيف اللبلاب على الجدار.

الفصل السابع

آل ستابلتون قاطنو منزل ميريبت

لعب جمال الصباح المُنعش دورًا في محو الكآبة التي استحوذت علينا بعد مواجهتنا الأولى مع قصر باسكرفيل. جلستُ أنا والسير هنري لتناول الإفطار، بينما تدفَّق ضوء الشمس من النوافذ المرتفعة ذات الفواصل، ملقيًا رقعًا ملونة بفعل شعارات النبالة التي تغطيها. كانت الألواح الداكنة تتوهج كالبرونز في الأشعة الذهبية، وكان من الصعب استيعاب أن هذه هي نفسها الغرفة التي أصابت أرواحنا بالغمَّ مساء أمس.

قال البارون: «أعتقد أن العيب كان فينا لا في القصر! لقد كنا متعبيَن ونشعر بالبرد من طول رحلتنا، لذلك نظرنا إلى المكان نظرة مُقبضة. أما الآن وقد أصبحنا منتعشين وفي خير حال، عاد المكان بهيجًا مرة أخرى».

أجبته قائلًا: «لكن المسألة لم تكُن برمتها من فعل خيالنا، فمثلًا هل تصادف أن سمعت أحدهم، امرأة حسبما أعتقد، تبكي في الليل؟»

– هذا غريب؛ فقد خُيِّل إليَّ حينما كنتُ بين النوم واليقظة أنِّي سمعت شيئًا من هذا القبيل. انتظرت برهة، غير أن الصوت لم يستمر، لذا افترضت أن كل هذا كان حلمًا.

– لقد سمعته بوضوح، وإنني موقن من أنه كان حقًّا بكاء امرأة.

– يجب أن نستعلم عن هذا الأمر في الحال.

قرع الجرس وسأل باريمور إن كان يمكنه تفسير ما سمعناه. بدا لي أن ملامح الخادم الشاحبة قد عكست ظلًّا أكثر شحوبًا بينما كان يستمع إلى سؤال سيده.

أجاب قائلًا:

– لا يوجد سوى امرأتين في القصر أيها السير هنري، إحداهما خادمة المطبخ، التي تنام في الجناح الآخر. والثانية هي زوجتي، وأؤكد لك أن الصوت لم يصدر منها.

لكنه كان يكذب، إذ تصادف أن التقيت السيدة باريمور بعد الإفطار في الممر الطويل وضوء الشمس يغمر وجهها. كانت امرأة ضخمة هادئة، لها ملامح حادة وفم مزموم. لكن عينيها فضحتاها بحمرتهما، وهي تنظر إليَّ من بين جفنيها المنتفخين. كانت هي إذن من بكت أثناء الليل، وفي هذه الحالة لا بد أن زوجها يعرف. لكنه مع ذلك تكبَّد مخاطرة واضحة بانكشاف أمره حينما أكَّد أنها لم تكن هي. لماذا فعل ذلك؟ ولماذا كانت تبكي بكل هذه المرارة؟ ثمَّة هالة من الغموض والكآبة تحوم حقًّا حول هذا الرجل الوسيم شاحب الوجه صاحب اللحية السوداء. فهو أول من اكتشف جثة السير تشارلز، ولم يكن لدينا سوى كلمته بشأن كل الملابسات التي أدَّت لوفاة الكهل. هل يُعقل أن يكون باريمور هو من كان يراقبنا من عربة الأجرة بشارع ريجنت؟ إن لحيته مماثلة. أما سائق عربة الأجرة فقد وصف رجلًا

أقصر نوعًا ما، لكن هذا انطباعٌ يمكن للمرء أن يخطئه بسهولة. كيف أستطيع حسم هذه المسألة إلى الأبد؟ واضح أن أول ما يجب عليَّ فعله هو الذهاب إلى مدير مكتب بريد جريمبن، والتحقق من أن برقية الاختبار قد سُلِّمت حقًّا إلى يد باريمور. فلتكن الإجابة كما تكون، ينبغي على الأقل أن يكون لدي ما أبلغ به شيرلوك هولمز.

كان لدى السير هنري الكثير من الأوراق ليفحصها بعد الإفطار، وهكذا اتسع لي الوقت لتنفيذ خطتي. كانت مسيرة ممتعة لمسافة أربعة أميال بطول حافة الرابية، قادتني في نهايتها إلى قرية رمادية صغيرة، كان بها مبنيان أكبر من غيرهما، تبين أنهما نُزُلٌ ومنزلُ الطبيب مورتيمر. أما مدير مكتب البريد — الذي كان أيضًا بقَّال القرية — فكان يتذكر البرقية جيدًا.

قال: «بالتأكيد يا سيدي، لقد سُلِّمت البرقية للسيد باريمور تمامًا حسب التعليمات».

– من سلَّمها؟

– ابني هذا. ألم تُسلِّم يا جيمس تلك البرقية إلى السيد باريمور في القصر الأسبوع الماضي؟

– نعم يا أبي، لقد سلَّمتها.

سألته:

– إلى يديه شخصيًّا؟

– حسنًا، لقد كان في الطابق العلوي آنذاك، فلم أتمكن من وضعها في يديه، لكنني أعطيتها للسيدة باريمور، وقد وعدتني بتسليمها له على الفور.

– هل رأيت السيد باريمور؟

– لا يا سيدي، أخبرتك أنه كان في الطابق العلوي.

– إن لم تكن رأيته، فكيف علمت أنه في الطابق العلوي؟

قال مدير مكتب البريد بنَزَق: «حسنًا، لا بد أن زوجته على دراية جيدة بمكانه. ألم يتلقَّ البرقية؟ إن كان ثمة خطأ فعلى السيد باريمور أن يشتكي بنفسه».

بدت متابعة التحقيق بلا جدوى، لكن كان من الواضح أننا ومع حيلة هولمز، ليس لدينا ما يثبت عدم وجود باريمور في لندن في ذلك الوقت. بافتراض أن هذا ما حدث — وأن هذا الرجل كان آخر من رأى السير تشارلز حيًّا، وأول من تتبَّع الوريث الجديد منذ عودته إلى إنجلترا. ماذا إذن؟ أكان يعمل لحساب آخرين أم أن لديه مخططه الشرير الخاص به؟ ماذا يجني من مضايقة عائلة باسكرفيل؟ فكَّرتُ في التحذير الغريب المقصوص من المقال الافتتاحي لجريدة التايمز. أكان ذلك من عمل يديه أم أنه من صنع شخصٍ آخر يحاول قلب مخططاته رأسًا على عقب؟ كان الدافع الوحيد المحتمل هو الذي اقترحه السير هنري، من أن إخافة أفراد الأسرة، وإبعادهم يؤمن بيتًا دائمًا ومريحًا لآل باريمور. غير أن هذا الدافع قطعًا ليس كافيًا لتفسير المكيدة المتقنة المعقدة التي يبدو أنها تنسج شبكة غير مرئية حول البارون الشاب. لقد قال هولمز بنفسه إنه لم يخُض قط قضية أكثر تعقيدًا من بين سلسلة القضايا

الطويلة المثيرة التي خاضها. دعوت بينما أسير عائدًا في الطريق الرمادي المهجور، أن يتحرر صديقي سريعًا مما يشغله كيما يستطيع الحضور وحمل عبء المسؤولية الثقيل هذا عن كاهلي.

قطع أفكاري فجأة وقعُ أقدامٍ تركض خلفي، وصوتٌ ينادي باسمي. التفتُّ متوقعًا رؤية الطبيب مورتيمر، لكن لدهشتي وجدتُ غريبًا يلاحقني. كان رجلًا ضئيل الحجم نحيلًا حليقَ الذقن متجهم الوجه، ذا شعر أشقر وفك محدد، عمره بين الثلاثين والأربعين عامًا، يرتدي حُلة رمادية وقبعة من القش. كان يحمل على كتفه صندوقًا من الصفيح يحوي عينات نباتية، وشبكة خضراء لصيد الفراشات في إحدى يديه.

قال عندما وصل لاهثًا إلى حيث وقفت: «أستميحك عُذرًا على تطفُّلي أيها الدكتور واتسون، نحن هنا على الرابية قومٌ بسطاء لا ننتظر المقدمات الرسمية. لعلك سمعت باسمي من صديقنا المشترك مورتيمر. أنا ستابلتون صاحب منزل ميريبت».

قلت: «شبكتك وصندوقك أخبراني بذلك، فأنا أعرف أن السيد ستابلتون عالم طبيعة. ولكن كيف عرفتني؟»

– كنت أزور مورتيمر وأشار إليك من نافذة عيادته أثناء مرورك. ولَمَّا كان طريقنا واحدًا خطر لي أن ألحق بك وأعرفك بنفسي. أرجو ألا يكون السير هنري مستاءً من رحلته.

– إنه في خير حال، شكرًا لك.

– لقد خشينا جميعًا أن يرفض البارون الجديد العيش هنا بعد الوفاة المؤسفة للسير تشارلز. إنها لمهمة عسيرة على رجلٍ ثري أن يأتي ويدفن نفسه في مكانٍ كهذا، لكنني لست بحاجة لأن أقول لك كم يعني هذا لأهل الريف. هل لي أن أفترض أن السير هنري ليست لديه مخاوف خرافية بهذا الشأن؟

– لا أظن ذلك.

– أنت تعرف بالطبع أسطورة الكلب الشيطاني الذي يطارد أسرته منذ زمن، أليس كذلك؟

– بلى، سمعتُ عنها.

– إن سذاجة الفلاحين هنا تفوق الوصف! وكثيرٌ منهم مستعدون للقسم بأنهم رأوا هذا المخلوق على الرابية.

كان يتحدث مبتسمًا، بيد أني قرأتُ في عينيه أنه كان يأخذ هذه المسألة على نحوٍ أكثر جدية.

– لقد تملَّكت القصة من خيال السير تشارلز، وليس لدي شك في أنها أودت بحياته.

– لكن كيف؟

– كانت أعصابه متوترة لدرجة أن ظهور أي كلب كان ليُحدث أثرًا مميتًا في قلبه المريض. أحسبه قد رأى حقًّا شيئًا من هذا القبيل في تلك الليلة الأخيرة على ممشى الطقسوس. كنت أخشى وقوع مكروهٍ لهذا الكهل، فقد كنت مغرمًا به، وأعرف أن قلبه ضعيف.

– كيف عرفت ذلك؟

– أخبرني صديقي مورتيمر.

– هل تظن إذن أن كلبًا ما فاجأ السير تشارلز، وأنه قد مات من شدة الرعب؟

– هل لديك تفسيرٌ أفضل؟

– لم أتوصل لاستنتاجٍ بعد.

– هل توصل السيد شيرلوك هولمز إلى استنتاج؟

حبستُ أنفاسي لوهلة حينما سمعت هذه الكلمات، ولكن نظرة إلى وجه الرجل الهادئ وعينيه الثابتتين أوضحت لي أنه لم يقصد مفاجأتي.

قال: «لا جدوى من التظاهر بأننا لا نعرفك يا دكتور واتسون، فقد بلغتنا مآثر صديقك المحقق، ولا يمكن للمرء أن يحتفي به دون أن يعرفك. حينما أخبرني مورتيمر باسمك لم يُنكر هُويتك. فإذا كنت هنا فمعنى ذلك أن السيد شيرلوك هولمز مهتمٌّ أيضًا بالقضية، وأنا حريص على معرفة وجهة نظره دون شك».

– أخشى أنني لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال.

– هل لي أن أسأل عما إن كان سيشرفنا بالزيارة؟

– إنه لا يستطيع ترك لندن في الوقت الحالي. فلديه قضايا أخرى تشغل انتباهه.

– يا للخسارة! قد يلقي بعض الضوء على ما يستغلق علينا. ولكن فيما يتعلق ببحوثك الخاصة، فلك أن تطلبني متى شعرت بحاجة إليَّ. وإن أعطيتني أية إشارة لطبيعة شكوكك أو كيف تعتزم التحقيق في القضية، فلربما أستطيع أن أقدم لك بعض المساعدة أو النصيحة الآن.

– أؤكد لك أنني هنا لزيارة صديقي السير هنري، ولست بحاجة إلى أي مساعدة من أي نوع.

قال ستابلتون: «عظيم! لك الحق كله في حذرك وتحفظك. إنني أستحق التوبيخ حقًّا على تطفُّلي غير المبرَر، وأعدك أنني لن أذكر المسألة مجددًا».

وصلنا إلى نقطة يتفرع فيها ممر عشبي ضيق من الطريق ويمتد عبر الرابية. على اليمين يقع تلٌّ شديد الانحدار تتناثر فيه الصخور، استُخدم في الماضي كمحجر للجرانيت. وشكَّل الوجه المواجه لنا جرفًا مظلمًا، تنمو في أركانه السراخس والعليق. ومن بعيد طفا عمود من الدخان الرمادي.

قال ستابلتون: «مسيرة بسيطة في هذا الممر تأخذنا إلى منزل ميريبت. إن استطعت أن تقتطع من وقتك ساعة سيسرني أن أعرفك بشقيقتي».

كان أول ما فكرت فيه هو أن عليَّ أن أكون بجانب السير هنري. ثم تذكرت كومة الأوراق والفواتير التي تكدَّست على طاولة مكتبه. من المؤكَّد أنني لا أستطيع مساعدته فيها. وقد طلب مني هولمز بوضوح أن أعاين الجيران على الرابية. لذا قبلت دعوة ستابلتون وانعطفنا معًا في الممر.

قال وهو ينظر حوله إلى المنحدرات المتموجة في أمواج خضراء طويلة، مع قممٍ من الجرانيت المتعرج، تعلو في ارتفاعاتٍ بديعة:

– إن الرابية مكان مذهل، لا يمكن للمرء أن يملها أبدًا. لن تتصور كم هي ملأى بالأسرار المذهلة. إنها شاسعة جدًّا، وقاحلة جدًّا، وغامضة جدًّا.

– لا بد أنك تعرفها جيدًا إذن.

– إنني أعيش هنا منذ عامين فقط. كان السكان ينادونني بالوافد الجديد. جئنا بعد فترة وجيزة من استقرار السير تشارلز هنا. بيد أن ميولي قادتني إلى استكشاف كل أرجاء البلدة، ولا يعرفها حق المعرفة إلا قلة قليلة من الرجال.

– هل من الصعب معرفتها؟

– صعب جدًّا. هل ترى على سبيل المثال هذا السهل العظيم الممتد إلى الشمال بتلاله الغريبة المُنبثقة منه. هل تلاحظ أي شيء مميز فيه؟

– يبدو لي مكانًا صالحًا لركوب الخيل.

– من الطبيعي أن تراه هكذا، وقد كلَّفت تلك الفكرة الكثيرين حياتهم من قبل. هل ترى تلك البقع الخضراء الزاهية المتناثرة بكثافة فوقه؟

– نعم، تبدو أكثر خصوبة عن البقية.

ضحك ستابلتون قائلًا:

– هذا هو مستنقع جريمبن العظيم، إن خطوة خاطئة هناك تعني الموت المحقق، سواء للإنسان أو للحيوان. بالأمس فقط رأيت أحد مهور الرابية يتجول فيه، ولم يستطع الخروج. رأيتُ رأسه لفترة طويلة ينازع الموت فوق سطح المستنقع، الذي ابتلعه في النهاية. حتى في مواسم الجفاف يكون عبوره خطيرًا، لكنه يكون مروعًا بصفة خاصة بعد هطول أمطار الخريف. ومع ذلك يمكنني أن أجد طريقي إلى قلبه وأن أعود سالمًا. يا إلهي! ثمة مهر بائس آخر!

كان شيئًا بنيًّا يدور ويتقلب بين الرواسب الخضراء. ثم برز عنق طويل يتلوى محتضرًا ودوَّت صرخة مروعة فوق الرابية. جعلني الصوت أرتعد فرَقًا، لكن أعصاب رفيقي بدت أقوى من أعصابي.

قال: «لقد رحل! تمكَّن المستنقع منه. مهران في يومين، وغيرهما الكثير. تشق تلك المهور طريقها إلى هناك في الطقس الجاف، وما هي إلا ثوانٍ حتى تقع في براثن المستنقع. إنه لمكان خبيث، مستنقع جريمبن العظيم هذا».

– وتقول إنك تستطيع عبوره؟

– نعم، ثمة طريق أو اثنان يمكن للرجل الماهر اجتيازهما. وقد اكتشفتهما.

– ولكن لِمَ عساك ترغب في دخول هذا المكان الرهيب؟

– حسنًا، هل ترى تلك التلال في الخلف؟ إنها في الحقيقة جُزُرٌ زحَف المستنقع الخطير حولها على مر السنين حتى أحاطها من كل جانب. هذا هو المكان الذي تجد فيه النباتات والفراشات النادرة، إذا كانت لديك الفطنة الكافية للوصول إليها.

– سأجرب حظي ذات يوم.

نظر لي بوجه مندهش.

قال: «أستحلفك بالله أن تُخرج هذه الفكرة من ذهنك. دماؤك ستكون في رقبتي. أؤكد لك أنه ما من فرصة لعودتك حيًّا. فأنا لا أستطيع فعلها إلا بتذكر بعض المعالم المعقدة».

صحتُ: «يا للهول! ما هذا؟»

اجتاح الرابية أنين طويل منخفض وحزين، ملأ الهواء بأكمله، حتى إنه كان من المستحيل تحديد مصدره. وقد تضخم من همهمة خافتة حتى صار هديرًا عميقًا، ثم انخفض ثانية في همهمة كئيبة واجفة. نظر ستابلتون إليَّ بتعبير غريب على وجهه وقال:

– عجيب أمر هذه الرابية!

– ولكن ما هذا؟

– يقول الفلاحون إنه كلب باسكرفيل ينادي فريسته. لقد سمعت هذا الصوت مرة أو اثنتين من قبل، ولكن ليس بهذا الوضوح.

نظرتُ حولي، برعدة خوف في قلبي، إلى السهل الضخم المرقط ببقع خضراء من الأسل. لا شيء يتحرك فوق الامتداد الشاسع باستثناء زوج من الغربان، كانا ينعقان بصوت مرتفع من تلٍّ وراءنا.

قلت: «إنك رجل مثقف. مؤكَّد أنك لا تصدق هذا الهُراء، فما سبب هذا الصوت الغريب في رأيك؟».

– تُصدر المستنقعات أصواتًا غريبة في بعض الأحيان. إنه صوت الوحل يترسب، أو الماء يرتفع، أو أي شيء من هذا القبيل.

– لا، لا إنه صوت كائنٍ حي.

– حسنًا، ربما كان كذلك. هل سمعت من قبل طنين طائر الواق؟

– لا، لم أسمع قط.

– إنه طائر نادر وشبه منقرض في إنجلترا الآن، ولكن كل شيء ممكن فوق هذه الرابية. نعم، لن يُدهشني أن يكون ما سمعناه هو نحيب الواق الأخير.

– إنه أغرب وأعجب ما سمعته في حياتي.

– نعم، إنه مكان عجيب بكُليَّته. انظر إلى منحدر التل هناك. ما رأيك في هذا؟

كان المنحدر الشاهق بأكمله مغطى بحلقات حجرية مستديرة رمادية اللون، أو عددٍ كبير منها على الأقل.

– ما هذا؟ حظائر للغنم؟

– لا، إنها منازل أجدادنا الكرام. فقد عاش إنسان ما قبل التاريخ لزمنٍ طويل على الرابية، وإذ إن أحدًا لم يعش هناك منذ ذلك الزمن، فقد وجدنا كل ترتيباته الصغيرة تمامًا مثلما تركها. هذه هي الأكواخ التي عاش فيها من دون سقف. يمكنك حتى أن ترى موقده وأريكته إن ساورك فضولٌ للدخول.

– لكنها أشبه بمدينة كاملة. متى كانت مسكونة؟

– رجل العصر الحجري. لا تاريخ محدد.

– وماذا كان يفعل؟

– كان يرعى ماشيته على هذه المنحدرات، وتعلَّم التنقيب عن القصدير عندما بدأ السيف البرونزي يحل محل الفأس الحجرية. انظر إلى الخندق العظيم في التل المقابل. إنه أحد آثاره. نعم، سوف تجد بعض الأشياء الفريدة حقًّا في هذه الرابية يا دكتور واتسون. أوه، اعذرني للحظة! إنها فراشة السايكلوبيدس من دون ريب.

رفرفت ذبابة صغيرة أو فراشة حيث كنا، وعلى الفور اندفع ستابلتون لمطاردتها بطاقة وسرعة استثنائيتين. كان ما أثار هلعي أن الفراشة طارت مباشرة إلى المستنقع العظيم، ولم يتردد رفيقي للحظة، إذ قفز خلفها من بقعة عشبية لأخرى، وشبكته الخضراء تُلوِّح في الهواء. جعلته ملابسه الرمادية وتقدمه قفزًا في خطوط متعرجة غير منتظمة يبدو هو نفسه كفراشة عملاقة. كنتُ واقفًا أشاهد مطاردته بمزيج من الإعجاب بنشاطه الفريد والخوف من أن تزل قدمه في الوحل الغادر. عندها سمعت وقع خطوات من خلفي، فاستدرت لأجد امرأة تدنو مني على الممر. لقد جاءت من الاتجاه الذي ارتفع منه عمود الدخان حيث منزل ميريبيت، لكن انحدار الرابية أخفاها حتى أصبحت شديدة القرب.

لم يساورني شك في أنها الآنسة ستابلتون التي سمعتُ عنها، حيث كانت النساء على الرابية قليلات، وأتذكر أنني سمعت أحدهم يشيد بجمالها. كانت المرأة التي اقتربت مني جميلة بكل تأكيد، وكان جمالها من النوع النادر. لم يكن ثمة تباين بين أخٍ وأخته مثل الذي كان بينهما، إذ كان لستابلتون شعرٌ فاتح وعينان رماديتان، في حين كانت هي أغمق من أي امرأة سمراء رأيتها في إنجلترا – نحيفة أنيقة طويلة ذات وجهٍ أبيٍّ حاد الملامح ومتناسق لدرجة أنه قد يبدو جامدًا، لولا فمها الرقيق وعينيها الجميلتين الداكنتين الشغوفتين. كان مظهرها غريبًا على الممر المهجور في أراضي الرابية بجسمها الرشيق وثوبها البهيّ. عندما التفتُّ إليها كانت عينيها على أخيها، ثم أسرعت خطاها نحوي. رفعت قبعتي وهممت بالإدلاء ببعض الملاحظات التوضيحية، عندما حوَّلت كلماتها أفكاري كلها إلى مسار جديد.

قالت: «عُد! عُد مباشرة إلى لندن، على الفور».

لم أملك إلا التحديق إليها في دهشة بلهاء. أما هي فقد نظرت إليَّ بعينيها المتقدتين، وأخذت تدق الأرض بقدمها بنفاد صبر.

سألتها: «لماذا يتعين عليَّ أن أعود؟»

تحدثت بصوت خفيض حذر، ولثغة غريبة في نُطقها: «لا يسعني التوضيح، لكنني أستحلفك بالله أن تفعل ما أطلبه. عُد، ولا تطأ بقدمك الرابية مرة أخرى».

– لكنني أتيت لتوِّي.

صاحت: «يا رجل! ألا تدرك متى يكون التحذير لصالحك؟ عُد إلى لندن! غادر الليلة! ابتعد عن هذا المكان بأي ثمن! صه، أخي قادم! لا تتفوَّه بكلمة مما قلتُه. هل تمانع في اقتطاف زهرة الأوركيد تلك التي بين نباتات ذيل الفرس هناك من أجلي؟ إن لدينا الكثير من أزهار الأوركيد على الرابية، مع أنك قد تأخرت إلى حدٍّ ما في رؤية جمال المكان».

كان ستابلتون قد تخلَّى عن المطاردة وعاد إلينا لاهثًا متوردًا من فرط الإجهاد.

ثم رحَّب بأخته بنبرة بدت لي غير ودودٍ بالمرة: «أهلًا يا بيريل!»

– على رسلك يا جاك، تبدو منهكًا بشدة.

– نعم، كنت أطارد فراشة السايكلوبيدس. إنها من نوع نادر للغاية وقلما أعثر على مثلها في نهايات الخريف، لكنني وللأسف الشديد قد فقدتها! كان يتحدث بلا مبالاة، لكن عينيه الصغيرتين الفاتحتين كانتا تنتقلان باستمرار بيني وبين الفتاة.

– أرى أنكما تعارفتما.

– نعم. كنت أخبر السير هنري أنه تأخر نوعًا ما في رؤية الجمال الحقيقي للرابية.

– مهلًا، من تظنينه قد يكون؟

– أظن أنه السير هنري باسكرفيل بالتأكيد.

قلت: «لا، لا، إنني مجرد شخص متواضع من عامة الشعب، غير أنني صديقه. اسمي الدكتور واتسون».

احمرَّ وجهها المعبِّر غيظًا وقالت: «لقد كنا نتحدث عن شيئين متناقضين».

علَّق أخوها بذات العينين المتشككتين: «غريب! لم يكن لديكما الكثير من الوقت لتتحدثا».

قالت: «كنتُ أتحدث كما لو أن الدكتور واتسون مقيم وليس مجرد زائر. لن يُحدث فارقًا لديه إن رأى زهور الأوركيد باكرًا أو متأخرًا. لكنك ستأتي لتزورنا بمنزل ميريبيت، أليس كذلك؟»

قادتنا مسيرة قصيرة إلى منزلٍ منعزل على الرابية، كان في يومٍ من الأيام القديمة المزدهرة مزرعة لراعٍ ما، ولكنه أُصلح حديثًا وتحول إلى مسكن عصري. أحاط به بستان، لكن الأشجار – كما هي العادة على الرابية – كانت متقزمة ومعوجَّة، وقد خيَّم على المكان كله مسحة من الكآبة. استقبلنا خادمٌ هرِم يرتدي ثيابًا باهتة، وقد بدا مظهره منسجمًا مع المنزل. أما الغرف فقد كانت كبيرة ومؤثثة بأناقة تعرفت فيها على ذوق الفتاة. أخذت أنظر من النافذة إلى الرابية الشاسعة المرقطة بالجرانيت التي امتدت بلا انقطاع إلى منتهى النظر، وساءلت نفسي: تُرى ما الشيء الذي يجلب ذلك الرجل المثقف وتلك المرأة الجميلة للعيش في مثل هذا المكان؟

قال كما لو كان يجيب عن أفكاري: «غريب أن يختار المرء العيش في هذا المكان، أليس كذلك؟ لكننا سعيدان هنا، أليس كذلك يا بيريل؟».

قالت بنبرة تخلو من الاقتناع: «سعيدان للغاية».

قال ستابلتون: «لقد كانت لي مدرسة يومًا ما في شمال إنجلترا. كان العمل فيها لشخصٍ مثلي روتيني وممل، غير أن امتياز العيش مع الشباب، والمساعدة في تشكيل تلك العقول الصغيرة، وإثارة إعجابهم بشخصيتي ومُثُلي، كان أثيرًا لديَّ. ومع ذلك كانت الأقدار لنا بالمرصاد، وتفشَّى في المدرسة وباءٌ خطيرٌ مسببًا وفاة ثلاثة من التلاميذ. لم تتعافَ المدرسة قط من هذه الكارثة، والتهمت جزءًا كبيرًا من رأس مالي إلى غير رجعة. لكنني لولا خسارة الرفقة الساحرة للأولاد، لقلتُ إن هذا الحظ العاثر كان لصالحي،

لأنني وجدت، مع شغفي بعلم النبات والحيوان، ميدانًا غير محدود للعمل هنا، وأختي معنية بالطبيعة مثلي. لقد جال هذا كله بذهنك وتبدَّى على وجهك وأنت تتفقد الرابية من نافذتنا يا دكتور واتسون».

– لقد خطر لي بالتأكيد أن المكان قد يكون مملًّا بعض الشيء – ربما أخفُّ وطئًا عليك مقارنةً بأختك.

قالت في سرعة: «لا، لا أشعر بالملل هنا مُطلقًا».

– لدينا كتب، ولنا دراساتنا، وعندنا جيران مدهشون. فالطبيب مورتيمر أكثر الرجال ثقافة في مجاله. والسير تشارلز المسكين كان أيضًا رفيقًا يستحق التقدير. لقد عرفناه حق المعرفة، ونفتقده أكثر مما أستطيع القول. هل تظن أنني سأبدو متطفلًا إن زرت السير هنري بعد ظهر اليوم وتعرَّفت عليه؟

– أنا واثق أن هذا سيسعده.

– إذن فلتخبره أنني أنوي فعل ذلك، لعل بوسعنا أن نخفف عنه بطريقتنا المتواضعة حدَّة التغيير إلى أن يعتاد على محيطه الجديد. هلا صعدت معي إلى الطابق العلوي يا دكتور واتسون، لكي أريك مجموعتي من الفراشات حرشفية الأجنحة؟ أظن أنها المجموعة الأكثر اكتمالًا في جنوب غرب إنجلترا. سيعدُّ الخادم الغداء ريثما تُلقي نظرة عليها.

لكنني تقتُ إلى العودة إلى مسؤوليتي. فقد أزعجتني كآبة الرابية، وموت المهر البائس، والصوت الغريب المتعلِّق بأسطورة باسكرفيل القاتمة. ثم جاء على رأس هذه الانطباعات الغامضة التحذيرُ القاطع الغريب من الآنسة ستابلتون، الذي بادرتني به بمنتهى الجديَّة لدرجة أنني صرتُ واثقًا في وجود سببٍ خطير وعميق كامن وراءه. قاومت كل الضغوط لاستبقائي على الغداء، وانطلقت على الفور في رحلة العودة، متخذًا الممر العشبي الذي أتينا منه.

لكن يبدو أن ثمة طريقًا مختصرًا لا أعرفه، إذ إنني لم أكد أصل إلى الطريق الرئيسِ حتى رأيتُ لدهشتي الآنسة ستابلتون جالسة على صخرة إلى جانب الطريق. كان وجهها متوردًا على نحو جميل من أثر المجهود الذي بذلته، ويداها إلى جانبها.

قالت: «لقد ركضت طوال الطريق كي ألحق بك يا دكتور واتسون، لم يسعفني الوقت حتى أعتمر قبعتي. عليَّ أن أسرع بالعودة، وإلا شعر أخي بغيابي. أردتُ فقط الاعتذار منك عن هفوة اعتقادي أنك السير هنري. أرجو أن تنسى ما قلته، فهو لا ينطبق عليك بأي حال».

قلت: «لكني لا أستطيع نسيانه يا آنسة ستابلتون، فأنا صديق السير هنري، وأهتم لأمره كثيرًا. أخبريني بسبب حرصك على عودة السير هنري إلى لندن».

– نزوة امرأة يا دكتور واتسون. حينما تعرفني جيدًا ستدرك أنني لا أستطيع دومًا إعطاء تبريرات لما أقوله أو أفعله.

– لا، لا إنني أتذكر رعشة صوتك، وأتذكر النظرة في عينيك. أرجوكِ، أرجوكِ كوني صريحة معي أيتها الآنسة ستابلتون، منذ جئت إلى هنا أشعر بالظلال تتكالب من حولي. لقد أصبحت الحياة مثل مستنقع جريمبن العظيم هذا، مليئة بالبقع الخضراء الصغيرة التي يُمكن للمرء أن يغرق فيها دون سابق إنذار. أخبريني بما كنتِ تقصدين، وأعدك بأن أنقل تحذيركِ إلى السير هنري.

لاح تعبير حائر على وجهها، ثم لم تلبث أن استعادت عيناها الجمود مرة أخرى وأجابتني قائلة:

– إنك تبالغ في تخيُّلك للوضع أيها الدكتور واتسون. لقد صدمتنا وفاة السير تشارلي كثيرًا أنا وأخي. فقد عرفناه من كثب، وكانت نزهته المفضلة أن يعبر الرابية إلى منزلنا. كان متأثرًا بشدة باللعنة التي تخيم على العائلة، وعندما حدثت المأساة شعرتُ بطبيعة الحال أنه لا بد من وجود أسباب حقيقية لمخاوفه. لذا شعرت بالضيق عندما جاء فردٌ آخر من عائلته ليعيش هنا، وبأن عليَّ تحذيره من الخطر الذي سيواجهه. هذا كل ما قصدت قوله.

– ولكن أيَّ خطرٍ تقصدين؟

– ألا تعرف قصة الكلب؟

– لا أؤمن بهذا الهراء.

– لكنني أؤمن بها. إن كان لديك أي تأثير على السير هنري فخذه بعيدًا عن المكان الذي لطالما كان مُهلكًا لأفراد عائلته. أرض الله واسعة. لمَ يرغب في العيش في مكانٍ محفوف بالخطر؟

– لأنه مكان محفوف بالخطر. هذه هي طبيعة السير هنري. أخشى أنك ما لم تعطيني معلومات محددة، سيتعذر عليَّ حمله على التحرك.

– لا يمكنني قول أي شيء محدد، لأنني لا أعرف أي شيء محدد.

– سأطرح عليكِ سؤالًا أخيرًا يا آنسة ستابلتون. ما دمتِ لا تقصدين أكثر من ذلك منذ البداية، لِمَ لا تريدين أن يسمع شقيقك ما قلتِه؟ لا يوجد في حديثك ما يمكنه الاعتراض عليه هو أو أي شخص آخر.

– إنَّ أخي حريص أشد الحرص على أن يعيش وريث العائلة في قصره، لأنه يعتقد أن هذا يفيد قوم الرابية الفقراء أشد فائدة. وسوف يغضب إن علم بأني قلتُ شيئًا قد يدفع بالسير هنري إلى الرحيل. لكنني قمت بواجبي على أي حال ولن أقول المزيد. لا بد أن أعود، وإلا سيعرف بغيابي ويشك في أنني قابلتُك. إلى اللقاء. استدارت وبعد بضع دقائق كانت قد اختفت بين الصخور المتناثرة، بينما تابعتُ طريقي إلى قصر باسكرفيل بذهنٍ يعج بالمخاوف المبهمة.

الفصل الثامن

التقرير الأول للدكتور واتسون

انطلاقًا من هذه النقطة فصاعدًا سأتبع مسار الأحداث بتدوين خطاباتي إلى السيد شيرلوك هولمز، والموضوعة أمامي على الطاولة. هناك صفحة مفقودة، ولكن فيما عداها، تلك هي خطاباتي إليه تمامًا كما كُتبت، وتُظهر مشاعري وشكوكي في ذلك الحين بدقة أكثر مما تستطيع ذاكرتي، وبوضوح مثلما كانت عند وقوع تلك الأحداث المأساوية.

قصر باسكرفيل– 13من أكتوبر

عزيزي هولمز:

إن رسائلي السابقة وبرقياتي قد أبقتك على اطلاعٍ دائمٍ على كل ما حدث في تلك البقعة المُهملة من العالم. كلما طال بقاء المرء هنا، غاصت روح الرابية أكثر داخل روحه، برحابتها، وأيضًا بسحرها القاتم. حينئذٍ تكون قد تركت كل آثار إنجلترا العصرية خلفك، ويزداد وعيك في المقابل بآثار شعوب ما قبل التاريخ وبيوتهم. كلما سرت أحاطت بك من كل جانب منازل هذه الشعوب المنسية، بمقابرهم والصخور الضخمة التي يفترض أنها تميز معابدهم. وكلما نظرت إلى أكواخهم الحجرية الرمادية على جوانب التلال المليئة بالندوب، نسيت العصر الذي تعيش فيه، حتى إنك لو رأيت رجلًا كثيف الشعر يرتدي الجلد ويزحف من الباب المنخفض مثبتًا سهمًا مدببًا إلى وتر قوسه، فسوف تشعر أن وجوده هناك طبيعي أكثر من وجودك. الغريب أنهم عاشوا بأعدادٍ غفيرة على ما يُفترض بأن يكون أكثر الأراضي جدبًا. لست مؤرخًا، لكنني أتصور أنهم كانوا عرقًا مسالمًا ومُنهَكًا، أُرغِم على قبول مكان لا يرضى غيره بالعيش فيه.

هذه الأمور كلها لا تمت بصلة للمهمة التي أرسلتني فيها على كل حال، بل وقد يراها عقلك العملي مُضجرة أيما إضجار. ما زلت أتذكر لا مبالاتك التامة بما إن كانت الشمس تدور حول الأرض أو أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، لذا لنعُد إلى الحقائق المتعلقة بالسير هنري باسكرفيل.

إن كنت لم تتلقَ أي تقرير خلال الأيام القليلة الماضية فذلك بسبب عدم وجود أي شيء مهم للإبلاغ به حتى يومنا هذا. ثم وقعت واقعة مُدهشة، سآتي على ذكرها بعد قليل. ولكن عليَّ أولًا أن أحيطك علمًا بالعوامل الأخرى المعنية بالوضع.

أحدها، والذي لم أتحدث عنه كثيرًا، هو السجين الهارب على الرابية. ثمة سبب قوي الآن للاعتقاد بأنه قد هرب بعيدًا عن المنطقة، وهو ما أراح أصحاب المنازل المنعزلة هنا إلى حدٍ كبير. فقد مرَّ أسبوعان منذ هروبه، لم يره فيهما أحد أو يسمع عنه. من غير المعقول أن يستطيع الصمود على الرابية كل هذا الوقت. بالطبع يمكنه الاختباء والتواري عن الأنظار في أيٍ من هذه الأكواخ الحجرية. بيد أنه لن يجد ما يقتات

عليه إلا إذا اصطاد وذبح أحد أغنام الرابية. ولهذا السبب نعتقد أنه رحل، وصار المزارعون المعزولون ينامون قريري الأعين منذ ساد هذا الاعتقاد.

إننا أربعة رجال أصحاء نعيش في هذا القصر، ويمكننا الاعتناء بأنفسنا جيدًا، لكنني أعترف بأنني شعرتُ بالقلق حينما فكرت في آل ستابلتون. إنهم يعيشون على بعد أميال من أقرب مساعدة. وليس في منزلهم سوى خادمة واحدة، وخادم كهل، والأخت وأخوها، والأخير ليس برجلٍ شديد القوة. وسيصبحون بلا حولٍ ولا قوة بين يدي سفاح نوتنج هيل إن استطاع الدخول. كنا أنا والسير هنري قلقَين بشأن هذا الوضع، واقترحنا أن يذهب الحوذيُّ بيركنز للنوم عِندهم، بيد أن ستابلتون لم يرضَ بهذا.

الواقع أن صاحبنا البارون قد بدأ يُظهر اهتمامًا كبيرًا بجارتنا الجميلة. ولا غرو في ذلك، فالوقت يمر بصعوبة لرجل نشيطٍ مثله في هذه البقعة المعزولة، وهي امرأة فاتنة وجميلة جدًّا أيضًا. ثمة طابع عاطفي غريب فيها يُشكل تباينًا فريدًا مع شقيقها الهادئ البارد. لكنه يعطي فكرة أيضًا عن خلافاتهما الخفيَّة. إن له تأثيرًا ملحوظًا عليها لا ريب فيه، فقد لمحتُها تختلس النظر إليه باستمرار وهي تتحدث كأنما تلتمس موافقته على ما تقول. إنني واثق أنه يُعاملها بلطف. ولكن بريق عينيه القاسيتين، وشفتيه الرفيعتين المزمومتين يشيان بشخصية حاسمة، وربما قاسية! وستجد فيه موضوعًا شيقًا للدراسة.

لقد جاء لزيارتنا في قصر باسكرفيل في يومنا الأول، وفي الصباح التالي اصطحبنا ليرينا الموقع الذي يُفترض أنه منشأ أسطورة هوجو الشرير. كانت رحلة لبضعة أميال عبر الرابية إلى مكانٍ شديد الكآبة لدرجة أنه قد يكون هو ما أوحى بالقصة. وجدنا واديًا قصيرًا بين تلال وعرة يؤدي إلى مساحة عشبية مفتوحة يغطيها عشب القطن الأبيض. ارتفع في وسطها حجران كبيران، اهترآ وصُقلا من الطرف العلوي حتى صارا مثل نابين ضخمين متآكلين لحيوانٍ رهيب. تطابق هذا المكان من نواحٍ شتى مع مسرح الأسطورة القديمة. وقد ظهر الاهتمام الشديد على السير هنري الذي راح يسأل ستابلتون أكثر من مرة عما إذا كان يؤمن حقًّا بإمكانية تدخُّل الخوارق في أمور البشر. كان يتحدث باستخفاف، لكنني رأيتُ بوضوح أنه أكثر جدية مما يدَّعي. التزم ستابلتون الحذر في إجاباته، ولكن كان يسهُل ملاحظة أنه يُفصح بأقل مما ينبغي، وأنه لا يعبر عن رأيه بالكامل مراعاةً لمشاعر البارون. وأخبرنا عن حالات مشابهة، عانت فيها عائلات أخرى من بعض القوى الشريرة، وترك لنا انطباعًا بأنه ينقل وجهة النظر الرائجة عن الموضوع.

في طريق عودتنا بقينا لتناول الغداء في منزل ميرييت، وهناك التقى السير هنري بالآنسة ستابلتون. ومن اللحظة التي رآها فيها بدا منجذبًا إليها بشدة، وما لم أكن مخطئًا، فإن شعوره كان متبادلًا. أخذ يتحدَّث عنها مرارًا في طريق عودتنا إلى القصر، ومنذ ذلك الحين صار من العسير أن يمضي يوم لا نرى فيه الرجل أو شقيقته. إنهما يتعشيان هنا الليلة، وثمَّ كلام عن ذهابنا إليهما الأسبوع المقبل. قد يظن المرء أن مثل هذا الاهتمام سيلقى ترحيبًا شديدًا من ستابلتون، إلا أنني ضبطته أكثر من مرة ينظر باستنكار بالغ كلما تحدث السير هنري مع أخته؛ إنه شديد التعلُّق بها دون شك، وسوف تغدو حياته

موحشة من دونها، لكنها ذروة الأنانية أن يقف في طريق مثل هذه الزيجة الرائعة. إنني على يقين أنه لا يرغب في أن تتحول مودتهما إلى حب، وقد لاحظت عدة مرات أنه يبذل جهدًا لمنع ذلك. وبالمناسبة، ستُصبح تعليماتك لي بعدم السماح للسير هنري بالخروج بمفرده أصعب إن أضيفت علاقة غرامية إلى صعوباتنا الأخرى. ولسوف تهبط شعبيتي سريعًا إن أصررتَ على تنفيذ أوامرك.

في أحد الأيام – الخميس تحديدًا – تناول الطبيب مورتيمر الغداء معنا. كان ينقِّب في مقبرة في لونج داون، وعثر على جمجمة تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وقد غمره ذلك بفرحة عظيمة. لم أرَ قط هاويًا متحمسًا مثله! بعدها جاء ستابلتون، ثم اصطحبنا الطبيب الطيب جميعًا إلى ممشى الطُّقسوس، بناء على طلب السير هنري، ليرينا كيف توالت الأحداث ليلة الوفاة. ممشى الطُّقسوس عبارة عن طريق طويل موحش يمتد بين سياجين عاليين مقصوصين، مع شريطٍ عشبي ضيق على كلا الجانبين. يقع في آخره منزل صيفي قديم. وفي منتصف الطريق إليه تقع بوابة الرابية، حيث ترك الكهل رماد سيجاره. وهي بوابة خشبية بيضاء مزودة بمزلاج. ومن خلفها تمتد الرابية الفسيحة. تذكرت نظريتك عن القضية وحاولت تخيل ما حدث. فقد رأى الكهل أثناء وقوفه هناك شيئًا مقبلًا من الرابية، شيئًا أثار ذعره لدرجة أفقدته صوابه، فركض وركض حتى مات من الرعب والإنهاك الشديدين. ها هو الممر الطويل الموحش الذي فرَّ من خلاله. مم؟ من كلب رعي على الرابية؟ أم من كلبٍ شيطاني أسود صامت رهيب؟ هل كان ثمة يدٌ بشرية في الموضوع؟ هل عرف باريمور الشاحب المتيقظ أكثر مما قال؟ كان كل شيء مبهمًا وغامضًا، لكن تظل شبهة وقوع جريمة قائمة.

وقد قابلت جارًا آخر منذ كتبت إليك آخر مرة. إنه السيد فرانكلاند، مالك منزل لافتر، الذي يعيش على بعد أربعة أميال إلى جنوب قصرنا. إنه رجل كبير في السن أحمر الوجه أشيب الشعر حاد المزاج، شغوف بالقانون البريطاني، أنفق ثروة هائلة على المنازعات القضائية. يقاتل لمجرد المتعة، ومستعدٌ لتبني أي أحد من طرفي النزاع، فلا عجب أنه وجد في القانون تسليةً ثمينة. فتارة يقطع الطريق الذي يمر في أملاكه ويتحدى الرعية أن يعيدوا فتحه، وتارة يهدم بيديه بوابة رجلٍ آخر، ويُعلن أن طريقًا ما كان موجودًا في هذا المكان منذ زمنٍ سحيق، متحديًا المالك أن يُقاضيه بتهمة التعدي على ممتلكات الغير. إنه خبير بالحقوق الإقطاعية والمجتمعية القديمة، فيمضي مُطبِّقًا علمه لصالح سكان قرية فرنورثي أحيانًا وضدهم في أحيانٍ أخرى، لذلك من حينٍ لآخر تجده إما محمولًا في مسيرة انتصار تجوب شوارع القرية وإما أن تُحرق دميته[2] في مسيرة احتجاجية، حسب عمله الأخير. يُقال إن لديه نحو سبع دعاوى قضائية بين يديه في الوقت الحالي، والتي يُحتمل أن تبتلع ما تبقى من ثروته، ما سيكسر شوكته ويجعله عديم الضرر في المستقبل. ولكن بعيدًا عن القانون، بدا لي فرانكلاند شخصًا لطيفًا ودودًا، وقد أتيت على ذكره فقط لأنك طلبت أن أُرسل ما أعرفه من تفاصيل عن المحيطين بنا. إن ذهنه منشغل في الوقت الحالي، إذ أنه كفلكي هاوٍ، يمتلك تليسكوبًا ممتازًا، يستلقي به على سطح منزله ويمشط الرابية طوال اليوم على أمل العثور على السجين الهارب. وإذا حصر نشاطه على هذا سنكون جميعًا بخير حال، ولكن ثمة شائعات تقول إنه يعتزم مقاضاة الطبيب مورتيمر لفتحه قبرًا دون موافقة أدنى الأقارب، لأنه استخرج جمجمة تعود إلى العصر الحجري من مقبرة في لونج داون. إنه يخفف من رتابة حياتنا ويمنحنا قليلًا من الترويح الكوميدي حين تشتد الحاجة إليه.

والآن بعد أن أطلعتك على الجديد حول السجين الهارب وستابلتون والطبيب مورتيمر وفرانكلاند مالك منزل لافتر، دعني أنهي تقريري بالمعلومة الأكثر أهمية، وأخبرك المزيد عن آل باريمور، لا سيما التطور المُفاجئ الذي حدث ليلة أمس.

لنبدأ ببرقية الاختبار التي أرسلتَها من لندن للتأكد من أن باريمور كان هنا حقًّا. لقد سبق وأخبرتك كيف أظهرت إفادة مدير المكتب أن الاختبار كان بلا جدوى وأننا لا نملك دليلًا على وجوده في القصر أو عدمه. أخبرتُ السير هنري بما انتهى إليه الأمر، فاستدعى باريمور فورًا بأسلوبه المباشر، وسأله عما إن كان قد تلقى البرقية بنفسه. فأجاب باريمور بأنه قام بذلك فعلًا.

سأله السير هنري: «هل سلَّمها الفتى إلى يدك مباشرة؟»

بدا باريمور متفاجئًا، وفكر قليلًا ثم قال: «لا، كنتُ في غرفة التخزين حينها، فأحضرتها زوجتي إليَّ».

– هل أجبت عنها بنفسك؟

– لا؛ لقد أخبرت زوجتي بالرد ونزلت هي لكتابتها في الأسفل.

في المساء عاد إلى الموضوع من تلقاء نفسه.

قال: «لم أستطع فهم المغزى من أسئلتك لي هذا الصباح أيها السير هنري، لعلك لا تعتقد أني فعلتُ ما يستدعي فقدان ثقتك».

اضطر السير هنري إلى التأكيد على أنه لم يقصد ذلك، ويهدئه بمنحه جزءًا كبيرًا من ثيابه القديمة، فقد وصلت كل ثيابه اللندنية الآن.

أما السيدة باريمور فتثير اهتمامي. إنها شخصية حادة وصلبة ومتحفظة، شديدة التهذيب، وتميل إلى التزمُّت، لا يمكنك تصوُّر مرؤوس أقل عاطفة منها. لكنني أخبرتك كيف سمعتها في أول ليلة لي هنا تبكي بمرارة، ومنذ ذلك الحين لاحظت أكثر من مرة آثار دموع على وجهها. ثمة حزن عميق يعتمل في صدرها. أحيانًا أتساءل إن كانت لديها ذكرى لذنبٍ قديم يطاردها، وأحيانًا أشك في أن باريمور زوجٌ مستبد. لطالما شعرتُ بشيء غريب ومريب في شخصية هذا الرجل، لكن واقعة الليلة الماضية فاقمت كل شكوكي.

قد تبدو المسألة تافهة في حد ذاتها. فأنت تعلم أنني لا أغطُّ عميقًا في النوم، ولما كنت على أُهُبَّة الاستعداد في هذا القصر، فقد أصبح نومي أخف من أي وقت مضى. استيقظت ليلة أمس – في نحو الثانية صباحًا – على صوت وقع خطوات متسللة تمر بغرفتي. نهضت وفتحت بابي واختلست النظر إلى الخارج. رأيت ظلًّا طويلًا أسود يسير في الممر، ظل رجلٍ يسير بخفة عبر الرواق حاملًا شمعة في يده. كان يرتدي قميصًا وسروالًا، ولا يرتدي شيئًا في قدميه. بالكاد استطعت رؤية حدود جسده الخارجية، لكن طوله دلني على أنه باريمور. كان يسير ببطء وحذر شديدين، وكان يشوب مظهره بالكامل هالة من الإثم والمكر لا يسعني وصفها.

وقد أخبرتك بأن ثمة شُرفة تقطع الرواق وتدور حول البهو، لكن الرواق يبدأ من جديد على الجانب الآخر. انتظرت حتى خرج من نطاق رؤيتي ثم تبعته. وعندما درت حول الشُّرفة كان قد وصل إلى نهاية امتداد الرواق، وعلمتُ من بصيص الضوء الخارج من أحد الأبواب المفتوحة أنه دخل إحدى الغُرف،

وجميع هذه الغُرف ليست مؤثَّثةً ولا مأهولةً، لذا اكتنفت جولته الغموض أكثر من أي شيء آخر. توهَّج ضوء الشمعة بثبات كما لو كان باريمور يقف ساكنًا بلا حراك. تسللتُ عبر الرواق بهدوء قدر استطاعتي واختلستُ النظر من زاوية الباب.

رأيتُ باريمور جاثمًا على النافذة حاملًا الشمعة أمام الزجاج. رأيتُ جانب وجهه، وقد بدا جامدًا مترقبًا وهو يحدق إلى الرابية المظلمة بالخارج. لبضع دقائق، وقف يراقب باهتمام، ثم أصدر همهمة عميقة وأطفأ الضوء بنفاد صبر. شققتُ طريقي عائدًا إلى غرفتي على الفور، وسرعان ما مرت الخطوات المتسللة عائدةً طريقها مرة أخرى. بعد ذلك بوقت طويل، عندما أخذني نوم خفيف، سمعت مفتاحًا يدور في قفل ما، لكنني لم أستطع معرفة مصدر الصوت. لم أفهم معنى كل هذا، لكن ثمة أمر خفي يدور في هذا القصر الكئيب وسوف نسبر غوره عاجلًا أم آجلًا. لا أريد إزعاجك بنظرياتي لأنك طلبت مني أن أزودك بالحقائق وحسب. لقد أجريت حديثًا طويلًا مع السير هنري صباح اليوم، ووضعنا خطة تستند إلى مشاهداتي ليلة أمس. لن أحدِّثك عنها الآن، لكنها ستجعل قراءة تقريري التالي شيقة دون أدنى شك.

دُمية رمزية تُصنع على شكل شخصية تكرهها العامة ويشعلون فيها النار احتجاجًا.

الفصل التاسع

التقرير الثاني للدكتور واتسون

الضوء على الرابية

قصر باسكرفيل- 15 من أكتوبر

عزيزي هولمز:

إن اضطررت إلى تركك دون الكثير من الأخبار خلال الأيام الأولى من مهمتي، فلا بد أن تعترف بأنني عوَّضتك عن الوقت الضائع؛ فقد صارت الأحداث الآن تُزاحمنا بغزارة وسرعة. انتهيت في تقريري الفائت بما رأيته من تسلُّل باريمور إلى النافذة، لكنَّ المعلومات التي سأخبرك بها في هذا التقرير ستكون كفيلة بإدهاشك، ما لم أكن مخطئًا. لقد اتخذت الأمور منحًى ما كنتُ أتوقعه. وصارت في الثماني والأربعين ساعة الفائتة أشد وضوحًا وتعقيدًا في آنٍ واحد. سأخبرك بكل شيء ولك أن تحكُم بنفسك.

في الصباح الذي تلا مغامرتي، هبطت إلى الرواق قبل الفطور وعاينتُ الغرفة التي رأيتُ باريمور فيها. لاحظتُ أن النافذة الغربية التي رأيتُه يحدِّق من خلالها بانتباهٍ شديد تتمتع بخاصية تميِّزها عن جميع نوافذ المنزل الأخرى؛ وهي أن موضعها هو الأقرب إلى الرابية. فثمَّة فتحة بين شجرتين تُمكِّن المرء من النظر إلى الرابية مباشرةً، في حين أن بقية النوافذ لا تُقدم سوى لمحة نائية. وما دامت تلك النافذة هي الوحيدة التي تخدم هذا الغرض، فلا بد أن باريمور كان يبحث عن شيءٍ أو أحدٍ ما على الرابية. كانت ظُلمة الليل حالكة إلى الحد الذي يصعب معه تخيُّل كيف أمل أن يرى أي أحد. خطرت لي احتمالية انخراطه في علاقة حب سرية، والتي من شأنها أن تبرر تصرفاته المختلسة وكذا قلق زوجته. فباريمور حسن الطلعة، وأهلٌ لسرقة قلب إحدى فتيات القرية، لذا بدا أن لهذه النظرية ما يُسوغها. أما بخصوص صوت فتح الباب الذي سمعته بعد عودتي لغرفتي، فلربما يعني أنه خرج لكي يلحق بموعده السري. لذا أمعنتُ التفكير في الصباح، وأردتُ إخبارك بِوجهة شكوكي، حتى وإن أثبتت النتيجة بُطلانها.

لكن مهما كان التفسير الحقيقي لتصرفات باريمور، فلم أستطع تحمُّل مسؤولية الاحتفاظ بها لنفسي. فالتقيت بالبارون في مكتبه بعد الفطور وأخبرته بكلِّ ما رأيت. وقد كانت دهشته أقل مما توقعت.

قال: «إنني على دراية بتجوُّل باريمور الليلي، وقد كنتُ أنوي التحدث إليه بشأنه. لقد سمعتُ وقع خطواته في الممر مرتين أو ثلاثًا، يجيء ويذهب، في الساعة التي ذكرتها تقريبًا».

قلتُ: «يبدو أنه يزور تلك النافذة بالتحديد كل ليلة».

– ربما يفعل. وفي هذه الحالة، يمكننا مراقبته ومعرفة ما يسعى إليه. تُرى ماذا كان صديقك هولمز ليفعل لو كان هنا.

أجبتُ: «أظنه كان ليفعل ما اقترحته لتوك بالضبط. كان ليتبع باريمور ليرى ما يفعله».

- إذن لنتبعه معًا.

- لكنه سيسمعنا لا محالة.

- الرجل أصم بدرجة ما، وعلينا أن نجرب حظنا على أي حال. سنبقى مُتيقظين في غرفتي الليلة وننتظر حتى يمر.

ثم فرك السير هنري يديه باستمتاع، وبدا أنه يرحب بالمغامرة، على أنها التغيير الذي سيكسر شوكة الملل على الرابية.

تواصل البارون مؤخرًا مع المعماري الذي وضع المخططات الهندسية للسير تشارلز، ومع أحد مُقاولي لندن، ونتوقع حدوث تغييرات كُبرى في هذا القصر عمَّا قريب. وقد وصل نقَّاشون ومؤثثون من مدينة بليموث، وواضح أن صاحبنا لديه خطط كبيرة، وينوي ألا يدخر جهدًا ولا مالًا في سبيل استعادة مجد عائلته. وما أن ينتهي من ترميم القصر وتجديده، لن تنقصه سوى عروس كي يصير كاملًا. ودعني أخبرك بأن لديَّ ما يكفي من الأدلة لاعتقاد أن هذه العروس هي الآنسة ستابلتون، فلم أرَ قط رجلًا أكثر افتتانًا بامرأة من السير هنري بجارتنا الجميلة. بيد أن درب الحب الحقيقي ليس ممهدًا كما قد يتصور المرء. فاليوم، على سبيل المثال، تصدَّع سطحه بفعل حادث غير متوقع بالمرة، ما ترك صاحبنا في ارتباكٍ وضيقٍ شديدين.

بعد محادثتنا التي ذكرتُها آنفًا عن باريمور، اعتمر السير هنري قبعته مستعدًا للخروج. وحذوت حذوه كدأبي المعتاد.

سألني وهو ينظر إليَّ باستغراب: «ماذا؟ أقادمٌ أنت معي يا واتسون؟»

أجبتُ: «هذا يعتمد على ما إن كنت تنوي الذهاب إلى الرابية».

- نعم، هذا ما أنويه.

- حسنٌ، أنت تعرف ما لدي من تعليمات. اعذرني على التطفُّل، لكنك سمعت كم أصرَّ هولمز بجدية ألا أتركك بمفردك، ولا سيما إن كنت ذاهبًا إلى الرابية.

وضع السير هنري يده على كتفي بابتسامة دمثة، وقال:

- يا رفيقي العزيز، إن هولمز بكل ما أوتي من حكمة، لم يتوقع بعض الأمور التي حدثت منذ جئنا إلى الرابية. أتفهمني؟ أنا واثق من أنك آخر رجلٍ في العالم يريد أن يُنغِّص عليَّ فرحتي. لا بد من الذهاب وحدي.

وضعتني هذه الكلمات في موقف حرج. لم أدرِ ما ينبغي قوله أو فعله، وقبل أن أحسم قراري كان قد التقط عصاه وانصرف.

لكنني حين قلَّبت المسألة في رأسي، أنَّبني ضميري بشدة لسماحي له بأن يبتعد عن ناظريَّ تحت أي ذريعة. تخيَّلتُ شعوري إن عدتُ إليك وقد وقعت مصيبة بسبب إهمالي لتعليماتك. أقسم أن وجنتيَّ توردتا خجلًا من الفكرة وحدها. ولم يكن الأوان قد فات تمامًا بعد على اللحاق به، فانطلقتُ من فوري باتجاه منزل ميريبت.

هرعت على طول الطريق بأقصى سرعة دون أن أرى أثرًا للسير هنري، حتى وصلت إلى النقطة التي يتشعب عندها ممر الرابية. وهناك خشيت أنني ربما قد سرتُ في الاتجاه الخطأ، فصعدتُ فوق تلٍّ لألقى نظرة عامة على المكان – التل نفسه الذي يُستخدم محجرًا. حينها رأيته في الحال. كان على ممر الرابية، يبعد عني نحو ربع ميل، وبجواره امرأة لا يمكن أن تكون سوى الآنسة ستابلتون. بدا جليًّا أن ثمة اتفاقًا قائمًا بينه وبينها، وأنهما التقيا وفق موعد ضرباه. كانا يسيران على مهلٍ وقد انخرطا في محادثة عميقة، ورأيتُ الفتاة تُحرك يديها حركات صغيرة وسريعة تنمُّ عن جدية شديدة فيما تقول، بينما أنصت هو بانتباه، وهز رأسه مرة أو مرتين باعتراضٍ بالغ. وقفتُ بين الأحجار أراقبهما، وقد اعترتني حيرة شديدة فيما ينبغي لي فعله تاليًا. بدا تتبُّعهما واقتحام محادثتهما الحميمة انتهاكًا شائنًا، بيد أن واجبي الواضح كان ألا أدعه يغيب عن نظري ولو للحظة. كان التجسس على أحد أصدقائي مهمة مقيتة. لكنني لم أرَ سبيلًا أفضل من مراقبته من موقعي فوق التل، وأن أريح ضميري بالاعتراف له لاحقًا بما فعلت. صحيحٌ أنه لو تهدَّده خطرٌ مفاجئ لن يسعني تقديم عونٍ كبير بسبب بُعد المسافة التي تفصلنا، لكنني واثق أنك تتفق معي في أن موقفي كان صعبًا، وأنني استنفدتُ كل الحيل.

توقف صاحبنا السير هنري والفتاة على الممر وانخرطا بعُمقٍ في محادثتهما، عندما أدركتُ فجأة أنِّي لستُ وحدي الشاهد على هذا اللقاء. لفت انتباهي شيء أخضر يطفو في الهواء، وبنظرة أخرى أدركتُ أنها مصيدة فراشات يحملها رجلٌ، ويسير على التربة المتكسِّرة. كان هذا ستابلتون، الذي كان أشدَّ قُربًا إلى الثُنائي مني، وبدا لي أنه يتقدَّم باتجاههما. وفي اللحظة ذاتها جذب السير هنري الآنسة ستابلتون فجأة وطوَّقها بذراعه. لكنني رأيتُها تُقاوم مُبتعدة عنه وتشيح بوجهها. أَمَالَ رأسه باتجاهها، فرفعت يدها في اعتراض. وفي اللحظة التالية رأيتهما ينفصلان ويستديران بسرعة. كان ستابلتون هو من قاطعهما. فقد أخذ يركض بجموح نحوهما، وقد تدلَّت مصيدته السخيفة خلفه. ثم راح يُصدر إيماءات أشبه برقصٍ منفعل أمام الحبيبين. لم أفهم ما عناه المشهد، ولكن بدا لي أن ستابلتون يسب السير هنري، الذي حاول أن يُقدِّم تفسيراته، ثم اشتد غضبه حينما رفض الآخر قبولها. أما الفتاة فقد وقفت دون حراك بصمتٍ متكبر. وأخيرًا استدار ستابلتون على عقبيه وأشار إلى أختِه بحسمٍ أن تتبعه، فألقت الأخيرة نظرة مترددة على السير هنري، ثم سارت إلى جانب أخيها مبتعدة. أظهرت إيماءات عالِم الطبيعة الغاضبة أن استياءه يشمل أخته كذلك. ووقف البارون هُنيهة يراقبهما، ثم عاد أدراجه ببطء في الاتجاه الذي جاء منه برأسٍ منكَّسٍ غمًّا.

لم أستطع تخيُّل معنى لكلِّ هذا، ولكن لشد ما شعرتُ من خزيٍ لرؤيتي مثل هذا المشهد العاطفي من دون علم صديقي. ومن ثم سارعتُ بهبوط التل، لألتقي بالبارون عند سفحه. كان وجهه يتقد حنقًا وحاجباه مقطَّبين، كما يجدُر بإنسانٍ بلغ من الإحباط هذا المبلغ.

قال: «على رسلك يا واتسون! من أين هبطت؟ لا تقُل إنك تبعتني رغم كل شيء؟»

شرحتُ له ما حدث؛ كيف تعذَّر عليَّ أن أتركه يذهب وحده، كيف تبعته، وكيف شهدتُ كل ما جرى. وللحظة رمقني بعينين متأججتين غضبًا، لكن صراحتي جرَّدته من غضبه، ثم انفجر أخيرًا في ضحكٍ مرير.

– إن المرءَ ليظن خطأً أَنَّ ثمَّة مكانًا آمنًا قليلًا بين هذه البراري، ليتمتع فيه بخصوصيته. ولكن ربَّاه! كأن الريف كله قد رآني أتغزل – وأي غزلٍ بائس هذا؟! أين حجزت مقعدك؟

– كنت على ذاك التلِّ.

– في الصف الخلفي إذن، هه؟ أما أخوها فلم يرضَ بغير المقدمة. هل رأيته حين داهمنا؟

– نعم، رأيته.

– هل سبق وشعرت أن أخاها هذا مجنون؟

– لا أظن ذلك.

– أراهن أنك لم تفعل. فلطالما ظننته عاقلًا بما يكفي حتى هذا اليوم، لكن صدقني، لا بد لأحدنا –إما أنا وإما هو– أن يُقيَّد بداخل سُترة المجانين. ماذا يعيبني على أي حال؟ لقد عشتَ بقُربي بضعة أسابيع يا واتسون. أصدقني القول الآن! هل ثمة ما يمنعني من أن أكون زوجًا جيدًا لامرأة أحببتها؟

– قطعًا لا.

– مُحال أن يكون اعتراضه على مستواي المعيشي، ومن ثم فلا بد أن رفضه إنما هو لشخصي. ماذا لديه ضدي؟ لم أؤذِ رجلًا أو امرأة في حياتي قط. لكنه مع ذلك لا يدعني أَمَسُّ ولو أطراف أصابعها.

– هل هذا ما قاله؟

– هذا وأكثر. صدقني يا واتسون إنني لم أكن أعرفها قبل هذه الأسابيع القليلة، غير أني شعرتُ منذ اللحظة الأولى بأنها خُلِقت لأجلي، وهي أيضًا؛ أقسم إنها كانت سعيدة بصُحبتي. ثمَّة ضوءٌ في عينيِّ المرأة يعلو صوته على جميع الكلمات. لكنه لا يدعنا أبدًا نلتقي، ولم أجد الفرصة قبل اليوم كيما أتبادل معها بضع كلمات بمفردنا لأول مرة. وقد سعدَت بلقائي، ولكن لم يكن حُبَّنا هو ما أرادت الحديث عنه، وما كانت لتدعني أتحدث عنه أيضًا لو استطاعت منعي. بل ظلَّت تكرر أن هذا المكان خطرٌ عليَّ، وأنه لن يهدأ لها بال حتى أغادر. فأخبرتُها أني مُذ رأيتها لم أعد أتعجَّل المغادرة، وأنها إن أرادتني حقًّا أن أوافق على الرحيل، فعليها أن ترحل معي. ثم ترجيتُها أن تقبل الزواج مني، لكن قبل أن تستطيع الإجابة أتانا أخوها هذا ركضًا كالمخبول. كان وجهه ممتقعًا من شدة الغضب، وعيناه تقدحان شررًا. ما الذي أفعله مع الفتاة؟ وكيف أجرؤ على إبداء مشاعري لها دون قبولٍ منها؟ أظننتُ أنِّي أستطيع فعل ما يحلو لي لأنني بارون؟ لو لم يكُن هذا الرجل أخاها، لاستطعت الرد عليه. أما والحال هكذا، فقد أخبرته بأني لا أخجل من مشاعري تجاه أخته، وأن أملي هو أن أزداد شرفًا باتخاذها زوجة. لكن بدا أن ما قُلته قد زاد الطين بِلَّة، ففقدتُ أعصابي أنا الآخر، ورددتُ عليه بفظاظة أكبر مما كان ينبغي على الأرجح، باعتبار أنها كانت هناك وسمعتني. ثم انتهى الأمر بانصرافه معها، مثلما رأيت، وها أنا أمامك قد غلبتني الحيرة، كما يجدُر بأي رجلٍ في مكاني. هلا أخبرتني بما يعنيه هذا كله يا واتسون، وسأكون مدينًا لك بكل ما قد أملكه يومًا.

حاولت تقديم تفسير أو اثنين، لكنَّ الواقع أني كنت شخصيًّا محتارًا. إن رُتبة صاحبنا وثروته وسنه وشخصيته ومظهره كلها تصبُّ في صالحه، ولا أملك ضده سوى المصير القاتم المتوارث في أسرته جيلًا بعد جيل. أما أن ترفض مبادراته بهذه الفظاظة دون إشارة إلى رغبة الفتاة، وكذا أن تتقبَّل الفتاة

الوضع دون احتجاج، فهذا أمر في غاية الغرابة. حتى أزالت شكوكنا زيارة من ستابلتون نفسه في ظهيرة ذلك اليوم. فقد أتى ليقدم اعتذارًا عن تصرُّفه الهمجيِّ في الصباح، وبعد لقاءٍ مطول مع السير هنري على انفراد في مكتبه، انتهيا إلى أن الخلافات قد اندملت تمامًا، وأنَّا سنذهب لتناول العشاء في منزل ميريبت الجمعة المقبلة دليلًا على ذلك.

قال السير هنري: «إنه لم يقِل جنونًا في نظري الآن. ليس بوسعي أن أنسى عينيه وهو يركض باتجاهي هذا الصباح، لكنني أقرُّ بأنه ما من رجلٍ يمكنه الاعتذار بالكياسة التي اعتذر بها».

– هل قدَّم أي تفسير لتصرُّفه؟

– قال بأن أخته هي كل حياته. هذا منطقي بما يكفي وأسعدني أن أجده يُقدِّرها. لقد كانا دومًا معًا، وبحسب كلامه، لم يكُن لديه صُحبة سواها قط، لذا فكرة فُقدانها روَّعته بشدة. قال إنه لم يكن يدري أنني أزداد تعلُّقًا بها، لكنه حينما رأى ذلك بعينيه، وأحسَّ أنها قد تُؤخذ بعيدًا عنه، أصابته صدمة قوية إلى الحد الذي لم يعِ معه ما يقوله أو يفعله. اعتذر بشدة عن كل ما بدر منه، وأقر بحماقته وأنانيته التي صوَّرت له أن باستطاعته امتلاك امرأة جميلة كأخته طوال العمر. وما دامت ستتركه، فجارٌ مثلي سيكون أجدر بها من أي أحدٍ آخر. لكنها ضربة قاصمة له على أي حال، وسيحتاج لبعض الوقت لكي يؤهل نفسه لتلقِّيها. وإنه من جهته مستعد لسحب كل معارضته، إن وعدته بتنحية المسألة لثلاثة أشهر، وأن أرضى بألا يجمعني بالسيدة أخته في تلك المدة سوى الصداقة لا الحب. فأعطيته كلمتي وانتهت المسألة.

إذن ها قد حُلَّ أحد ألغازنا الصغيرة، ووضعنا أقدامنا على قاعٍ صُلب في هذا المستنقع الذي نتخبَّط فيه. فقد علمنا الآن لمَ رفض ستابلتون خاطب أخته، مع ما يتمتع به السير هنري من جدارة. أما الآن فدعني أنتقل إلى خيطٍ آخر حررته من تلك الشِلَّة المُتشابكة، وهو لغز البكاء الذي يُسمع ليلًا، ووجه السيدة باريمور المترقرق بالدموع، ورحلة باريمور السرية إلى النافذة الغربية المشبكة. هنئني يا عزيزي هولمز، وأخبرني بأن ظنَّك لم يخِب فيَّ، وأنك لست نادمًا على ثقتك وتفويضك لي. فكل هذه الألغاز قد حُلَّت كُليًّا في ليلة عمل واحدة.

قلتُ «إنها ليلة عمل واحدة» لكنها كانت في الواقع ليلتين.

لكنها كانت في الواقع ليلتين، فقد عُدنا في الأولى بخفيِّ حُنين. ظللت مُتيقظًا مع السير هنري في غرفته حتى الثالثة صباحًا تقريبًا، لكننا لم نسمع صوتًا من أي نوع عدا دقات الساعة على الدَّرج. كانت سهرة شديدة الكآبة وانتهت بسقوطنا نائمين على مقاعدنا. بيد أننا ولحُسن الحظ لم نُحبَط وعزمنا على المحاولة مرة أخرى. في الليلة التالية خففنا ضوء المصباح وجلسنا ندخِّن دون أن نُصدر صوتًا. مرَّت الساعات ببطءٍ لا يُصدَّق، وإن ساعدنا على تخطِّيها الحماس الصبور الذي يشعر به الصيَّاد حين يراقب الفخَّ منتظرًا سقوط طريدته. دقَّت الساعة مُعلنة مرور ساعة، ثم دقَّت ثانيةً، وكدنا نستسلم لليأس مرة أخرى، عندما انتصبنا في مقاعدنا فجأة وقد تيقَّظت حواسنا المُنهكة من جديد. لقد سمعنا صرير وقع خطوات في الممر.

سمعناها وهي تمر خِلسةً حتى تلاشى صوتها بعيدًا. ثم فتح البارون بابه برفق وبدأنا المطاردة. كان رجلنا قد انعطف في الرواق، والممر أمامنا غارقٌ في الظلام. تسللنا قُدُمًا بخفة حتى نفذنا إلى الجناح الآخر. وقد وصلنا في الوقت المناسب تمامًا لنلمح هيئة الرجل الطويلة بلحيته السوداء وكتفيه المستديرتين، وهو يسير على أطراف أصابعه في الرواق. اجتاز الباب نفسه مثلما فعل في المرة السابقة، وأطَّر ضوء الشمعة مربع الباب في الظلام مُرسلًا شعاعًا أصفر إلى عتمة الممر. تقدمنا نحوه بحرص، مُجرِّبين كُلَّ لوح خشبي قبل أن نجرؤ على وضع وزننا فوقه. كنا قد أخذنا حذرنا وتركنا أحذيتنا في الغرفة، ومع ذلك ظلت الألواح الخشبية القديمة تصر وتطقطق تحت أقدامنا. بل وبدا أحيانًا أن من المستحيل ألا يسمعنا. لحسن حظنا أن الرجل أصمّ إلى حدٍ ما، وأنه كان منغمسًا بكليته في ذاك الذي يفعله. عندما بلغنا الباب أخيرًا واسترقنا النظر من خلاله وجدناه جاثمًا عند النافذة والشمعة في يده، وقد أسند وجهه الأبيض العازم على اللوح الزجاجي، تمامًا مثلما رأيته قبل ليلتين.

لم نكن قد أعددنا خطَّة محددة للمباغتة، لكن البارون يرى أن الأسلوب المباشر هو دومًا الأكثر منطقية. لم يكد يدخل الغرفة حتى هبَّ باريمور واقفًا مصدرًا صفيرًا حادًّا، واستدار نحونا شاحبًا ومرتعدًا. أخذ ينقل بصره بيننا بعينيه الداكنتين ووجهه الأبيض الذي امتلأ رعبًا ودهشة.

– ماذا تفعل هنا يا باريمور؟

– لا شيء يا سيدي.

كان مضطربًا لدرجة لم يستطع معها الحديث بسهولة، وأخذت الظلال تتقافز لأعلى وأسفل مع اهتزاز شمعته.

– إنها النافذة يا سيدي. إنني أمر على النوافذ ليلًا لأتأكد أنها مؤصدة.

– في الطابق الثاني؟

– نعم يا سيدي، كل النوافذ.

قال السير هنري بصرامة: «اسمع يا باريمور، لقد عزمنا أمرنا على انتزاع الحقيقة منك عاجلًا أم آجلًا، فوفِّر على نفسك المشقة بإخبارنا بها الآن. هيا! لا تكذب! ماذا كنت تفعل عند تلك النافذة؟»

رمقنا الرجل بيأس، واعتصر يديه كمن بلغ أقصى حدود الارتياب والبؤس، ثم قال:

– لم أؤذِ أحدًا يا سيدي. كنت أحمل شمعة أمام النافذة.

– ولماذا كنت تحمل شمعة أمام النافذة؟

– لا تسألني يا سيدي – لا تسألني! أقسم لك يا سيدي إنه ليس سرِّي أنا، ولذلك لا يسعني إفشاؤه. لو لم يكن يخص أحدًا سواي لما حاولت إخفاءه عنك.

خطرت لي فكرة مفاجئة، فأخذت الشمعة من يدِ الخادم المرتجفة.

قلت: «لا بد أنه كان يحملها لإرسال إشارة ما. لنرَ إن كان قد ردَّ عليه أحدهم» وحملتُ الشمعة مثلما حملها وحدَّقتُ إلى ظلام الليل بالخارج. كانت الغيوم تغطي ضوء القمر، وبالكاد استطعتُ تمييز صف

الأشجار الداكن، والامتداد الأقل سوادًا للرابية. ثم أطلقت صيحة فرح، فقد اخترقت حجب الظلام فجأة نقطة ضوء أصفر توهَّجت بثبات في مركز مربع النافذة الأسود.

صحت: «ها هي ذي!».

قال الخادم بجزع: «لا، لا يا سيدي، إنها لا شيء. لا شيء على الإطلاق! صدِّقني يا سيدي».

صاح البارون: «حرِّك الشمعة أمام النافذة يا واتسون! أترى، ها هو الآخر يتحرك بدوره! والآن أيها الوغد، أما زلت تنكر أنها إشارة؟ هيا، تكلَّم! مَنْ حليفك الذي في الخارج، وما المكيدة التي تدبرانها؟».

حدق إليه الرجل بتحدٍ صريح وقال: «إنه شأني أنا، ولا يخصك بحال. لن أقول شيئًا».

– إذن فلتترك عملك في الحال.

– حسنًا يا سيدي. ليكن ذلك.

– وستغادر مُلطَّخًا بالعار أيضًا. يا إلهي! حريٌ بك أن تخجل من نفسك. لقد عاشت عائلتك معنا تحت هذا السقف لأكثر من مئة عام، وهأنذا أجدك متورطًا حتى الأعماق في مؤامرة شريرة ضدي.

– لا، لا يا سيدي؛ لا، ليست ضدك!

كان هذا صوت امرأة، فاستدرنا لنجد السيدة باريمور واقفة عند الباب بوجهٍ أكثر شحوبًا وأشد هلعًا من زوجها. كانت هيئتها الضخمة بوشاحها وتنورتها لتبدو هزلية لولا حدة المشاعر البادية على وجهها.

قال الخادم: «علينا أن نذهب يا إليزا. لقد انتهت خدمتنا هنا. يمكنك حزم أغراضك».

– أوه، جون، جون، هل أنا من وضعك في هذا الموقف؟ إنه خطئي أيها السير هنري. خطئي وحدي. لم يفعل باريمور شيئًا إلا لأجلي ولأنني طلبت منه.

– تكلَّمي إذن! ما الذي يعنيه كل هذا؟

– إن أخي البائس يتضوَّر جوعًا على الرابية. لم نستطع أن نتركه يهلك على عتبة أبوابنا. ما هذا الضوء إلا إشارة له بأن الطعام جاهز، فيجيبنا هو عليه بإشارته ليُبيِّن لنا موقعه كي نرسل الطعام إليه.

– إذن أخوكِ هو؟

– السجين الهارب يا سيدي، سيلدن المجرم.

قال باريمور: «هذه هي الحقيقة يا سيدي. قلتُ لك إنه ليس سرًّا يخصُّني، وإني لا أستطيع إفشاءه. ولكنك الآن سمعته، وصرت تعلم أنه لو كانت هناك مؤامرة، فهي ليست ضدك».

هذا إذن تفسير الرحلات الليلة المختلسة والضوء عند النافذة. حدَّقنا أنا والسير هنري إلى السيدة بذهول. هل يُعقل أن هذه المرأة المحترمة الصارمة تربطها صلة قرابة بأحد أخطر المجرمين في البلاد؟

– نعم يا سيدي، لقب عائلتي هو سيلدن، وهذا هو أخي الصغير. لطالما دللناه في نشأته، ولبَّينا له جميع مطالبه حتى صار يظن العالم قد خُلِق لإرضائه، وأن بإمكانه أن يفعل فيه ما يحلو له. ثم كَبُرَ والتقى بأصدقاء السوء، واتبع سبل الشيطان حتى فطر قلب أمي ولطَّخ سمعتنا في الوحل. مضى يرتكب الجريمة تلو الأخرى ويغوص أعمق وأبعد، حتى أنقذته رحمة الرب من حبل المشنقة. لكن كان ولم يزل عندي الصبي الصغير ذو الشعر المجعد الذي طالما اعتنيت به ولعبت معه كأي أختٍ كبرى،

ولهذا السبب فرَّ من السجن يا سيدي. إنه يعلم بأنِّي هنا وأننا لن نرفض مساعدته. ماذا كان عسانا نفعل حينما أتانا يجرُّ ساقيه، منهكًا وجائعًا، والحُرَّاس في أثره؟ لقد أويناه وأطعمناه واعتنينا به. ثم عُدت أنت يا سيدي، فخطر لأخي أن الأسلم أن ينتقل إلى الرابية حتى تهدأ مطاردة الشرطة له ويخفُّ الضجيج، لذا انزوى متواريًا عن الأنظار هناك. لكننا نتأكد كل ليلتين من أنه لا يزال هناك يحمل الضوء عند النافذة، وإذا أتتنا الإجابة يذهب زوجي إليه ببعض الخبز واللحم. كنا نأمل كل يوم أن نجده قد رحل، لكنه ما دام هناك لن نستطيع التخلِّي عنه. تلك هي الحقيقة الكاملة، فأنا امرأة مسيحية صادقة. أما أنت فقد صرت تعرف أن أي لومٍ في المسألة لا يقع على زوجي، بل عليَّ أنا، وهو إنما فعل كل هذا لأجلي.

خرجت كلمات السيدة محمَّلة بالجدية والثقة.

–هل هذا صحيح يا باريمور؟

–نعم أيها السير هنري. كل كلمة منه.

– حسنٌ، لا أستطيع لومك على الوقوف بجانب زوجتك. انسَ ما قُلتُه. اذهبا إلى غرفتكما، وسوف نُكمل حديثنا في الصباح.

عندما انصرفا اتجهنا إلى النافذة وألقينا نظرة منها مجددًا. فقد فتحها السير هنري على مصراعيها فضربت رياح الليل الباردة وجوهنا. ورأينا على مسافة بعيدة في الظلام تلك النقطة الصغيرة من الضوء الأصفر لا تزال تومض.

قال السير هنري: «إنني لأتعجَّب من جرأته».

– ربما يعلم بأن إشارته لا تظهر إلا من هذه النافذة.

– وارد جدًّا. كم تبعد في رأيك؟

– أحسبها قريبة من هضبة كليفت.

– لا تبعد أكثر من ميل أو ميلين إذن.

– نعم، على الأقل.

– حسنٌ، لا يمكن أن تكون بعيدة ما دام باريمور يذهب إليها بالطعام سرًا. يا للوغد! إنه ينتظر بجانب الشمعة. ربَّاه يا واتسون، سأذهب لأقبض على ذاك الرجل!

كانت الفكرة ذاتها تراودني. فالأمر ليس كما لو أن آل باريمور قد وضعا ثقتهما فينا، بل إن سرَّهما انتُزع منهما انتزاعًا. إن هذا الرجل يشكِّل خطرًا على المجتمع. إنه مجرمٌ حقيقي لا عُذر له ولا يستحق الشفقة. إننا إنما نؤدي واجبنا إذ ننتهز الفرصة لإعادته إلى المكان الذي لن يؤذي فيه أحدًا. لئن لم نفعل، فسوف يدفع آخرون ثمن طبيعته الهمجية العنيفة. هذا المجرم قد يهاجم آل ستابلتون في أي ليلة، وربما كانت تلك هي الفكرة التي جعلت السير هنري حريصًا على خوض هذه المغامرة.

قلتُ له: «سآتي معك».

– إذن فأحضر مسدسك وضع حذاءك الطويل. كلما بكَّرنا في الذهاب كان أفضل، فقد يُطفِئ الرجل ضوءه ويرحل.

بعد خمس دقائق كنا خارج المنزل، شارعين في رحلتنا الاستكشافية. انطلقنا بسرعة عبر الشجيرات الداكنة، وسط الصرير الخافت لرياح الخريف وحفيف أوراق الشجر المتساقطة. كان هواء الليل ثقيلًا ويعبق برائحة الرطوبة والعفن. ومن حين لآخر كان القمر يبزغ للحظة ثم تغطي الغيوم وجه السماء ثانيةً. وما أن وصلنا إلى الرابية حتى بدأ رذاذ المطر يهطل. أما الضوء فكان لا يزال يومض ثابتًا أمامنا.

سألتُه: «هل معك أسلحة؟»

– معي سوط الصيد.

– علينا أن نغلق عليه طريق الهروب بأقصى سرعة، فقد سمعت أنه رجلٌ خطير. لا بد أن نباغته ونضعه تحت رحمتنا قبل أن يفكر في المقاومة.

قال البارون: «معك حق يا واتسون. ولكن ماذا كان هولمز ليقول لو رآنا الآن؟ ماذا عن تلك الساعة المظلمة التي تتصاعد فيها قوى الشر؟».

وما لبثت الإجابة أن جاءته فجأة من عتمة الرابية الشاسعة في صورة صرخة عجيبة، صرخة سمعتها من قبل على حافة مستنقع جريمبن. فقد حملت لنا الرياح في سكون الليل صوتَ أنينٍ عميق، تصاعد في هديرٍ مدوٍّ، ثم انخفض إلى أنينٍ حزين أخذ يخفت تدريجيًّا. أخذ الصوت يتكرر مرارًا، وصار الهواء كله ينبض به، حادًّا، جامحًا، مهددًا. قبض البارون على كمي ورأيت شحوب وجهه في الظلام.

– يا للهول! ما هذا يا واتسون؟

– لا أعلم. إنه صوتٌ يتكرر على الرابية. لقد سمعته من قبل.

ثم تلاشى الصوت ولفَّنا صمتٌ مطبق. وقفنا نرهف السمع لكن دون أثرٍ للصوت.

قال البارون: «إنه عواء كلبٍ يا واتسون».

تجمد الدم في عروقي، فقد انكسر صوته واشيًا برعبٍ مفاجئ استبدَّ به.

ثم سأل: «ماذا يقولون عن هذا الصوت؟».

– من؟

– أهل الريف.

– أوه، إنهم أناسٌ جهلة. لمَ تهتم بما يقولون؟

– أخبرني يا واتسون. ما رأيهم فيه؟

ترددتُ، لكنني لم أستطع الهرب من السؤال.

– يقولون إنه عواء كلب آل باسكرفيل.

تأوه السير هنري واكتنفه الصمت للحظة.

ثم قال أخيرًا: «كان كلبًا إذن، لكنني أظنه يبعد أميالًا عدة في هذا الاتجاه».

– يصعب تحديد الاتجاه الذي جاء منه.

– لقد ظهر وتلاشى مع اتجاه الرياح. أليس هذا اتجاه مستنقع جريمبن.

– بلى، إنه هو.

– حسنٌ، لقد أتى من هناك. اعترف يا واتسون، ألا تظنه أنت أيضًا عواء كلب؟ أنا لستُ طفلًا. فلا تخشى أن تُحدِّثني بالحقيقة.

– لقد كان ستابلتون معي حينما سمعته في المرة السابقة. وقال إنه قد يكون نداء طائرٍ غريب.

– لا، لا، لقد كان كلبًا. ربَّاه، هل ثمَّة حقيقة في أيٍ من هذه القصص؟ أيُعقل أن شيئًا مُظلمًا كهذا يهددني؟ هل تصدق هذا الكلام يا واتسون؟

– لا، لا.

– ومع ذلك، فإن السخرية من الأمر في لندن شيء، والوقوف هنا في ظُلمة الرابية وسماع هذا العواء شيءٌ مختلف تمامًا. وعمِّي! كانت آثار أقدام الكلب بجانب جثته. إن الأدلة كلها تجتمع على الشيء ذاته. لا أحسبُني جبانًا يا واتسون، لكن يبدو أن هذا الصوت جمَّد الدم في عروقي. تحسس يدي!

كانت باردة كقطعة رخام.

– ستصبح على ما يُرام غدًا.

– لا أعتقد أني سأقدر على إخراج هذا العواء من رأسي. ماذا تقترح أن نفعل الآن؟

– هل نعود أدراجنا؟

– قطعًا لا! لقد خرجنا لنقبض على الرجل، وسوف نفعل. نحن نطارد مُجرمًا وكلب الجحيم على الأرجح يطاردنا. هيَّا! سنكمل مهمتنا ولو أُطلِقت شياطين الجحيم كلها على الرابية.

تقدَّمنا ببطءٍ متعثرين في الظلام، وقد أحاطت بنا التلال الوعرة الداكنة من كل اتجاه، ونقطة الضوء ما زالت تلمع بثبات في الأمام. لا شيء مضلل أكثر من المسافة التي تفصل بينك وبين ضوءٍ في ليلٍ حالك، فقد بدا الوميض أحيانًا بعيدًا جدًّا في الأفق، وفي أحيانٍ أخرى كنا نظنه على بعد بضع ياردات منَّا. لكننا في النهاية استطعنا رؤية مصدره، وأدركنا عندها أننا صرنا حقًّا قريبين جدًّا. كانت الشمعة الذائبة مثبَّتة بين تجاويف الصخور، التي أحاطت بها من الجانبين لحمايتها من الرياح، وأيضًا لتخفيها من كل الجهات عدا جهة قصر باسكرفيل. استترنا بجلمود من الجرانيت وجثونا وراءه، ثم نظرنا من فوقه باتجاه الإشارة الضوئية. كان غريبًا أن نرى تلك الشمعة الوحيدة تحترق هناك وسط الرابية، دون أي علامة على وجود مخلوق بالقرب منها – فقط الشعلة الصفراء الثابتة، وانعكاس ضوئها على الصخور المحيطة.

همس السير هنري: «ماذا نفعل الآن؟»

– ننتظر هنا. لا بد أنه قريب من شمعته. لنرَ إن كان باستطاعتنا إلقاء نظرة عليه.

لم تكد الكلمات تخرج من فمي حتى رأيناه. عند الصخور، وفي التجويف الذي كانت تحترق فيه الشمعة، اندفع وجهٌ أصفر شرير، وجهٌ حيواني بشع، مليء بندوب وخدوش جرائمه الوضيعة. كان ملطخًا بالوحل، بلحية شعثاء، وشعرٍ متلبِّد وأشبه بواحدٍ من تلك الوحوش القديمة التي عاشت في

جحور سفوح التلال. انعكس الضوء على عينيه الصغيرتين الماكرتين، اللتين كانتا تنظران بحذر يمينًا ويسارًا في الظلام، كحيوانٍ بري ماكر سمع وقع خطوات صياديه.

لا بد أن شيئًا ما أثار شكوكه. ربما كان يُفترض بباريمور أن يُرسل إشارة خاصة لم نرسلها نحن، أو ربما كان لدى الرجل سببٌ آخر ليظن أن ثمَّة خطبًا ما، لكنني استطعت قراءة مخاوفه على وجهه الخبيث. وأدركتُ أنه على وشك إطفاء الشمعة والاحتجاب بالظلام. لذلك قمتُ فاندفعت نحوه، وتبِعني السير هنري. وفي اللحظة ذاتها صرخ المجرم لاعنًا إيانا، وألقى بصخرة ارتطمت بالنتوء الذي كنا نحتمي خلفه وتفتتت إلى شظايا. ألقيت نظرة خاطفة على هيئته القصيرة المقرفصة مفتولة العضلات قبل أن ينتصب واقفًا ويُطلق ساقيه للريح. في اللحظة ذاتها حالفنا الحظ حيثُ بزغ القمر من وراء الغيوم منيرًا لنا الرابية؛ فهرعنا إلى أعلى التل، وهناك رأينا رجلنا يركض بأقصى سرعته هابطًا إلى الناحية الأخرى، يقفز من صخرة لأخرى في طريقه برشاقة عنزة جبلية. ربما كان يمكن لتسديدة حظ من مسدسي أن تعيق حركته، لكنني أحضرت هذا المسدس للدفاع عن نفسي، لا لأقتل رجلًا أعزل يركض بعيدًا.

ورغم سرعتنا أنا والسير هنري ومهارتنا النسبية في الركض، سرعان ما أدركنا أن فرصة تغلُّبنا عليه معدومة. ظللنا نراه طويلًا في ضوء القمر حتى صار نقطة صغيرة تعدو سريعًا بين الصخور بجانب أحد التلال البعيدة. ركضنا وركضنا حتى الإعياء، لكن المسافة بيننا وبينه لم تنفك تتسع. في النهاية توقفنا وجلسنا نلتقط أنفاسنا فوق صخرتين، وراقبناه يختفي بعيدًا.

وفي تلك اللحظة حدث شيءٌ شديد الغرابة وغير متوقع بالمرة. كنا قد نهضنا عن صخرتينا وفي طريق عودتنا إلى القصر، بعد أن تخلَّينا عن المطاردة الميؤوس منها. كان القمر منخفضًا إلى يميننا، وانتصبت القمة المتعرجة للهضبة الجرانيتية فوق سفحها الدائري الفضي. وهناك فوق تلك الهضبة رأيتُ خيال رجلٍ واقف، وقد بدا كتمثال أبنوسي أسود أمام خلفية مضيئة. لا تتهمني بالتوهُّم يا هولمز. أؤكد لك أنِّي لم أرَ شيئًا أكثر وضوحًا من هذا قط. وحسبما رأيتُ، فقد كان الخيال لرجلٍ طويل ونحيل، يقف مباعدًا ساقيه قليلًا، عاقدًا ذراعيه ومطرقًا برأسه، كأنما يتأمل تلك البراري الشاسعة من الفحم والجرانيت المنبسطة أمامه. ربما هو روح ذلك المكان المروِّع مُتجسِّدة. لم يكن السجين الهارب. فهذا الرجل كان بعيدًا كل البعد عن المكان الذي اختفى فيه الأخير. وكان أطول قامة كذلك. صِحتُ في البارون كي ينظر إليه مشيرًا نحوه، لكن في اللحظة التي استدرت فيها لأمسك ذراعه كان الرجل قد اختفى. كانت القمة المتعرجة لا تزال تغطي الحافة السُّفلية للقمر، لكنها لم تعد تحمل أثرًا لذلك الخيال الصامت الثابت.

أردتُ أن أذهب في هذا الاتجاه وأفتِّش الهضبة، لكنها كانت بعيدة عنَّا قليلًا. وكانت أوصال البارون لا تزال ترتعد من ذاك العواء الذي ذكَّره بتاريخ أسرته القاتم، ولم يكن في مزاج يسمح بمغامرات جديدة. لم يرَ هذا الرجل الوحيد على الهضبة، ولم يشعر بتلك الإثارة التي منحني إياها حضوره الغريب ووقفته المُهيمنة.

قال: «إنه أحد الجنود دون شك. فالرابية تعجُّ بهم منذ هرب هذا الرجل».

حسنٌ، ربما يكون تفسيره هو الصحيح، لكن الدليل خير برهان. أما اليوم، فنحن ننوي إبلاغ شرطة برنستاون بمكان سجينهم الهارب، مع أننا لسوء الحظ لم نظفر بالقبض عليه بأنفسنا. تلك هي مغامرات الليلة الفائتة، وعليك أن تعترف يا عزيزي هولمز بأنني أبليت حسنًا في صياغتي التقرير. وإن كان كثيرًا مما أخبرك به ليس مهمًّا، فإنني أرى أنه من الأفضل أن أبلغك بالوقائع كلها وأدعك تنتقي بنفسك ما يخدمك منها في سبيلك إلى استنتاجاتك. إننا نحرز تقدمًا دون شك. فقد علمنا الدوافع وراء تصرفات الزوجين باريمور، ما وضَّح الوضع كثيرًا. لكن الرابية بأسرارها وساكنيها الغرباء تظل مبهمة كعادتها. علَّني أتمكن في تقريري التالي من تسليط بعض الضوء عليها كذلك. وإن كان الأفضل أن تأتينا بنفسك. على أي حال، ستسمع مني مجددًا خلال الأيام القليلة المقبلة.

الفصل العاشر

مقتطفات من مفكرة الدكتور واتسون

حتى هذه اللحظة، كنت أقتبس من التقارير التي أرسلتها إلى شيرلوك هولمز في الأيام الأولى. أما الآن فقد وصلت إلى نقطة في حكايتي سأضطر فيها إلى التخلي عن هذه الطريقة، والعودة إلى الوثوق في ذكرياتي مرة أخرى، إلى جانب مفكرتي التي دوَّنتُ فيها ملاحظاتي آنذاك. ستحملني بضعة مقتطفات من الأخيرة إلى تلك المشاهد المترسخة بكل تفاصيلها في ذاكرتي بدرجة يتعذَّر محوها. سأُكمل من الصباح الذي أعقب مطاردتنا الفاشلة للسجين الهارب، والملابسات الأخرى الغريبة التي جرت على الرابية.

16من أكتوبر – نهارٌ ضبابيٌّ ثقيل مغبَّش برذاذ المطر. كان المنزل محاطًا بالسحب المتسارعة، التي تنقشع بين الحين والآخر فتظهر منحنيات الرابية الموحشة، بعروقها الفضية الرفيعة على جوانب التلال، والصخور البعيدة التي تلمع مع انعكاس الضوء على أسطحها المبللة. كانت الكآبة تغمرنا من الداخل والخارج. فالبارون لا يزال مُغتَمًّا بعد أحداث الليلة الماضية. أما أنا فكنتُ أشعر بثقلٍ على قلبي وبخطرٍ محدق – خطرٍ يحاصرنا طوال الوقت، والأدهى أنِّي لا أستطيع تحديد مصدره.

أو ليس من المنطقي أن أشعر بهذا؟ فلنأخذ في الحُسبان سلسلة الحوادث الطويلة التي تشير كلها إلى مكيدة خبيثة تُحاك من حولنا. فهناك وفاة الساكن السابق للقصر في ظروفٍ غامضةٍ تؤكِّد أسطورة العائلة، وهناك شهادات الفلاحين المتكررة عن ظهور مخلوقٍ غريب على الرابية. وقد سمعت بأذنيَّ مرتين الصوت الشبيه بعواء كلبٍ بعيد. من المستبعد، بل وضرب من المستحيل أن يكون هذا الكلب خارقًا لنواميس الطبيعة حقًّا. فما من فكرة أسخف من كلبٍ شبحيٍّ يترك آثار أقدام ويملأ الجو بعوائه. ربما يقع ستابلتون فريسة لهذه الخرافة، ومورتيمر أيضًا؛ أما أنا فلو كنتُ أتمتع بميزة واحدة فوق هذا الكوكب فهي المنطق السليم، ولن يحملني أحد على التصديق بشيءٍ كهذا. إن فعلتُ، فسوف أهبط إلى مستوى أولئك الفلاحين المساكين، الذين لا يرضون بوصفه كلبًا شيطانيًّا فحسب، بل يصرُّون على أنه يُطلق من عينيه وفمه نارًا جهنَّمِيَّة كذلك. ما كان هولمز ليُنصت إلى شطحات الخيال تلك، وأنا نائبه. ولكن لا مجال لإنكار الحقيقة، وقد سمعت هذا العواء على الرابية مرتين. هَبْ أن كلبًا ضخمًا طليقٌ فيها؛ فمن شأن هذا أن يُفسر كل شيء. لكن أين عساه يختبئ هذا الكلب، من أين يحصل على طعامه، ومن أين أتى؟ ولمَ لا يراه أحدٌ في النهار أبدًا؟ عليَّ الاعتراف بأن التفسير المنطقي تشوبه صعوبات كثيرة هو الآخر. وهناك دومًا، إلى جانب الكلب، حقيقة الأيدي الخفية في لندن، والرجل في عربة الأجرة، والرسالة التي حذَّرت السير هنري من الرابية. هذه على الأقل كانت حقيقية، لكنها قد تكون من صديقٍ مُحبٍّ بقدر جدارتها بأن تكون من عدو. أين هو ذاك الصديق أو العدو الآن؟ هل بقي في لندن أم تبعنا إلى هنا؟ أيعقل أن يكون هو الغريب الذي رأيتُه على الهضبة؟

صحيحٌ أني لم ألقِ عليه سوى نظرة واحدة، ولكن هناك تفاصيل عدة يمكنني أن أقسم عليها. فهو ليس واحدًا ممن رأيتهم منذ قدومي إلى هنا، وقد التقيت الآن بجميع الجيران. كان أطول قامة بكثير من ستابلتون، وأنحف بكثير من فرانكلاند. ربما كان باريمور، لكننا تركناه حينها في المنزل، وأنا متيقن من أنه لم يتبعنا. ثمَّة شخصٌ غريب لم يزل يطاردنا إذن، مثلما طاردنا في لندن. لم نتملَّص منه قط. لئن وضعت يدي على هذا الرجل، لوجدتُ حلًّا لجميع مشكلاتنا أخيرًا. ولهذا الغرض وحده سأكرس كل جهدي.

كانت نيَّتي الأولى أن أخبر السير هنري بكل خططي. أما الثانية، والأكثر حكمة، فهي أن ألعب لعبتي بمفردي وألا أتفوه بشيءٍ عنها مع أحد. فقد رأيته صامتًا وشاردًا، ومصدومًا بالصوت الذي سمعه على الرابية. لذا لن أقول له شيئًا يزيد من مخاوفه، بل سأمضي في طريقي وحدي، لأبلغ غايتي الخاصة.

جرى لدينا نقاشٌ حاد هذا الصباح بعد الفطور. فقد طلب باريمور التحدُّث مع السير هنري على انفراد، وأغلقا عليهما باب غرفة المكتب لبعض الوقت. كنتُ جالسًا في غرفة البلياردو وسمعت صوتيهما يعلوان أكثر من مرة، وكنت شبه متيقن من النقطة موضوع النقاش. ثم فتح البارون باب غرفته بعد فترة واستدعاني.

قال: «لدى باريمور تظلُّم. إنه يظن أنه من غير العدل أن نطارد صهره بعد أن أخبرنا بهذا السر بمحض إرادته».

كان الخادم يقف أمامنا شديد الشحوب، وإن كان متماسكًا.

قال: «ربما انفعلتُ أكثر من اللازم يا سيدي. إن فعلت فإنِّي أستميحك عذرًا. ولكن لشد ما ذُهلت حين سمعتكما تعودان هذا الصباح وعلمتُ بمطاردتكما لسيلدن. ألم يكن لدى هذا التعِس ما يكفيه من بؤسٍ؟»

قال البارون: «لو أنَّك أخبرتنا بهذا السر بملء إرادتك لاختلف الوضع. لكنك وزوجتك لم تخبرانا به إلا بعد أن أرغمناكما إرغامًا».

– لم يخطر لي أنك ستستغل الموقف أيها السير هنري. حقًّا لم يخطر لي.

– هذا الرجل خطرٌ علينا جميعًا. الرابية ملأى بالبيوت المنعزلة، وهذا السفَّاح لا رادع له. نظرة واحدة إلى وجهه ستُريك ذلك. فكِّر مثلًا في منزل السيد ستابلتون، الذي لا يملك من يُدافع عنه سواه. لا أمان لأحدٍ حتى يعود هذا المجرم إلى مكانه وراء القضبان.

– لن يسطو على منازل أحدٍ يا سيدي. أقسم لك بشرفي. بل ولن يُزعج أحدًا في هذه البلاد مرة أخرى. صدقني يا سيد هنري، فقد أعددنا العدة لترحيله إلى أمريكا الجنوبية خلال أيامٍ قليلة. أستحلفك بالله يا سيدي، أتوسل إليك ألا تُبلغ الشرطة بأنه ما زال على الرابية. فقد يئسوا من مطاردته هناك، وسيظل هادئًا في مكمنه حتى يأتي موعد سفينته. أما إن وشيت به فسوف تورِّطني أنا وزوجتي لا محالة. أتوسل إليك يا سيدي ألا تخبر الشرطة بشيء.

– ما رأيك يا واتسون؟

هززتُ كتفيَّ. «ما دام سيغادر البلد دون أذى، فلنزِح عن دافعي الضرائب العبء».

– لكن ماذا لو اعتدى على أحدٍ قبل رحيله.

– إنه ليس مجنونًا ليفعل ذلك يا سيدي. إننا نزوِّده بكل ما يحتاج إليه. أي جريمة ستُخبر الشرطة بمكانه.

قال السير هنري: «هذا حقيقي. حسنًا يا باريمور».

– ليباركك الرب يا سيدي. أشكرك من عميق قلبي. فلسوف تموت زوجتي المسكينة لو قُبض عليه مرة أخرى.

– أظن أننا نتسَتَّر على مجرم يا واتسون. لكن بعد ما سمعته لا أظن أن بإمكاني الوشاية بالرجل، وهذا يحسم الأمر. حسنًا يا باريمور، يمكنك الانصراف.

بعد بضع عبارات متلعثمة من الامتنان استدار الرجل لكي ينصرف، لكن غلبه التردُّد فعاد مجددًا.

– لقد غمرتني بعطفك يا سيدي وأريد أن أردَّ الجميل. إنني أعرف شيئًا أيها السير هنري، وربما كان عليَّ قوله من قبل، لكنني لم أكتشفه إلا بعد انتهاء التحقيق. ولم أتفوَّه بشيءٍ عنه لمخلوق بعد. إنه بخصوص وفاة السير تشارلز المسكين.

هببنا واقفين أنا والسير هنري. «هل تعلم كيف مات؟»

– كلا يا سيدي، لا علم لي بذلك.

– ماذا إذن؟

– أعلم سبب انتظاره عند بوابة الرابية في تلك الساعة. كان ينتظر امرأة.

– امرأة! السير تشارلز؟

– نعم يا سيدي.

– وما اسمها؟

– لا أعرف اسمها يا سيدي، بيد أنِّي أستطيع إعطاءك الأحرف الأولى. إنها (ل. ل.).

– كيف عرفت بهذا يا باريمور؟

– حسنًا يا سير هنري، لقد تلقَّى عمك خطابًا في صباح ذلك اليوم. وكثيرًا ما كانت تصله الخطابات، فقد كان مشهورًا ومعروفًا بقلبه الطيب، لذا كان يلجأ إليه كل من يقع في مشكلة. لكن في صباح ذلك اليوم، صادف أن تلقَّى خطابًا واحدًا فقط، لذا استرعى انتباهي بصفة خاصة. كان من امرأة تقطن في مدينة كومب تريسي.

– أكمل.

– حسنًا يا سيدي، لم أكن لأتذكر هذا الخطاب لولا زوجتي التي كانت تنظف مكتب السير تشارلز منذ بضعة أسابيع فقط – ولم يكن قد مسَّه أحدٌ منذ وفاته – وحينها وجدت بقايا خطابٍ محترق في المدفأة. كان معظمه متفحِّمًا، باستثناء قصاصة صغيرة من نهاية الصفحة، كانت لا تزال متماسكة ويمكن قراءتها، مع أن الكلمات كانت رمادية والخلفية سوداء. بدت لنا كحاشية للخطاب، وكانت

تقول: «أتوسل إليك وأناشدك، وأنت امرؤٌ فاضل، أن تُحرق هذا الخطاب، وأن تنتظرني عند بوابة الرابية في العاشرة». وكانت موقعة بالأحرف الأولى (ل. ل.).

– أما زالت تلك القصاصة بحوزتك؟

– كلا يا سيدي، فقد تفتتت كلها بعد أن حركناها.

– هل تلقَّى السير تشارلز أي خطابات أخرى من تلك المرأة؟

– الواقع يا سيدي أنني لم أعر انتباهًا خاصًّا لخطاباته، ولم أكن لأنتبه لهذا الخطاب لولا وقوعه في يدي بمحض الصدفة.

– أليس لديك فكرة عن هُوية المدعوة (ل. ل.)؟

– لا يا سيدي. فقد أخبرتُك بكل ما أعرف. لكنني أعتقد أننا إن وضعنا أيدينا على تلك السيدة فسوف نعرف المزيد عن وفاة السير تشارلز.

– لا أفهم يا باريمور لِمَ أخفيت عنَّا مثل هذه المعلومة المهمة.

– حسنًا يا سيدي، لقد انشغلنا بعدها مباشرة مع سيلدن. ثم إننا كنا نحب السير تشارلز كثيرًا يا سيدي، وما زلنا نضع في حُسباننا كل ما فعله لأجلنا. وقد شعرنا بأن إفشاء هذا الأمر لن يساعد سيدنا بأي شيء، وأن من الأفضل توخِّي الحرص ما دام هناك سيدة في المسألة. فحتى أفضلنا ...

– أظننت أن هذا الأمر قد يؤذي سمعته؟

– ظننتُ أن لا خير قد يأتي منه يا سيدي. لكنك كنت رحيمًا بنا الآن، وأشعر بأن من العيب ألا أخبرك بكل ما أعرفه.

– حسنٌ إذن يا باريمور. يمكنك الذهاب.

عندما انصرف الخادم استدار السير هنري لمواجهتي قائلًا:

– ما رأيك يا واتسون في هذا الضوء الجديد؟

– يبدو أنه قد زاد الظُلمة حُلكةً.

– أتفق معك. لكننا إن استطعنا تقفِّي أثر تلك المدعوة (ل. ل.) فسوف تتضح لنا المسألة برمتها. هذا هو كل ما نملك. فقد صرنا نعلم أن الحقائق كلها عند شخصٍ بعينه، وليس علينا إلا العثور عليه. ماذا تقترح أن نفعل؟

– نخبر هولمز بالمسألة كلها فورًا. فذلك هو الدليل الذي كان يسعى إليه، وأراهن أنه سيأتي به إلى هنا في الحال.

ذهبت إلى غرفتي على الفور ودونت تقريري لهولمز عما جرى هذا الصباح. كنت أعلم بانشغاله الشديد في الآونة الأخيرة، فالرسائل التي وصلتني من شارع بيكر كانت قليلة ومقتضبة، بلا تعليق على المعلومات التي أوردتُها ولا صلة تُذكر بمهمتي. لا شك أن قضية الابتزاز تستحوذ على اهتمامه كله. لكن تلك المعلومة الجديدة ستسترعي انتباهه وتثير حماسته دون ريب. ليته كان معي هنا.

17 من أكتوبر – المطر ينهمر بشدة طوال النهار، ويرتطم بأوراق اللبلاب ويقطر من الأفاريز. فكَّرت في السجين الهارب على الرابية الباردة الموحشة بلا مأوًى يحميه. يا له من شيطان تعِس! إنه يكفِّر عن خطاياه بمعاناته الآن. ثم فكَّرت في الشخص الآخر – الذي رأيناه في عربة الأجرة، ثم رأيتُ خياله بعدها في ضوء القمر. هل يُعقل أن يكون المراقب الخفي ورجل الظلام هذا بالخارج الآن تحت المطر الغامر؟ وضعت معطفي الواقي من المطر في المساء ومشيت كثيرًا على الرابية المخضلة وقد داهمتني الأفكار القاتمة، بينما غمر المطر وجهي وصفَّرت الرياح في أذني. ليكن الرب في عون أولئك الذين يجولون في المستنقع الكبير الآن، فحتى المرتفعات الصلبة قد استحالت وَحلًا. وجدتُ الهضبة السوداء التي رأيتُ عليها المراقب الوحيد. صعدتُ إلى قمتها الوعرة ونظرت بامتداد المنخفضات الموحشة. كان المطر يعصف بوجهها الخمري، وتظللها السحب الرمادية التي تحيط بقمم التلال كأكاليل من الزهور. وإلى اليسار من بعيد، رأيتُ البرجين النحيلين لقصر باسكرفيل ينتصبان فوق الأشجار، وقد غطَّى الضباب نصفه. كان هذا القصر هو العلامة الوحيدة على وجود بشر في هذا المكان، باستثناء أكواخ ما قبل التاريخ المستقرة بثبات على جوانب التلال. لم أرَ في أي مكان أثرًا لذلك الرجل الوحيد الذي رأيته في تلك البقعة قبل ليلتين.

في طريق عودتي فوجئتُ بالطبيب مورتيمر يقود عربته الصغيرة على مسار وعر من الأرض السبخة، آتيًا من منزل فولماير الريفي البعيد. كان مهتمًّا بأحوالنا منذ وصولنا، ولم يمضِ يوم إلا وزارنا فيه، ليطمئن على حالنا. فما إن رآني حتى أصرَّ عليَّ أن أصعد ليوصلني بعربته إلى المنزل. كان منزعجًا جدًّا لاختفاء كلبه السبنيلي الصغير. فقد خرج إلى الرابية ولم يعد قط. واسيته قدر استطاعتي، لكنِّي تذكَّرت المهر الصغير الذي رأيتُه في مستنقع جريمبن، وشعرتُ بأنه لن يرى كلبه الصغير مرة أخرى.

قلتُ والعربة تهتز بنا على الطريق الوعرة:

– بالمناسبة يا مورتيمر، أحسبُك على دراية بجميع سكان هذه المنطقة، أليس كذلك؟

– بلى، حسبما أظن.

– أيمكنك إذن أن تخبرني بامرأة يبدأ اسمها بالأحرف الأولى (ل. ل.)؟

أخذ يفكر لبرهة، ثم قال:

– كلا. هناك قليلٌ من الغجر والعمال الذين لا أعرفهم، لكن لا أحد من الفلاحين أو النبلاء يبدأ اسمه بتلك الأحرف الأولى. لكن... مهلًا... –ثم أضاف بعد هنيهة– «هناك من يبدأ اسمها بـ (ل. ل.)، إنها لورا ليونز، لكنها تقطن بمدينة كومب تريسي».

سألتُه: «من هي؟»

– إنها ابنة فرانكلاند.

– ماذا؟ فرانكلاند العجوز النزق!

– بالضبط. لقد تزوَّجت من رسام يُدعى ليونز جاء ليرسم لوحاته على الرابية. ثم تبيَّن أنه منافق وهجرها. وأبى أبوها أن يمد لها يد العون لأنها تزوَّجت دون مباركته. وهكذا بين الآثم العجوز والآثم الشاب، مرَّت الفتاة بفترة عصيبة جدًّا.

– وكيف تعيش؟

– أظن أن فرانكلاند العجوز يمنحها مبلغًا زهيدًا، لكنه لا يزيد عليه، فقد صار منشغلًا بشؤونه الخاصة إلى حد بعيد. ومهما كان ما تستحقه، فلا يمكن للمرء أن يدعها لحياة البؤس من دون أمل. لذا شاعت قصتها بين الناس وهبَّ العديد لمساعدتها في العثور على عملٍ شريف تتقوت منه. توسَّط لها ستابلتون في أحد الأماكن، وتوسَّط السير تشارلز في آخر. وقدَّمتُ أنا قليلًا من العون. وهكذا وضعناها على الطريق لبدء العمل في مجال الكتابة على الآلة الكاتبة.

أراد أن يعرف السبب وراء أسئلتي، لكنني استطعت إرضاء فضوله دون الإفصاح بالكثير، فلم يكن ثمة دافع لإطلاع أحد على سرنا. سأنطلق في صباح الغد إلى مدينة كومب تريسي، وإن استطعت رؤية هذه السيدة المدعوة لورا ليونز، ذات السمعة المثيرة للجدل، سأكون قد اقتربت كثيرًا من توضيح شيء في سلسلة الألغاز هذه. لا بد أني طوَّرت مهارة مكر الأفاعي، فحينما أخذ مورتيمر يضغط عليَّ بأسئلته إلى حدٍّ مزعج، سألته بعفوية عن النوع الذي تنتمي له جمجمة فرانكلاند، وهكذا انطلق يثرثر عن الجماجم لبقية الطريق. ها هي معيشتي مع هولمز قد أتت ثمارها.

لم يبقَ سوى حادث واحد لأسجله في هذا اليوم العاصف الكئيب، وهو حواري مع باريمور الذي دار توًّا، والذي أعطاني بطاقة أخرى قوية ألعب بها عندما يحين الوقت.

كان مورتيمر قد بقي معنا لتناول العشاء، ثم جلس يلعب الورق مع البارون. أما أنا فقد جاء الخادم بقهوتي إلى المكتبة، فانتهزت الفرصة لأسأله بضعة أسئلة.

قلت: «حسنًا، هل رحل قريبك الغالي أم أنه ما زال مختبئًا في الرابية؟»

– لا أدري يا سيدي. أدعو الرب أن يكون قد رحل، فلم يجلب لنا وجوده سوى المتاعب! لم أسمع عنه منذ آخر مرة تركتُ له فيها الطعام منذ ثلاثة أيام.

– هل رأيته آنذاك؟

– لا يا سيدي، غير أن الطعام كان قد اختفى حين عدت إلى المكان.

– هل ثمة شك في أنه كان هناك إذن؟

– كلا يا سيدي، إلا إذا كان الرجل الآخر هو من أخذ الطعام.

وقف كوب القهوة في منتصف الطريق بين المكتب وفمي وحدَّقتُ إلى باريمور.

– هل تعلم بوجود رجلٍ آخر؟

– نعم يا سيدي. ثمة رجل آخر على الرابية.

– هل رأيته؟

– لا يا سيدي.

– كيف علمت بشأنه إذن؟

–أخبرني عنه سيلدن يا سيدي، قبل أسبوعٍ أو أكثر. إنه يختبئ هناك هو الآخر، لكنه ليس مُتهمًا حسبما أظن. إني لا أحب أمثال هذه الأمور يا دكتور واتسون، صدقني لا أحبها.

وصار يتحدث فجأة بانفعالٍ جاد!

– اصغِ إليَّ الآن يا باريمور! إنني لا أكترث إلا لما يخص السير هنري. وما أتيتُ هنا إلا لمساعدته. لذا أخبرني بصراحة، ما هذا الذي لا تحبه؟

تردد باريمور للحظة، كأنما ندم على اندفاعه، أو وجد صعوبة في صياغة مشاعره في كلمات.

ثم صاح: «كل ما يجري غريب يا سيدي».

ولوَّح بيده باتجاه النافذة المطلة على الرابية التي يضربها رذاذ المطر، قائلًا:

– ثمة مؤامرة تُحاك في مكانٍ ما، وثمة مكيدة شيطانية قاتمة تُدبَّر، وإنني لأقسم على ذلك! ولسوف أشعر بالرضا يا سيدي إن عاد السير هنري إلى لندن مجددًا!

– ولكن ما الذي يقلقك؟

– تَفكَّر في وفاة السير تشارلز! إنَّ بها ما يكفي من السوء بالنظر إلى ما قاله الطبيب الشرعي. تفكَّر في تلك الأصوات التي تنبعث ليلًا من الرابية. فما من رجلٍ يجرؤ على عبورها بعد غروب الشمس ولو تقاضى أجرًا على ذلك. تفكَّر في هذا الغريب المختبئ هناك، يراقب وينتظر! ما الذي ينتظره؟ وما الذي يعنيه هذا؟ يعني أن لا سلامة لأي أحدٍ يحمل اسم باسكرفيل، ولسوف يسرني أن أفرَّ من كل هذا بمجرد أن يصبح خدم السير هنري الجدد جاهزين لاستلام العمل في القصر.

قلتُ:

– ولكن بخصوص هذا الغريب، هل يمكنك إخباري بأي شيءٍ عنه؟ ماذا قال سيلدن؟ هل اكتشف مكان اختبائه، أو ما الذي يفعله هناك؟

– لقد رآه مرة أو مرتين، لكنه شخصٌ غامض ولا يشي مظهره بشيء. في البداية ظن سيلدن أنه واحدٌ من رجال الشرطة، لكن سرعان ما أدرك أنه يعمل لحسابه الخاص. وبدا له نبيلًا بطريقة ما، لكنه لم يستطع معرفة ما يفعله.

– وماذا قال سيلدن عن المكان الذي يبيت فيه؟

– بين المنازل القديمة على جوانب التلال. الأكواخ الحجرية التي اعتاد الأقدمون العيش فيها.

– وماذا عن طعامه؟

– اكتشف سيلدن أن هناك صبيًّا يعمل من أجله ويجلب له احتياجاته. أراهن أنه يذهب إلى كومب تريسي لإحضار ما يريد.

– عظيم يا باريمور. ربما نكمل حديثنا في وقتٍ آخر.

وحينما انصرف الخادم، مشيتُ إلى النافذة المظلمة، ونظرت من الزجاج الضبابي إلى السحب المتسارعة والأغصان المتموجة. إنها ليلة جامحة بالداخل، فكيف بها في كوخٍ حجري على الرابية. وأي كراهية مريرة تحدو بالمرء إلى البقاء في هذا المكان وفي هذه الساعة؟! وأي هدفٍ عميق وجاد يستدعي خوض مثل هذه المحنة! هناك في هذا الكوخ على الرابية، يقبع جوهر المشكلة ذاتها التي تثقل عليَّ وتُنهكني. والله لن يمضي يومٌ قبل أن أفعل كل ما بوسعي للوصول إلى قلب اللغز.

الفصل الحادي عشر

الرجل على الهضبة

ملأت صفحات الفصل السابق بمقتطفات من مفكرتي الخاصة، وقد أوصلتني إلى اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر، حين بدأت تلك الأحداث الغريبة تتقدم سريعًا نحو تفسيرها المروع. إن وقائع تلك الأيام حاضرة بقوة في ذهني، ويمكنني سردها دون الرجوع إلى ملاحظاتي آنذاك. سأبدأ إذن من اليوم الذي تلا تلك الليلة التي عرفتُ فيها حقيقتين مهمتين، أولاهما أن السيدة لورا ليونز من كومب تريسي كانت تراسل السير تشارلز، وكانت على موعد معه في المكان والموعد ذاتهما اللذين لقى فيهما حتفه، أما الحقيقة الثانية فهي أن الرجل المختبئ على الرابية يبيت في أحد الأكواخ الحجرية في سفوح التلال. وبعد أن أدركت هاتين الحقيقتين، ولم أستطع مع ذلك حلَّ اللغز، فلا بد أني أعاني من خلل ما، إن لم يكن في ذكائي ففي شجاعتي.

لم تسنح الفرصة لأخبر البارون بما علمته عن السيدة ليونز في الأمسية السابقة، فقد ظلَّ هو والطبيب مورتيمر يلعبان الورق حتى وقت متأخر جدًّا. لكنني أبلغته في الصباح باكتشافي، وسألته إن كان يريد مرافقتي إلى كومب تريسي. في البداية كان يتوق بشدة للذهاب، ولكن بعد تفكير بدا لكلينا أنني إن ذهبت بمفردي، سنخرج بنتائج أفضل. فكلما زادت رسمية الزيارة، قَلَّت المعلومات التي نحصل عليها. وهكذا خلَّفت السير هنري ورائي، بشيءٍ من تأنيب الضمير، وانطلقت في مسعاي الجديد.

وصلت إلى كومب تريسي وطلبت من الحوذيِّ بيركنز أن يوقف العربة، ثم هبطت لأستعلم عن مكان السيدة التي جئتُ لاستجوابها. لم أجد صعوبة في العثور على مسكنها عالي الطراز في وسط المدينة. قادتني الخادمة إلى الداخل دون رسميات، وبينما خطوت إلى غرفة الجلوس، نهضت السيدة التي تجلس وراء الآلة الكاتبة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة ترحيب عذبة. لكنها ما لبثت أن عادت لعبوسها حينما رأت أني غريب، وعادت للجلوس وهي تسأل عن غرضي من الزيارة.

كان أوَّل ما رأيته في السيدة ليونز هو أنها امرأة بارعة الحسن. كان لعينيها وشعرها اللون العسلي الغني ذاته، وكان لوجنتيها المنمشتين المتوردتين نضارة فاتنة. أكرر أن الإعجاب كان انطباعي الأول. أما انطباعي الثاني فكان الاستنكار. كان في وجهها شيء ما خِفِيٌّ عكَّرَ صفو جمالها، فظاظة ما أو قسوة، ربما في عينيها، أو تكشيرة ما على شفتيها. لكن كل هذا بالطبع كان بعد تفكيرٍ لاحق. ففي لحظتها كنت أعي ببساطة أني في حضرة امرأة بالغة الجمال، وأنها كانت تسألني عن المغزى من زيارتي. وحينها أدركت كم كان موقفي حرجًا.

قلت: «لقد تشرفتُ بمقابلة أبيك».

كانت جملة حمقاء، وشعرتُ بمدى حماقتها بعدما رأيتُ فتور السيدة الفوري.

قالت: «لا شيء يربطني بأبي. لستُ مدينة له بأي شيء، ولا أصدقاؤه أصدقائي. كنتُ لأموت جوعًا لولا كرم الفقيد السير تشارلز باسكرفيل وبعض القلوب الرحيمة الأخرى».

– لقد جئتُ إلى هنا بخصوص الفقيد السير تشارلز باسكرفيل.

بهت النمش على وجه السيدة.

سألت: «ماذا تريد أن تعرف عنه؟» –وقد راحت تعبث في مفاتيح آلتها الكاتبة–

– كنتِ تعرفينه، أليس كذلك؟

– لقد قلتُ لتوي أنني مدينة لعطفه بالكثير. فإن كنت قادرة على كسب رزقي فذلك يرجع إلى حدٍّ بعيد لاهتمامه بوضعي التعس.

– هل كنتما تتبادلان الخطابات؟

رمقتني السيدة وقد اتقدت عيناها العسليتان غضبًا.

ثم قالت بحدة: «ما الغرض من هذه الأسئلة؟»

– الغرض هو تفادي الفضيحة العلنية. فمن الأفضل أن أسأل هذه الأسئلة هنا بدلًا من أن تخرج المسألة عن سيطرتنا.

غرقت في صمتٍ مطبق وما زال وجهها ممتقعًا. ثم نظرت إليّ أخيرًا بتحدٍّ ولا مبالاة، وقالت:

– حسنًا، إنني مستعدة. ما هي أسئلتك؟

– هل تبادلتِ الخطابات مع السير تشارلز؟

– بالطبع كتبت إليه مرة أو مرتين لأعبر له عن امتناني لكرمه ونبله.

– هل تتذكرين تواريخ تلك الخطابات؟

–لا.

– هل قابلتِه قط؟

– نعم، مرة أو مرتين، حينما أتى إلى كومب تريسي. لقد كان رجلًا انطوائيًّا، وكان يفضِّل فعل الخير في الخفاء.

– لكن إن كنت لم تريه إلا لِمَـامًا ولم تكتبي إليه إلا نادرًا، فكيف له إذن أن يعلم بشأن مشكلاتك ويعرض أن يساعدك مثلما تقولين؟

أجابت على سؤالي باستعدادٍ تام.

– كان العديد من النبلاء يعلمون بمأساتي وتعاونوا معًا، كي يساعدوني. أحدهم كان السيد ستابلتون، وهو جار السير تشارلز وصديقه الحميم، ومن خلاله عرف السير تشارلز بمشكلاتي.

لقد علمتُ حقًّا أن السير تشارلز باسكرفيل كان يفوِّض ستابلتون مسؤولًا للتبرعات في مناسبات عدة، لذلك كانت إجابة السيدة تحمل شيئًا من الحقيقة.

استطردتُ قائلًا: «هل سبق وكتبتِ إلى السير تشارلز طالبة منه مقابلتك؟».

اتَّقَد وجه السيدة ليونز غضبًا مرة أخرى.

– الواقع يا سيدي أن هذا سؤال غريب جدًّا.

– أستميحكِ عذرًا يا سيدتي، لكن لا بد أن أسمع إجابته.

– سأجيبك إذن. قطعًا لم يحدث هذا قط.

– ولا في يوم وفاة السير تشارلز بالذات؟

اختفت حمرة الغضب من وجهها فورًا، وحلَّ مكانها شحوب الموتى. حتى إن شفتيها لم تستطع التفوه بكلمة (لا) التي رأيتها جليَّة، وإن لم أسمعها.

قلتُ: «يقينًا إن ذاكرتك تخونك. يمكنني أن أقتبس بضعًا من كلمات خطابك: أتوسل إليك وأناشدك، وأنت امرؤٌ فاضل، أن تُحرق هذا الخطاب، وأن تنتظرني عند بوابة الرابية في العاشرة».

ظننتُ أنها ستغيب عن الوعي، لكنها استعادت رباطة جأشها بجهدٍ جهيد وقالت لاهثة:

– أما من رجلٍ نبيل في هذا العالم؟

– إنكِ تظلمين السير تشارلز، فقد أحرق الخطاب فعلًا. لكن الخطابات أحيانًا ما تكون قابلة للقراءة حتى بعد حرقها. والآن هل تعترفين بكتابتك هذا الخطاب؟

– نعم، لقد كتبته.

ثم أجهشت بالبكاء وهي تصب روحها في سيلٍ من الكلمات:

– لقد كتبته. لمَ عساي أن أنكر هذا؟ ليس لدي ما أخجل منه. لقد توسَّلت إليه أن يساعدني. وقد ظننتُ أنني إن التقيته سأتمكن من استدرار عطفه، لذا رجوته أن يقابلني.

– ولكن لمَ في هذا الوقت بالذات؟

– لأنني وقتها علمت بأنه نوى الذهاب إلى لندن في اليوم التالي وأنه قد يتغيب شهورًا، وكانت لديَّ أسبابي التي منعتني من مقابلته في وقتٍ أبكر.

– لكن لمَ اخترتِ أن يكون الموعد في الحديقة وليس في المنزل؟

– وهل يُعقل أن تزور امرأة رجلًا عَزَبًا بمفردها في هذه الساعة برأيك؟

– حسنًا، ماذا حدث حينما ذهبتِ؟

– لم أذهب قط.

– سيدة ليونز!

– لا، أقسم لك على ذلك بأعز ما أملك. لم أذهب قط. فقد حال شيءٌ بيني وبين الذهاب.

– ما هو؟

– هذا شأنٌ خاص. لا يسعني إخبارك به.

– أتعترفين إذن أنك قطعتِ موعدًا مع السير تشارلز في الساعة والمكان ذاتهما حيث لاقى مصرعه، لكنك تنكرين إيفاءك بالموعد؟

– تلك هي الحقيقة.

ظللت أضيق عليها الخناق بأسئلتي مرارًا، لكنني لم أحصل على ما هو أكثر.

قلت وأنا أنهض مستعدًّا لمغادرة تلك المقابلة المطولة غير الحاسمة:

– سيدة ليونز، إنك لا تتحرِّين الصدق في كل ما تعرفينه، وبهذا تُحمِّلين نفسك مسؤولية كبيرة حقًّا وتضعينها في موقف شديد الحرج. لو أني استدعيت الشرطة الآن لأدركتِ مدى خطورة موقفك. إن كنتِ بريئة من كل شيء، فلم أنكرتِ في البداية أنك كتبتِ إلى السير تشارلز في هذا اليوم؟

– لأنني خشيت أن تصل بهذه المعلومة إلى استنتاجٍ خاطئ، وأجدِ نفسي متورطة في فضيحة.

– ولم أردتِ بشدة أن يُحرق السير تشارلز خطابك؟

– لو كنت قرأت الخطاب لعلمت السبب.

– لم أقل أني قرأت الخطاب.

– لقد اقتبست بعضًا منه.

– لم أقتبس سوى الحاشية. أما الخطاب فقد أُحرق، كما قلت آنفًا، ولم يكن مقروءًا كله. أكرر سؤالي، لم شدَّدتِ على أن يحرق السير تشارلز هذا الخطاب الذي تلقاه في يوم وفاته.

– تلك المسألة شديدة الخصوصية.

– وهذا أدعى لأن تحرصي على تجنب الاستجواب العلني.

– سأخبرك إذن. إن كنت سمعت شيئًا عن حياتي البائسة، فأنت تعلم أنني تزوجت زيجة طائشة ندمت عليها كثيرًا فيما بعد.

– لقد سمعت الكثير.

– لقد كانت حياتي اضطهادًا متواصلًا من زوجٍ أبغضه، والقانون الذي يقف في صفه على الدوام. كنتُ أصارع كل يوم احتمالية أن يعيدني إلى بيته بالقوة. وفي الوقت الذي كتبت فيه الخطاب كنت قد علمتُ أن بإمكاني أن أظفر بحريتي إن دفعتُ له مبلغًا معينًا من المال. وقد عنى لي هذا كل شيء – راحة البال، السعادة، احترام الذات – كل شيء. علمت بكرم السير تشارلز، وظننتُ أنه إن سمع القصة من بين شفتي فسوف يمد لي يد العون.

– إذن فلماذا لم تذهبي؟

– لأنني تلقيت المساعدة من شخصٍ آخر قبل الموعد.

– لماذا إذن لم تكتبي إلى السير تشارلز وتوضحي له ذلك؟

– كنت أنوي هذا فعلًا، لولا أنني رأيت خبر وفاته في الجريدة في الصباح التالي.

كانت قصة المرأة متماسكة وقوية لم يقدر أي من أسئلتي على زعزعتها. ويمكنني التحقق من صحتها إن تأكدتُ أنها بدأت في إجراءات الطلاق وقت وقوع المأساة.

لم تكن لتدعي عدم ذهابها إلى قصر باسكرفيل لو أنها ذهبت، لأنها ستحتاج إلى عربة أجرة للوصول إلى هناك، ولم تكن لتعود إلى كومب تريسي إلا في ساعات الصباح الباكر. لا يمكن لهذه الرحلة أن تبقى

سرًّا. الأرجح أنها كانت تقول الحقيقة، أو على الأقل جزءًا من الحقيقة. خرجت متحيرًا ومحبطًا. وبلغت مرة أخرى ذلك الجدار الضخم الذي يسد أي طريق أحاول سَلكه، للوصول إلى الحل. لكنني كلما تذكرت وجه السيدة وسلوكها انتابني شعور بأنها تخفي عني شيئًا ما. لِمَ كان وجهها ممتقعًا هكذا؟ لِمَ كانت تقاوم الاعتراف بالحقيقة في كل مرة إلى أن تُنتزع منها جبرًا؟ لِمَ كانت تتصرف بهذا التحفظ الشديد وقت حدوث المأساة؟ من المؤكد أن تفسير كل هذا ليس بالبراءة التي تحاول إقناعي بها. لكنني لا أستطيع مواصلة هذا الاتجاه في الوقت الحالي، بل عليَّ تعقُّب ذلك الدليل الآخر الكامن بين الأكواخ الحجرية على الرابية.

كان دليلًا يصعب تعقُّبه. أدركت مدى الصعوبة حينما عدتُ ولاحظت كيف كانت التلال واحدًا تلو الآخر تُظهر آثار القدامى. لم يقل باريمور إلا أن الغريب يعيش في واحد من تلك الأكواخ المهجورة، وقد تناثرت المئات منها على طول الرابية وعرضها. لكنني استرشدت بتجربتي الخاصة حين رأيت الرجل ذاته واقفًا على قمة الهضبة السوداء. لا بد إذن أن أنطلق باحثًا من هناك. عليَّ أن أستكشف جميع الأكواخ الواقعة فوق الرابية، حتى أعثر على الكوخ الصحيح. وإذا وجدت هذا الرجل بداخله، سأنتزع من بين شفتيه، وبتهديدٍ من مسدسي لو لزم الأمر، حقيقة هُويته وسبب مطاردته لنا كل هذا الوقت. ربما يستطيع التملص منا في زحام شارع ريجنت، لكنه لن يستطيع ذلك فوق الرابية المنعزلة. أما إن وجدت الكوخ دون ساكنه فسوف أبقى هناك متيقظًا مهما طال بي الأمد حتى يعود. لقد أفلت من هولمز في لندن. وسيكون انتصاري حقيقيًّا إن استطعت النجاح فيما فشل فيه أستاذي.

لقد حاربَنا الحظ مرارًا في هذا التحقيق، بيد أنه هبَّ لمساعدتي الآن أخيرًا. ولم يكن رسول الحظ السعيد أحدًا سوى السيد فرانكلاند، الذي كان واقفًا عند باب حديقته، بشعره الأشيب ووجهه الأحمر، وأمامه امتد الممر الذي أسير فيه.

صاح قائلًا بمزاجٍ رائق غير مألوف منه:

– طاب يومك يا دكتور واتسون. أرِح أحصنتك قليلًا وتعالَ لتتناول كأسًا من النبيذ معي. أريد أن أحظى بتهنئتك.

كان شعوري نحوه بعيدًا كل البعد عن الودِّ بعد ما سمعته عن معاملته لابنته، لكنني كنت حريصًا على إرسال بيركنز والعربة إلى المنزل، وها هي الفرصة تسنح لذلك. ترجَّلت من العربة وبعثت برسالة إلى السير هنري أخبره فيها بأني سأعود في موعد العشاء. ثم اتبعت فرانكلاند إلى حجرة طعامه.

صاح مقهقهًا: «إنه يومٌ عظيم يا سيدي، أحد أهم أيام حياتي. لقد أحرزتُ نجاحًا مزدوجًا. فأنا أنوي تلقين الناس في هذه الأنحاء أن قانوننا لا تهاون فيه، وأن ثمة رجلًا هنا لا يخشى تطبيقه. لقد وضعتُ طريقًا في منتصف حديقة ميدلتون العجوز، إنه أشبه بضربة سوط يا سيدي، ولا يبعد سوى مئة ياردة عن باب منزله الأمامي. ما رأيك؟ فلسوف نُعلِّم أولئك المتغطرسين عدم الاستخفاف بحقوق العامة، اللعنة عليهم! وقد أُغلقت الغابة التي اعتاد سكان فرنورثي التنزه فيها كذلك. يبدو أن أولئك الملاعين لا يؤمنون بحقوق الملكية، ويظنون أن بإمكانهم الاحتشاد حيث شاءوا بأوراقهم وزجاجاتهم. لقد حُسِمت كلتا القضيتين يا دكتور واتسون، وكلتاهما لصالحي بالطبع. لم أحظَ بيومٍ كهذا منذ ساعدت في القبض

على السير جون مورلاند بتهمة التعدِّي على ممتلكات الغير، بسبب إطلاقه النار في مزرعة الأرانب التي يمتلكها».

– كيف بحق السماء فعلت ذلك؟

– ابحثْ في المستندات يا سيدي. فالمسألة تستحق القراءة – فرانكلاند ضد مورلاند، محكمة مجلس الملكة. لقد كلفتني مائتي جنيه، لكنها انتهت بالحكم الذي أريده.

– وهل استفدت شيئًا؟

– لا يا سيدي، لا. أفتخر بالقول إنني لم أنتفع بالمسألة البتة، إنما أتصرف انطلاقًا من إحساسي بالواجب العام. فلا شك لديَّ أن سكان فرنورثي مثلًا سيُحرقون دميتي الليلة. وقد أخبرت الشرطة حينما فعلوا ذلك في المرة السابقة وطلبت منهم إيقاف تلك العروض المشينة. ولكن حالة شرطة المقاطعة أصبحت مخزية يا سيدي ولم توفر لي الحماية التي أستحقها. ستطرح قضية فرانكلاند ضد ريجينا تلك المسألة أمام الرأي العام. لقد أخبرتُ رجال الشرطة أنه سيأتي يوم ويندمون على معاملتهم لي، وها قد صارت كلماتي واقعًا.

سألت: «كيف؟».

لاح على وجه العجوز تعبير العارف ببواطن الأمور.

– لأنني أستطيع إخبارهم بما يتحرَّقون شوقًا لمعرفته؛ لكن شيئًا لن يدفعني إلى مساعدة هؤلاء الأوغاد بحال.

كنت أحاول التوصل إلى أي عذرٍ لأتملص من نميمته، لكنني بدأت الآن أرغب في سماع المزيد. وقد رأيت ما يكفي من طباع العجوز الآثم المتناقضة لأعلم أن أي إشارة قوية لاهتمامي ستقطع دون ريب تدفق أسراره.

قلتُ بلا مبالاة:

– قضية صيد أخرى غير مشروعة؟

– ها، ها، بل أهم من هذا بكثير يا ولدي! ما رأيك بالسجين الهارب على الرابية؟

جفلت قائلًا:

– أتقصد أنك تعرف مكانه؟

– ربما لا أعرف مكانه بالضبط، لكنني موقن إلى حد كبير أن باستطاعتي مساعدة الشرطة لكي يضعوا أيديهم عليه. ألم يخطر ببالك قط أن الطريقة المثلى للقبض على الرجل هو معرفة مصدر طعامه، ومنه تقفِّي الأثر إليه؟

بدا أنه يقترب من الحقيقة إلى حدٍّ مثير للقلق. قلتُ: «لا ريب في ذلك، ولكن كيف عرفت بأنه في أي مكان على الرابية؟»

– أعرف ذلك لأنني رأيت بأم عيني الرسول الذي ينقل له الطعام.

غاص قلبي خوفًا على باريمور. إنه لأمر خطير أن يقع المرء تحت سلطة هذا المتطفل العجوز الحاقد. ولكن ملحوظته التالية أزاحت الثقل عن ذهني.

– لك أن تتخيل أن من يأتيه بالطعام مجرد طفل! أراه كل يوم بمنظاري على السطح. إنه يعبر الطريق ذاته في الساعة ذاتها كل يوم، وإلى من سيأتي بالطعام إن لم يكن للمجرم؟

ها هو ذا الحظ يبتسم! لكنني كبحت أي مظهر من مظاهر الاهتمام. طفل! لقد أخبرني باريمور بأن ثمة صبيًّا يعمل لدى الغريب ويأتيه باحتياجاته. لقد تعثر فرانكلاند بمسار الغريب وليس بمسار المجرم. إذا استطعت الحصول على ما لديه من معلومات فسوف أوفر على نفسي مطاردة طويلة ومنهكة. لكنني لم أملك حينئذٍ بطاقة أقوى من اللامبالاة والتشكك.

– أراهن أن هذا الصبي هو ابن أحد رعاة أراضي الرابية، وأنه يوصل العشاء لأبيه.

أشعلت معارضتي غيظ العجوز المستبد. فصوَّب نحوي نظرات مسمومة وارتعشت شواربه كقِطٍّ غاضب.

ثم قال: «أحقًّا هذا أيها السيد!» –مشيرًا ناحية الرابية مترامية الأطراف– «هل ترى تلك الهضبة السوداء هناك؟ حسنًا، أترى هذا التل المنخفض وراءها المغطى بالأشجار الشائكة؟ إنها المنطقة الأكثر تحجرًا في الرابية كلها. هل ثمة راعٍ يمكن أن يختار مثل هذه المنطقة؟ اقتراحك يا سيدي هو الأسخف على الإطلاق».

اعترفت في تواضع بأني تحدثت دون معرفة الحقائق كلها. وقد أرضاه استسلامي وأفضى به إلى كشف المزيد من الأسرار.

– كُن على يقين أيها السيد بأنني أبني استنتاجاتي كلها على أسسٍ قوية. لقد رأيت الفتى مرارًا وهو يحمل صرته. واستطعت كل يوم، بل ومرتين في نفس اليوم أحيانًا، أن... ولكن مهلًا يا دكتور واتسون. أتخونني عيناي أم أن هناك شيئًا يتحرك الآن على جانب ذلك التل؟

كان التل يبعد بضعة أميال، لكنني استطعت تمييز نقطة داكنة وسط خضرة الرابية ورماديتها الباهتة.

صاح فرانكلاند وهو ينطلق صاعدًا الدرج:

– تعالَ يا سيدي، تعالَ! سترى بعينيك وتحكم بنفسك.

كان المنظار الضخم مثبتًا على حامله الثلاثي وموضوعًا على قاعدة مسطحة. ألصق فرانكلاند عينيه بالعدسة ثم أطلق صيحة انتصار.

– أسرع يا دكتور واتسون، أسرع، قبل أن يعبر التل!

وهناك رأيت الصبي الصغير واضحًا وضوح الشمس وهو يمشي حاملًا على كتفه صرته الصغيرة، ويكافح صاعدًا التل ببطء. حينما بلغ القمة رأيت هيئته الخرقاء الرثة واضحة قبالة السماء الزرقاء الباردة. أخذ يتلفَّت حوله في حذر كأنما يخشى أن يلاحقه أحد. ثم اختفى هابطًا التل إلى الجهة الأخرى.

– حسنًا! هل تأكدت من كلامي؟

– بالطبع، ثمة فتى في مهمة سرية على ما يبدو.

– وهي مهمة يمكن حتى لشرطة المقاطعة أن تحزرها. لكنهم لن يحصلوا على كلمة واحدة مني، وإنني أُلزمكَ أنت الآخر بالسرية يا دكتور واتسون. لا تتفوه بكلمة! أتفهم!

– تمامًا، كما تشاء.

– كانت معاملتهم لي مخزية – مخزية جدًّا. حينما تُعلن وقائع قضية فرانكلاند ضد ريجينا، أتصور أن موجة من الغضب ستعم البلاد. لن يغريني شيء بمساعدة الشرطة بأي وسيلة. إنهم لا يأبهون حتى وإن كنتُ أنا لا دُميتي من يُشعل فيها هؤلاء الأوغاد النار على الوتد. لا تقل إنك ذاهب! لا بد أن تُنهي معي زجاجة الشراب هذه احتفالًا بالمناسبة العظيمة!

لكنني قاومت كل توسلاته ونجحت في ثنيه عن توصيلي إلى المنزل. مشيت في طريقي، وما إن شعرت بأن عينيه لم تعد تراقبانني، انعطفت باتجاه الرابية واتجهت نحو التل الحجري الذي اختفى عنده الصبي. كانت الأمور كلها تعمل لصالحي، وأقسمت ألا أفوت الفرصة التي ألقى بها القدر في طريقي ولن أدخر جهدًا ولا عزيمة.

كانت الشمس في طريقها للغروب بحلول الوقت الذي بلغت فيه قمة التل، والمنحدرات الشاسعة بالأسفل خضراء ذهبية من جانب، ورمادية باهتة من الجانب الآخر. ورأيت سديمًا في الأفق البعيد، مزينًا بالنتوءات البديعة لهضبتي بيليفر وفيكسن. لم أسمع صوتًا على امتداد الرابية ولا استشعرتُ حركة، باستثناء طائرٍ رمادي كبير، نورس ربما أو كروان، يحلق عاليًا في السماء الزرقاء. بدا أنني وهذا الطائر وحدنا بين قبة السماء الهائلة، والصحراء الممتدة أسفل منها. بعث المشهد المقفر، وكذلك شعوري بالوحدة والغموض الذي يكتنف مهمتي ومدى إلحاحها، برعشة في قلبي. لم أر أثرًا للصبي. لكنني رأيت بالأسفل بين شقوق التلال مجموعة من الأكواخ الحجرية القديمة، وبينها كوخ له سقف يحميه من شطحات الطقس. قفز قلبي بداخلي حينما رأيته. لا بد أن هذا هو الجحر الذي يختبئ فيه الغريب. أخيرًا بلغت قدماي مَكمَنَهُ، وأصبح سره في متناول يدي.

اقتربت من الكوخ بحذرٍ شديد مثلما يفعل ستابلتون حينما يقترب بشبكته لاصطياد فراشة ساكنة، وحينها أدركت أنه كان يُستخدم مسكنًا في الآونة الأخيرة. أفضى طريق متعرِّج بين الصخور إلى الفتحة الخربة التي كانت بابًا ذات يوم بعيد. كان السكون مخيمًا على المنطقة بأكملها. قد يكون الغريب مختبئًا هناك، أو يجوب الرابيةَ بعيدًا. ثار في أعماقي حس بالمغامرة. ألقيت سيجارتي وقبضت على مسدسي، ومشيت بخفة نحو الباب، ثم نظرت إلى الداخل فلم أجد أحدًا.

غير أني وجدتُ وافرًا من الأدلة التي أكَّدت لي إني لم أُخطئ الاستنتاج. كان هذا دون شك المكان الذي يعيش فيه الرجل. كان هناك بعض الملاءات المطوية والموضوعة داخل عازل للماء على اللوح الحجري الذي نام عليه ذات مرة رجل العصر القديم. وكان الرماد الباقي من النيران متراكمًا في مدفأة بدائية، وبجانبها بعض أدوات الطبخ، ودلو ممتلئ إلى نصفه بالماء. وقد دلَّت سلة المهملات الملأى بعلب الطعام الخالية أن المكان كان مسكونًا لفترة ليست بالقصيرة، وبينما بدأت عيناي تعتادان الضوء الضعيف رأيتُ كوبًا صغيرًا في زاوية الكوخ وبجانبه زجاجة نصف مملوءة بالخمر. كما كان هناك حجر مسطح

في وسط الكوخ يُستخدم كمنضدة، وُضِعت عليه صرة قماشية صغيرة – الصرة ذاتها دون ريب – التي رأيت الصبي يحملها فوق كتفه عبر المنظار. كانت تحوي رغيفَ خبز وبعض قطع اللحم وعلبتين من الخوخ المحفوظ. فحصتُ ما بها ثم أعدتها إلى موضعها، فدق قلبي بعنف حين رأيتُ الوريقة المدسوسة أسفلها. رفعتها لأقرأ ما كُتب عليها بخط رديء بقلم رصاص:

«الدكتور واتسون ذهب إلى كومب تريسي»

ظللت واقفًا للحظة ممسكًا بالورقة، أحاول فهم مغزى هذه الرسالة المقتضبة. إن هذا الرجل الغامض يلاحقني أنا عوضًا عن السير هنري. لَم يتبعني بنفسه، بل فوَّض أحدهم – الصبي على الأرجح – لكي يقتفي أثري، وتلك الوريقة ما هي إلا تقريره. لا بد أنني لم آخذ خطوة على الرابية دون مراقبة الصبي وتقاريره. لطالما شعرت بقوة خفية، شبكة ذكية تُحاك من حولنا بمهارة ودقة لا متناهية، وتُضيق علينا الخناق بخفة بالغة، لدرجة أن المرء لا ينتبه لوقوعه فيها إلا بغتةً وبعد فوات الأوان.

خطر لي أنه ربما هنالك المزيد من التقارير، فرُحت أبحث عنها في أرجاء الكوخ. لكنني لم أجد أثرًا لأي شيء من هذا القبيل، ولا عثرت على دليل يكشف عن شخصية ساكن هذا المكان الغريب أو نواياه، باستثناء أني صرت متيقنًا من أنه شخص متقشف لا يبالي كثيرًا برغد العيش. تذكرت الأمطار الغزيرة ونظرت إلى السقف المليء بالفتحات، فأدركت مدى إلحاح وثبات الغاية التي أبقته هنا في تلك الظروف القاسية. أهو عدونا اللدود أم ملاكنا الحارس؟ أقسمت جهد يميني أني لن أغادر هذا الكوخ حتى أعرف الإجابة.

في الخارج كانت الشمس تغوص إلى أسفل، والجهة الغربية تتألق باللونين القرمزي والذهبي، وتعكس ألوانها في رقعٍ حمراء على مستنقع جريمبن العظيم. رأيت من بعيد برجي قصر باسكرفيل، والدخان المتصاعد الذي يميز قرية جريمبن. وبين الاثنين خلف التل رأيت منزل آل ستابلتون. بدا كل شيء لطيفًا وصافيًا وهادئًا في ضوء المساء الذهبي، لكنني وفيما أتأمل الأنحاء لم يلمسَّ روحي شيء من سلام الطبيعة، بل إنها ارتجفت من غموض ورعب المقابلة التي تقترب مع كل لحظة. بأعصابٍ مرتعدة، وعزم ثابت، جلست في فسحة الكوخ المظلمة وانتظرت بصبرٍ قاتم مجيء ساكنها.

وأخيرًا سمعت من بعيد وقع خطواته على الصخور إذ تدنو من الكوخ رويدًا رويدًا. انكمشت في أشد الأركان ظُلمة، وجذبتُ زناد المسدس بداخل جيبي، عازمًا ألا أكشف عن نفسي إلا بعد الظفر برؤية الغريب أولًا. توقَّف صوت خطواته لفترة وجيزة، ثم عادت لتدنو من جديد فسقط ظله على مدخل الكوخ.

ثم إذا بصوتٍ أعرفه جيدًا يقول: «إنها ليلة بديعة يا عزيزي واتسون. أظن أن عليك الخروج من هذا الكوخ والاستمتاع بها».

الفصل الثاني عشر

موتٌ على الرابية

تجمدت في مكاني مبهور الأنفاس، أكاد لا أصدق أذنيَّ. ثم عادت إليَّ حواسي وصوتي، بينما شعرت في لحظة بعبء المسؤولية الساحق ينزاح عن كاهلي. هناك رجلًا واحدًا في العالم بأسره يتكلم بهذا الصوت الساخر الهادئ.

صحت قائلًا: «هولمز! هولمز!»

قال: «اخرج إليَّ، واحذر من فضلك أن يصيبني مسدسك».

خرجت من باب الكوخ البدائي محنيًّا، وهناك رأيته جالسًا فوق صخرة بالخارج، وعيناه الرماديتان تلمعان باستمتاع وهو ينظر إلى ملامحي المذهولة. بدا نحيفًا ومنهكًا، لكنه مع ذلك كان منتبهًا ومتيقظًا، وقد سفعت الشمس وجهه ذا الملامح الحادة وخشَّنت الرياح بشرته. بدا بحُلَّته الصوفية وقبعته القماشية كأي سائح على الرابية، واستطاع بهوسه البالغ بالنظافة الشخصية الذي لطالما ميَّزه، أن يُبقي على لحيته حليقة وثيابه مهندمة كما لو كان لا يزال في منزلنا في شارع بيكر.

قلت وأنا أشدُّ على يده:

– في حياتي لم أسعد برؤية إنسان مثلما سعدتُ برؤيتك الآن.

– أو بالأحرى ذُهلت، هه؟

– حسنٌ، أعترف بهذا أيضًا.

– لم تكن المفاجأة من طرف واحد، ثق بي. فلم يخطر لي ببال مُطلقًا أنك وجدت مخبئي المؤقَّت، ناهيك بوجودك بداخله، حتى صرتُ على بعد عشرين خطوة من الباب.

– إنها آثار أقدامي، أليس كذلك؟

– لا يا واتسون؛ أخشى أنني لا أستطيع التعرُّف على آثار قدمك وسط جميع آثار أقدام العالم. أما إن أردت حقًّا خداعي فعليك أن تغير سجائرك المفضلة؛ فما إن رأيتُ عقب سيجارة مكتوبًا عليه (برادلي شارع أوكسفورد) حتى أدركت أن صديقي واتسون بالجوار. يمكنك أن تراه هناك بالقرب من الممر. لا شك أنك رميت به لحظة اندفاعك إلى داخل الكوخ الفارغ.

– هذا ما حدث.

– هكذا ظننت. وبخبرتي بإصرارك الجدير بالإعجاب، علمتُ أنك بداخل الكوخ تنتظر عودة الساكن، ومعك مسدسك. أحقًّا ظننت أنني المجرم؟

–لم أكن أعلم من تكون، لكنني عزمت على معرفة هذا.

– عظيم يا واتسون! وكيف عرفت مكاني؟ ربما رأيتني ليلةَ كنت تطارد السجين الهارب، حينما كنت من الحماقة بحيث وقفت وضوء القمر خلفي؟

– نعم، رأيتك آنذاك.

– ولا بد أنك بحثت في جميع الأكواخ حتى أتيت لهذا الكوخ؟

– لا، لقد شوهد الصبي الذي يخدمك، فاسترشدت به إلى المكان الذي ينبغي لي البحث فيه.

– العجوز صاحب المنظار دون شك. لم أفهم حينما لمحت انعكاس ضوء الشمس على العدسات أول مرة.

ثم نهض واختلس نظرة بداخل الكوخ قائلًا:

– هه، أرى أن كاترايت قد جلب بعض الإمدادات. ما هذه الورقة؟ لقد ذهبتَ إلى كومب تريسي إذن.

– نعم.

– لزيارة السيدة لورا ليونز؟

– بالضبط.

– أحسنت صنعًا! من الواضح أننا نسير في الخط نفسه، وأتوقع أننا عندما نتشارك نتائجنا سنفهم لُب القضية برمتها.

– حسنًا، إنني مسرور من كل قلبي أنك هنا، فالمسؤولية واللغز كانا يضغطان على أعصابي أكثر مما ينبغي. لكن كيف بحق السماء وصلت هنا، وما الذي تفعله؟ لقد ظننتك في شارع بيكر تحل قضية الابتزاز.

– هذا ما أردت منك أن تظنه.

صحت بشيءٍ من المرارة:

– إذن فقد استغللتني، وفوق ذلك لم تثق فيَّ! أظنني أستحق منك ما هو أفضل يا هولمز.

– يا صديقي العزيز، لقد كان عونك لا غنى عنه في هذه القضية بقدر ما كان في الكثير من القضايا الأخرى، وأرجو أن تسامحني إن بدوت كأنما أتلاعب بك. الحق أن هذا كله كان لأجلك نوعًا ما، وشعوري بوجود خطر داهم عليك هو ما دفعني إلى المجيء إلى هنا، والبحث في المسألة بنفسي. لو كنت معك أنت والسير هنري، فلا شك أن وجهة نظري كانت ستماثل وجهة نظرك، وكان حضوري لينبه الأعداء شديدي الخطورة فيتوخُّوا الحذر. أما وحالي هكذا، فقد كنت قادرًا على التنقل بحرية ما كنت لأنالها لو أقمتُ في القصر، ولسوف أبقى عنصرًا مجهولًا في القضية، مستعدًا لألقي بكل وزني في اللحظة الحرجة.

– ولكن لِمَ أخفيت كل هذا عني؟

– معرفتك لم تكن لتساعدنا، بل كانت ستؤدي على الأرجح إلى كشف سري. فربما وددتُ أن تخبرني بشيء، أو أحضرت لي شيئًا من سبل الراحة؛ بدافع الشفقة أو ما شابه، فنتورط في مخاطرة غير ضرورية. لقد اصطحبتُ كاترايت معي إلى هنا –أتتذكر الصبي الصغير في مكتب البريد؟ – وكان يفي

بمطالبي البسيطة: رغيف خبز، وبعض اللحم. ما الذي يحتاج إليه الرجل أكثر من ذلك؟ لقد منحني عينين إضافيتين وزوجين من الأقدام النشيطة جدًّا، وكليهما لا يُقدر بثمن.

– إذن فقد ضاعت تقاريري هباءً!

ارتعش صوتي إذ تذكرت عناء كتابتها واعتزازي بها.

أخرج هولمز حزمة أوراق من جيبه.

– ها هي ذي تقاريرك يا صديقي العزيز، وقد قُرئت بعناية شديدة، ثق بي. لقد رتبت الأمر بحيث تصل إليَّ بعد يومٍ واحد فقط من إرسالها. عليَّ أن أحييك أشد التحية على ما أبديته من حماس وذكاء في هذه القضية شديدة التعقيد.

كنت لا أزال موجوعًا من خيانة هولمز، لكن دفء مديحه طرد ما شعرتُ به من غضب. وقد شعرتُ أيضًا في أعماقي بأنه محق فيما قاله، وأن الأسلم لقضيتنا كان عدم معرفتي بوجوده على الرابية.

قال حين رأى الجهامة تتلاشى عن وجهي:

– هذا أفضل. والآن أخبرني بنتيجة زيارتك للسيدة لورا ليونز. لم يكن من الصعب أن أخمن ذهابك لزيارتها، فقد أدركت أنها الوحيدة في كومب تريسي التي يمكنها أن تساعدنا في المسألة. الواقع أنك لو لم تذهب اليوم لذهبتُ أنا على الأرجح غدًا.

غربت الشمس وحل الظلام على الرابية. بدأنا نشعر ببرودة الجو فدخلنا إلى الكوخ؛ بحثًا عن الدفء. وهناك جلسنا عند الغسق وأخبرت هولمز بمحادثتي مع السيدة. كان مهتمًّا لدرجة أنه جعلني أكرر بعض العبارات مرتين قبل أن أكمل.

وبعدما انتهيت قال:

– هذا بالغ الأهمية. إنه يملأ الثغرة التي لم أستطع سدها في هذه القضية المعقدة. لعلك تدري بالعلاقة الحميمة التي تجمع بين هذه السيدة والرجل المدعو ستابلتون؟

– لم أدرِ بوجود شيءٍ كهذا.

– لا شك لديَّ في هذا. إنهما يلتقيان، يتراسلان، ثمة تواطؤ أكيد فيما بينهما. والآن هذا يضع في أيدينا سلاحًا قويًّا جدًّا. لو أنني فقط استطعت استخدامه لإبعاد زوجته.

– زوجته؟

– ها أنا ذا أعطيك بعض المعلومات مقابل كل ما منحتني إياه. إن السيدة المعروفة لديك باسم الآنسة ستابلتون هي في الواقع زوجته.

– ربَّاه يا هولمز! هل أنت موقن مما تقول؟ كيف سمح للسير هنري بالوقوع في حبها؟

– وقوع السير هنري في حبها لن يؤذي أحدًا سوى السير هنري. بيد أنه أولى عناية خاصة لمنع السير هنري من مغازلتها، كما لاحظتَ بنفسك. أكرر أن هذه المرأة هي زوجته وليست أخته.

– ولكن ما المغزى من تلك الكذبة المعقدة؟

– لأنه حدس بأنها ستكون أكثر نفعًا له إن ظُنَّ أنها امرأة حرة.

فجأة، تشكَّلت كل ظنوني المكبوتة وشكوكي المبهمة وتركزت على عالِم الطبيعة. ففي هذا الرجل الشاحب الهادئ، بقبعته المصنوعة من القش وشبكة فراشاته، رأيتُ شيئًا مروعًا، مخلوقًا ذا صبرٍ ودهاء لا محدودين، ووجه مبتسم وقلب دموي.

– إنه عدونا إذن – وهو من كان يطاردنا في لندن؟

– هكذا أظن.

– ورسالة التحذير – لا بد أنها كانت منها!

– بالضبط.

لاح في العتمة التي أحاطت بي طويلًا مكيدة بشعة، نصف مرئية، نصف مُفترضة.

– لكن هل أنت متأكد من هذا يا هولمز؟ كيف عرفت أن المرأة زوجته؟

– لأنه حين رآك أول مرة، أخبرك عن غير قصد معلومة حقيقية عن حياته، وأراهن أنه ندم عليها أشدَّ الندم. لقد كان ذات يومٍ مديرَ مدرسة في شمال إنجلترا. وليس أيسر من أن تستعلم في الهيئات التعليمية لتعرف كل شيء عن مدير مدرسة سابق. وبقليل من البحث عرفت أن إحدى المدارس أُغلقت في ظروف مروعة، وأن مالكها – الذي كان اسمه مختلفًا عن اسم صاحبنا – اختفى مع زوجته. وقد تطابقت أوصاف الرجلين. وحينما علمت أن الرجل المختفي كان متخصصًا في علم الحشرات، تأكَّدَت شكوكي.

بدأت الظلمة تنقشع، لكن الظلال لم تزل تُخفي الكثير.

سألته قائلًا:

– إذا كانت هذه المرأة حقًّا زوجته، فما علاقته بالسيدة لورا ليونز؟

– تلك هي إحدى الأشياء التي ألقت تحرياتك عليها الضوء. لقد وضَّحت مقابلتك مع السيدة الموقف كثيرًا. فلم أكن أعلم بطلاقها المرتقب من زوجها. في تلك الحالة، وبمعرفتها أن ستابلتون رجلٌ عزب، فليس لديها شك في أنها ستصبح زوجته.

– وعندما تعرف الحقيقة؟

– عندها سنجد السيدة أكثر عونًا لنا. لا بد أن تكون مهمتنا الأولى أن نراها غدًا. ألا تظن يا واتسون أنك انصرفت عن حراستك أطول مما يجب؟ إن مكانك في قصر باسكرفيل وليس هنا.

تلاشى آخر شعاعٍ أحمر في الجهة الغربية وأرخى الليل سدوله على الرابية. والتمعت بضع النجوم الخافتة في السماء البنفسجية.

قلت بينما أنهض:

– سؤال أخير يا هولمز. فليس ثمة أسرار بيني وبينك. ما معنى هذا كله؟ ما الذي يريده هذا الرجل؟

انخفض صوت هولمز بينما يجيب:

– إنها جريمة قتل يا واتسون. جريمة قتل عمد وحشية مع سبق الإصرار والترصد. لا تسألني عن التفاصيل. فإنني أنصب شباكي حوله مثلما ينصب هو شباكه حول السير هنري، وبمساعدتك سيصبح تحت رحمتي. وليس هناك إلا خطر واحد يهددنا. وهو أن يضرب ستابلتون ضربته قبل أن نفعل نحن.

لا أحتاج سوى يوم أو يومين على الأكثر وتكتمل قضيتي، لكن حتى ذلك الحين عليك حراسة السير هنري من كثب مثلما تراقب الأم المحبة ابنها العليل. وإن كانت مهمتك اليوم قد آتت ثمارها، فإنني أكاد أتمنى لو أنك لم تتركه وحده. أنصت!

شقت سكون الرابية صرخة مروعة، صرخة فاضت بالرعب والألم الممض، وجمَّدت الدم في عروقي.

شهقتُ قائلًا:

- يا إلهي! ما هذا؟ ماذا يعني؟

كان هولمز قد هبَّ واقفًا، ورأيتُ هيئته الرياضية القاتمة عند باب الكوخ، وكتفيه المقوستين، ورأسه المندفع نحو الأمام، وعينيه المحدقتين في الظلام.

- صه! همس قائلًا: «صه!»

كانت الصرخة تبدو عالية بسبب حدتها، لكنها إنما كان تهدر من مكانٍ بعيد في الرابية المظلمة. أما الآن فقد دوَّت في آذاننا أقرب وأعلى وأكثر إلحاحًا من السابق.

همس هولمز:

- من أين تأتي؟

وأدركت من ارتعاشة صوته أن هذا الرجل الحديدي قد اهتز حتى النخاع.

- من أين تأتي يا واتسون؟

أشرت في الظلام:

- من هناك، على ما أعتقد.

- كلا، من هناك!

ومرة أخرى اخترقت الصرخة المرعبة سكون الليلة أعلى وأقرب بعد. لكنها اختلطت بصوتٍ آخر، صوت زمزمة عميق مدمدم، صوت أشبه بالموسيقى لكنه متوعد، يتذبذب ارتفاعًا وانخفاضًا كهدير البحر المتواصل الخافت.

صاح هولمز:

- إنه الكلب! تعالَ يا واتسون، تعالَ! ربَّاه، لعلَّ الأوان لم يفُت بعد!

انطلق يركض بخفة عبر الرابية، وانطلقتُ في أثره. ولكن الآن من مكانٍ ما وسط الرابية الممتدة أمامنا دوَّت صرخة يائسة أخيرة، تلاها صوت ارتطام ثقيل وخافت. وقفنا وأصخنا السمع، ولكن لم يمزق حجب الليل صوتٌ آخر.

رأيت هولمز يضع يده على جبينه في ذهول. ثم ضرب الأرض بقدمه وقال:

-لقد انتصر علينا يا واتسون. لقد تأخرنا كثيرًا.

- لا، لا، قطعًا لا!

- يا لحماقتي. وأنت يا واتسون، انظر ماذا يحدث حين تترك حراستك! لكن لو كان الأسوأ قد وقع فعلًا، فبحق السماء سأنتقم منه!

ورحنا نركض في الظلام متعثرين عبر الصخور والشجيرات، نصعد التلال ونهبط المنحدرات لاهثين، لا نحيد عن المسار الذي جاءت منه الأصوات المروعة. ومع كل صعود كان هولمز ينظر بحذر في محيطه، لكن الظلال تكاثفت على الرابية دون أثرٍ لمخلوق يتحرك على سطحها المخيف.

– هل ترى أي شيء؟

– لا.

– لكن أنصت، ما هذا؟

تنامى إلى مسامعنا أنَّة خافتة. ثم سمعناها ثانيةً إلى يسارنا! انتهى النتوء الصخري في تلك الجهة بجرف يطل على منحدرٍ تتناثر فيه الأحجار. وعلى ذلك المنحدر المتعرِّج لمحنا جسمًا غريبًا داكنًا. ركضنا نحوه فبدأ يتضح لنا شيئًا فشيئًا. كان رجلًا ممددًا على الأرض ووجهه إلى أسفل، وقد انثنى عنقه تحته في زاوية بشعة، وكانت كتفاه مقوستين وظهره محدَّبًا كأنما يمارس شقلبة بهلوانية. كان منظره مشوهًا لدرجة أنني لم أدرك لحظتها أن الأنَّة كانت تشي بخروج روحه. خمدت كل الأصوات فلم نسمع همسًا ولا خشخشة من هذه الجثة القاتمة التي انحنينا فوقها. وضع هولمز يده عليه ثم رفعها ثانية بصيحة فزع. وقد أضاء عود الثقاب الذي أشعله أصابعه الملطخة بالدم، وانعكس على البركة المريعة التي بدأت تتسع ببطء من جمجمة الضحية المهشمة. ثم أضاء شيئًا آخر أثار الرعب في قلوبنا – إنها جثة السير هنري باسكرفيل!

كان من المستحيل أن ينسى أي منا تلك الحُلَّة الصوفية الحمراء الغريبة –الحُلَّة نفسها– التي ارتداها في لقائنا الصباحي الأول في شارع بيكر. اختلسنا نظرة واحدة واضحة إليها، ثم تذبذب ضوء الثقاب وانطفأ، تمامًا مثلما انطفأ في روحينا الأمل. تأوه هولمز في ألم ورأيت وجهه الممتقع في الظلام.

كوَّرتُ قبضتي صائحًا:

– الشيطان! الشيطان! ويل لي يا هولمز، لن أغفر لنفسي تركي إياه لهذا المصير البائس.

– الذنب ذنبي يا واتسون. فمن أجل أن أُكمل تحرياتي وأحلَّ قضيتي، رميتُ بحياة الرجل عرض الحائط. إنها أشدُّ ضربة تلقيتُها في مسيرتي المهنية. لكن كيف لي أن أعرف...؟ كيف لي أن أعرف أنه سيخاطر بحياته ويذهب إلى الرابية وحده مع كل تحذيراتي له؟

– لقد سمعنا صرخاته – ربَّاه، تلك الصرخات! – ومع ذلك لم نستطع إنقاذه! أين هو هذا الكلب الشيطاني الذي أودى بحياته؟ قد يكون متواريًا بين هذه الصخور الآن. وأين ستابلتون؟ يجب أن يلقى جزاءه.

– سوف أتأكد من هذا بنفسي. العم وابن أخيه كلاهما قُتل، أحدهما قتله الرعب من مجرد مرأى الوحش الذي ظنه خارقًا، والآخر لقي حتفه هربًا منه. والآن علينا أن نثبت العلاقة بين ستابلتون والوحش. فبخلاف ما سمعناه، ليس لدينا ما يثبت وجود الأخير، لأن مصرع السير هنري نجم عن سقوطه على تلك الصخور. ولكن بحق السماء، مهما أوتي هذا المجرم من الدهاء، سأوقعه في قبضتي قبل أن يمر عليه يوم آخر!

وقفنا نجترُّ مرارتنا على جانبي الجثة المهشمة، وقد سحقتنا هذه الكارثة المفاجئة غير القابلة للمحو، التي قضت على جهودنا المطولة بهذه النهاية الجديرة بالشفقة. بزغ القمر ونحن نتسلق إلى قمة الصخور التي سقط منها صاحبنا المسكين، ومن القمة أخذنا نحدِّق إلى الرابية المظلمة، بنصفيها الفضي والأسود. وعلى بعد أميال ناحية قرية جريمبن، رأينا ضوءًا ثابتًا أصفر لا يمكن أن يأتي إلا من منزل آل ستابلتون الوحيد. هززت قبضتي في اتجاهه وأنا ألعنه بمرارة.

- لِمَ لا نقبض عليه الآن؟

- ما زالت معلوماتنا ناقصة. إن هذا الرجل حذر وماكر إلى أبعد حد. والأمر ليس متوقفًا على ما نعرفه بقدر ما هو متوقف على ما نستطيع إثباته. وإن هي إلا حركة خاطئة واحدة وسيهرب هذا الشيطان من بين أيدينا إلى الأبد.

- ماذا يمكننا أن نفعل إذن؟

-أمامنا الكثير لنفعله غدًا. أما الليلة فليس علينا إلا إنهاء أوراق صاحبنا المسكين.

هبطنا مرة أخرى على الجرف شديد الانحدار، واقتربنا من الجثة السوداء الواضحة الممددة فوق الأحجار الفضية. وأثار مرأى تلك الأطراف الملتوية لديَّ نوبة من الألم، فاغرورقت عيناي بالدموع.

- علينا أن نرسل في طلب المساعدة يا هولمز! لن نستطيع حمله كل هذه المسافة إلى القصر. يا إلهي! هل جننت؟

كان هولمز قد أطلق صيحة فرح وانحنى على الجثة. ثم راح يرقص ويضحك ويشد على يدي. هل يُعقل أن يكون هذا صديقي المتحفظ الهادئ؟ إن له وجوهًا أخرى بكل تأكيد!

- لحية! لحية! هذا الرجل لديه لحية!

- لحية؟

- إنه ليس البارون – إنه – يا إلهي! إنه جاري السجين الهارب!

وفي تسرع محموم قلبنا الجثة، فأشارت لحيتها إلى القمر المضيء البارد في السماء. لم نكن لنخطئ تلك الجبهة البارزة والعينين الحيوانيتين الغائرتين. كان فعلًا الوجه ذاته الذي حدق إلينا في ضوء الشمعة من وراء الصخرة – وجه سيلدن السجين الهارب.

ثم اتضح لي كل شيء فجأة. تذكرت حين أخبرني البارون أنه أعطى باريمور ملابسه القديمة. فأعطاها باريمور لسيلدن لمساعدته في الهروب. حذاءٌ طويل، وسترة، وقبعة -كلها تعود للسير هنري- ما زالت المأساة شديدة القتامة، غير أن هذا الرجل كان على الأقل يستحق الموت وفقًا لقوانين البلاد. أخبرت هولمز بما تذكَّرت وقلبي يفيض امتنانًا وفرحًا.

قال هولمز: «إذن فقد تسببت ملابس الشرير البائس في مقتله. واضح أن الكلب كان يتتبع رائحة السير هنري – على الأرجح من حذائه الذي فقده في الفندق – ولذلك طارد هذا الرجل. بيد أن هذه المسألة غريبة جدًّا: كيف تأتَّت لسيلدن معرفة أن الكلب يتعقب أثره في الظلام؟»

- لقد سمعه.

– إن سماع كلب على الرابية لن يثير في مجرمٍ خطيرٍ كهذا نوبة الرعب التي تجعله يخاطر بأن يُقبَض عليه ثانيةً ويصرخ بجموح طلبًا للمساعدة. يبدو من صرخاته أنه ركض لمسافة طويلة بعد أن علم بتعقُّب هذا الحيوان لأثره. كيف علم ذلك؟

– إن اللغز الأغرب عندي هو لماذا هذا الكلب، بافتراض أن كل تخميناتنا صحيحة...؟

– أنا لا أفترض شيئًا.

– حسن إذن، لماذا أُطلق هذا الكلب الليلة. لا أظنه يركض بحرية طوال الوقت على الرابية. لن يطلق ستابلتون سراحه إلا إن كان لديه سبب ليعتقد في وجود السير هنري هناك.

– سؤالي هو الأكثر تعقيدًا، فإننا سرعان ما سنتمكن من الحصول على إجابة سؤالك، أما سؤالي فقد يظل لغزًا إلى الأبد. والآن ماذا سنفعل بجثة هذا البائس؟ لا يمكننا تركها هنا للثعالب والغربان.

– أقترح أن نضعها في أحد الأكواخ حتى نبلغ الشرطة.

– بالضبط. لا شك لديَّ أننا نستطيع حملها لهذه المسافة القصيرة. مرحى يا واتسوان، انظر! لقد جاءنا الرجل بنفسه، يا للروعة والوقاحة! لا تتفوه بكلمة تكشف عن شكوكك – ولا كلمة، وإلا ذهبت جميع خططي أدراج الرياح.

كان أحدهم يقترب منا عبر الرابية، ورأيت في فمه سيجارًا مشتعلًا. سطع ضوء القمر فوقه، واستطعتُ تمييز المشية الرشيقة المتبخترة لعالِم الطبيعة. توقف عندما رآنا، ثم واصل المشي مجددًا.

– رباه يا دكتور واتسون، أهذا أنت؟ إنك آخر من توقعتُ أن أراه على الرابية في هذا الوقت من الليل. ولكن، ويحي، ما هذا؟ هل تأذَّى أحد؟ كلا، لا تخبرني بأنه صاحبنا السير هنري!

تخطاني واندفع نحو القتيل ثم مال فوقه. سمعت شهقة حادة ثم وقع السيجار من بين أصابعه.

قال متلعثمًا: «من؟ من هذا؟»

– إنه سيلدن، المجرم الذي فرَّ من برنستاون.

استدار ستابلتون بوجهه المفجوع نحونا، ثم تغلب على ذهوله وخيبة أمله بجهدٍ بالغ. أخذ ينقل بصره من هولمز إليَّ، وقال:

– يا إلهي! يا لها من حادثة مريعة! كيف مات؟

– يبدو أنه سقط على هذه الصخور فانكسر عنقه. كنا نتمشى أنا وصديقي على الرابية حين سمعنا صرخة.

– لقد سمعتُها أنا أيضًا ولهذا خرجت. لقد قلقت على السير هنري.

لم أستطع كبح سؤالي: «لِمَ السير هنري بالتحديد؟»

– لأنني دعوته للمجيء إلى منزلي واندهشت لعدم حضوره، لذلك قلقت على سلامته حين سمعت الصرخات على الرابية. بالمناسبة –وأخذ ينقل نظراته بيني وبين هولمز مجددًا– «هل سمعتما شيئًا آخر بخلاف الصراخ؟»

قال هولمز: «لا. هل سمعت أنت؟»

– لا.

– ماذا تقصد إذن؟

– أوه، أنت تعلم الحكايات التي يتبادلها الفلاحون عن الكلب الأسطوري وما إلى ذلك. يُقال إن عواءه يُسمع ليلًا على الرابية. كنت أتساءل إن كان ثمة دليل على مثل هذا الصوت الليلة.

قلتُ: «لم نسمع شيئًا من هذا القبيل».

– وما نظريتك عن مقتل هذا البائس؟

– لا شك لديَّ في أن القلق والخوف قد أفقداه صوابه، فاندفع يركض عبر الرابية في حالة جنونية. وهكذا تعثر هنا ودُقَّ عنقه.

قال ستابلتون بتنهيدة بدت لي تنم عن ارتياح:

– يبدو أن هذه النظرية هي الأكثر منطقية. ما رأيك يا سيد شيرلوك هولمز؟

أومأ له صديقي أدبًا، وقال:

– لقد تعرفت عليَّ بسرعة.

– إننا ننتظر مجيئك هنا منذ أتى الدكتور واتسون. وقد جئت في الوقت المناسب لتشاهد هذه المأساة.

– نعم، فعلًا. لكن لا ريب لديَّ في أن تفسير صديقي يغطي الواقعة كلها. وإني سأحمل معي ذكرى غير سارة، وأنا عائدٌ غدًا إلى لندن.

– أوه، هل ستعود في الغد؟

– هذا ما أنويه.

– آمل أن تكون زيارتك قد سلطت بعض الضوء على هذه الأحداث التي تحيرنا؟

هز هولمز كتفيه، قائلًا:

– لا تجري الرياح دائمًا بما تشتهيه السفن. فالمحقق يحتاج إلى الحقائق، لا الأساطير أو الشائعات. إن هذه القضية مليئة بالغموض.

كان صديقي يتحدث بأسلوبه الأكثر صراحة وفتورًا. وما زال ستابلتون يرشقه بنظراته. ثم نظر إليَّ.

– كنت لأقترح حمل هذا البائس إلى منزلي، لولا أن مرآه سيتسبب لشقيقتي في ذعرٍ لا مسوغ له. أُوثِر أن نضع شيئًا على وجهه وننتظر حتى الصباح.

وهكذا حسمنا الأمر. دعانا ستابلتون إلى منزله، لكننا تملصنا منه ومشينا أنا وهولمز إلى قصر باسكرفيل، تاركين عالِم الطبيعة وحده. نظرنا خلفنا فرأيناه يسير ببطء على الرابية الواسعة، ومن خلفه تبدَّت تلك اللطخة السوداء على المنحدر الفضي، التي يكمن بين طياتها رجل آل إلى هذه الخاتمة المفجعة.

الفصل الثالث عشر

نَصبُ الشِّباك

قال هولمز بينما نسير معًا عبر الرابية: «إننا على مقربة أخيرًا، يا لجرأة هذا الرجل! كيف تمالك نفسه في مواجهة هذه الصدمة التي من شأنها أن تسبب الشلل، عندما اكتشف أن الشخص الخطأ قد سقط ضحية لمكيدته. لقد أخبرتك في لندن يا واتسون، وأقول لك الآن مرة أخرى، إننا لم نواجه قط خصمًا يستحق العناء أكثر من هذا الخصم».

– يؤسفني أنه رآك.

– وكذلك شعرتُ في البداية. لكن لم يكن لدينا مفر.

– كيف ستتأثر خططه الآن في رأيك بعد أن عرف بوجودك هنا؟

– قد يجعله هذا أكثر حذرًا، أو قد يدفعه إلى اتخاذ إجراءات يائسة في الحال. وقد يكون شديد الثقة في ذكائه، مثل معظم المجرمين الأذكياء، ويتخيل أنه قد خدعنا تمامًا.

– لمَ لا نلقي القبض عليه في الحال؟

– لقد ولدتَ لتكون رجل أفعال يا عزيزي واتسون. دائمًا ما تدفعك غريزتك لاتخاذ إجراءات حازمة. لكن لنفترض جدلًا أننا ألقينا القبض عليه الليلة، ماذا نجني من ذلك؟ لن نتمكن من إثبات أي شيء ضده. ثمة مكيدة شيطانية في الأمر! لو كان يتصرف من خلال وسيط بشري لتمكنا من العثور على بعض الأدلة، لكننا لو استطعنا جر هذا الكلب الرهيب إلى ضوء النهار فلن يساعدنا ذلك في وضع حبل المشنقة حول عنق سيده.

– لدينا ما ندينه به بكل تأكيد.

– ليس لدينا شيء، مجرد حدس وظن. سنكون مثار سخرية المحكمة لو جئنا بمثل هذه القصة ومثل هذا الدليل.

– لدينا وفاة السير تشارلز.

– لقد وُجد ميتًا دون أي أثر عليه. أنا وأنت نعرف أنه مات فَرَقًا، ونعرف أيضًا ما أثار رعبه، لكن كيف نجعل اثني عشر عضوًا محلفًا متبلد الحس يعرفون ذلك؟ ما الآثار التي تركها الكلب؟ أين آثار أنيابه؟ نحن نعرف بالطبع أن الكلب لا يعض جثة ميتة، وأن السير تشارلز مات قبل أن يلحق به الوحش. لكن علينا إثبات كل هذا، ولسنا في وضع يسمح بذلك.

– حسنٌ إذن، والليلة؟

– لسنا في حال أفضل كثيرًا الليلة. مجددًا، ما من علاقة مباشرة بين الكلب وموت الرجل. ولم نرَ الكلب قط. سمعنا صوته، لكن لا يمكننا إثبات أنه كان يعدو في أثر هذا الرجل. ثمة غياب كامل للدافع. لا يا

صديقي العزيز، يجب أن نتصالح مع حقيقة أننا نفتقر إلى قضية في الوقت الحالي، وأن الأمر يستحق منا المخاطرة في سبيل إقامة حُجة.

– وكيف تقترح فعل ذلك؟

– لدي آمال كبيرة فيما يمكن أن تفعله السيدة لورا ليونز لنا عندما تتضح لها الأمور. ولدي خطتي الخاصة أيضًا، ويكفي الغد شره، لكنني آمل أن تكون لي اليد العليا في النهاية قبل انقضاء اليوم.

لم أستطع أن أستخلص منه أكثر من ذلك، وتركته يسير غارقًا في أفكاره حتى بوابات قصر باسكرفيل.

– هل ستصعد؟

– نعم، لا أرى سببًا للاستمرار في التخفي. لكن لدي كلمة أخيرة يا واتسون. لا تقل شيئًا عن الكلب للسير هنري. دعه يظن أن موت سيلدن كان لنفس السبب الذي أرادنا ستابلتون أن نصدقه. سيكون أكثر شجاعة في مواجهة المحنة التي سيضطر لمواجهتها في الغد، عندما يتناول العشاء مع هؤلاء الأشخاص، إذا كنت أتذكر تقريرك على نحو صحيح.

– أنا أيضًا مدعو.

– يجب عليك أن تعتذر وتدعه يذهب بمفرده. سيكون ترتيب ذلك سهلًا. والآن إن كنا قد تأخرنا على موعد العشاء، فأعتقد أننا سنضطر إلى تناول شيء من الطعام قبل النوم.

غلبت سعادة السير هنري دهشته حينما رأى شيرلوك هولمز، إذ كان يتوقع منذ عدة أيام أن الأحداث الأخيرة ستأتي به من لندن. ومع ذلك فقد ارتفع حاجباه عندما وجد أن صديقي لم يأت بأية أمتعة ولا أي تفسير لغيابها. أشبعنا فضوله سريعًا، ثم وبينما نتناول العشاء متأخرًا، وضحنا للبارون القدر الذي بدا من الصواب أن يعرفه من تجربتنا. ولكن كان عليَّ قبلها أن أنقل الخبر المؤسف لباريمور وزوجته. ربما وجد باريمور راحة غير محببة فيما حدث، لكن زوجته بكت بمرارة في مئزرها. فقد كان للعالم كله رجلًا عنيفًا نصف حيوان ونصف شيطان؛ لكنه ظل عندها الفتى الصغير العنيد الذي عهدته في طفولتها، الطفل الذي كان يتشبث بيدها. إن الشرير الحقيقي هو من لا يجد امرأة واحدة ترثي له.

قال البارون: «كنت أشعر بالملل والكآبة في القصر طوال اليوم منذ غادر واتسون في الصباح. أظن أنني أستحق بعض المديح على إيفائي بوعدي. فلو لم أقسم على عدم الخروج بمفردي لربما حظيت ببعض المرح، فقد وصلتني رسالة من ستابلتون يدعوني فيها إلى لقائه».

قال هولمز بلهجة جافة: «ليس لدي شك في أنك كنت لتحظى ببعض المرح. بالمناسبة، أحسبك لا تعلم أننا أقمنا الحداد عليك بعد أن دُقَّ عنقك».

فتح السير هنري عينيه على اتساعهما: «كيف هذا؟»

– هذا البائس المسكين كان يرتدي ملابسك. أخشى أن خادمك الذي أعطاها له قد يواجه بعض المشكلات مع الشرطة.

– لا أرجح هذا. فما من علامة على أي منها تدل على أنها لي، على حد علمي.

– هذا من حسن حظه – بل من حسن حظكم جميعًا في الحقيقة، لأنكم جميعًا على الجانب الخطأ من القانون في هذا الأمر. لست متأكدًا مما إذا كان من واجبي كمحقق صاحب ضمير حي أن ألقي القبض على كل مَن في القصر. فتقارير واتسون هي أكثر الوثائق إدانة.

سأله البارون: «لكن ماذا عن القضية؟ هل استنتجت شيئًا من هذا التشابك؟ فلا أعلم إذا كنا أنا وواتسون قد أحرزنا أي تقدُّم منذ وصولنا إلى هنا».

– أعتقد أنني سأتمكن قريبًا من توضيح الوضع لك. فالقضية حتى الآن صعبة ومعقدة إلى أبعد حد. وما زالت بعض النقاط تحتاج إلى توضيح، لكن النتيجة واحدة في النهاية.

– لقد مررنا بتجربة واحدة، كما أخبرك واتسون بلا شك. فقد سمعنا صوت الكلب على الرابية، لذا يمكنني الجزم بأن الأمر ليس مجرد خرافة حمقاء. إنني على دراية بالكلاب منذ كنت في الغرب، وأعرف نوع الكلب عندما أسمع صوته. إذا أمكنك تكميم هذا الكلب وسلسلَته فأنا على استعداد للقسم بأنك أعظم محقق على مر العصور.

– أعتقد أنني سأكممه وأسلسله بإحكام إذا قدمت لي يد المساعدة.

– أيًّا كان ما تطلبه مني، فسوف أقوم به.

– عظيم وسوف أطلب أيضًا أن تقوم بذلك في طاعة عمياء، دون أن تسأل دائمًا عن السبب.

– كما تريد.

– إذا فعلت ذلك فأعتقد أن مشكلتنا ستُحل قريبًا على الأرجح. بلا شك ...

توقف فجأة وحدق بثبات إلى الهواء فوق رأسي. فسقط ضوء المصباح على وجهه الحازم الثابت لدرجة جعلته أشبه بتمثالٍ كلاسيكي واضح المعالم، مجسدًا لليقظة والترقب.

صحنا معًا: «ما الأمر؟»

حين خفض ناظرَيه، استطعت أن أرى كيف كان يقمع شعورًا داخليًّا ما. كانت ملامحه لا تزال هادئة، لكن عينيه تألقتا بجذل واستمتاع.

قال وهو يلوح بيده نحو صف اللوحات الذي يغطي الجدار المقابل: «اعذرني على إعجاب الذواقة، واتسون لا يعترف بمعلوماتي عن الفن، لكنها مجرد غيرة، لأن آراءنا عن الموضوع مختلفة. إن تلك حقًّا سلسلة بديعة من اللوحات».

قال السير هنري، وهو يرمق صديقي ببعض الدهشة: «حسنًا، يسعدني أن أسمع هذا منك. فلا أدَّعي أني أعرف الكثير عن هذه الأشياء، وقد أكون أمهَر في الحكم على حصان أو ثور أكثر من لوحة معلَّقة. لم يخطر لي أنك تجد وقتًا لمثل هذه الأشياء».

– إنني أعرف الفن الأصيل حينما أراه، وأنا أراه الآن. هذه هي نيلر، أقسم على هذا، تلك السيدة التي ترتدي الحرير الأزرق هناك، وهذا الرجل القوي الذي يضع شعرًا مستعارًا يجب أن يكون رينولدز. كلها لوحات عائلية، أليس كذلك؟

– بلى.

– هل تعرف الأسماء؟

– لقد حفَّظني باريمور أسماءهم، وأعتقد أنني ما زلتُ أتذكرها جيدًا.

– من هذا الرجل صاحب المنظار؟

– إنه الأدميرال باسكرفيل، الذي خدم تحت قيادة رودني في جزر الهند الغربية. والرجل ذو المعطف الأزرق ولفافة الورق هو السير ويليام باسكرفيل، الذي كان رئيس لجان مجلس العموم في عهد بيت.

– وماذا عن هذا الفارس المواجه لي – الذي يرتدي المخمل الأسود والدانتيل؟

– آه، حريٌّ بك أن تعرفه. إنه هوجو الشرير، السبب في كل متاعبنا، وهو من أطلق كلب آل باسكرفيل. من غير المحتمل أن ننساه.

حدقتُ إلى الصورة باهتمام وشيء من المفاجأة.

قال هولمز: «يا إلهي! لكنه يبدو هادئًا وسمحًا، بيد أني أراهن أن ثمة شرًّا خفيًّا يسكن في عينيه. لقد تخيَّلته أكثر شراسة ووحشية».

– ما من شك في الشخصية، فالاسم والتاريخ 1647 مدونان على ظهر اللوحة.

لم يقل هولمز الكثير، لكن بدا أن صورة الرجل القديم قد فتنَته، فقد ظلت عيناه مثبتتين عليها طوال تناولنا للعشاء. ولم أتمكن من تتبع مسار تفكيره إلا لاحقًا، عندما أوى السير هنري إلى غرفته. حينها قادني مجددًا إلى قاعة الطعام، حاملًا شمعته في يده، ثم رفعها أمام الصور المعلقة على الحائط والتي اصفرَّ لونها بمرور الزمن.

– هل ترى أي شيء هنا؟

نظرت إلى القبعة العريضة ذات الريش وخصلات الشعر الملتفة والياقة الدانتيل البيضاء، والوجه القويم الحاد الذي يعلوها. لم تكن ملامحه وحشية، لكنها كانت متزمتة وصارمة وقاسية، بفمه المزموم، وشفتيه الرفيعتين، وعينيه الباردتين غير المتسامحتين.

– هل يشبه أي أحد تعرفه؟

– ثمة شيء في فمه يشبه السير هنري.

– ربما مجرد إيحاء. انتظر لحظة!

اعتلى كرسيًّا ورفع الشمعة في يده اليسرى، وثنى ذراعه اليمنى ليغطي القبعة العريضة وجدائل الشعر الطويلة.

صحت في ذهول: «يا إلهي الرحيم!»

فقد برز وجه ستابلتون من اللوحة.

– ها أنت تراه الآن. إن عينيَّ مدربتان على تفحُّص الوجوه دون النظر إلى الزينة التي تحيط بها. فالصفة الأولى للمحقق الجنائي هي أن يرى من خلال التنكر.

– بيد أن هذا عجيب. كأنما هي صورته.

– نعم، إنه مثال مثير للاهتمام على قوة الوراثة، والتي تبدو جسدية وروحية. إن دراسة الصور العائلية كفيلة بحمل المرء على الإيمان بعقيدة تناسخ الأرواح. الرجل من نسل باسكرفيل – هذا واضح.

– ولديه خططٌ بخصوص الإرث.

– بالضبط. إن هذه الصدفة تمدنا بحلقة مفقودة لا ريب فيها. لقد نلنا منه يا واتسون، نلنا منه، وأجرؤ على القسم بأنه سيكون قبل ليلة الغد قد سقط في شبَاكنا عاجزًا كالفراشات التي يصطادها. لا ينقصنا سوى دبوس وفلين وبطاقة حتى نضيفه إلى مجموعتنا بشارع بيكر!

قالها ثم انفجر في واحدة من نوبات ضحكه النادرة بينما استدار مبتعدًا عن الصورة. لم أسمعه يضحك كثيرًا، ولطالما كانت ضحكته نذير شؤمٍ لشخص ما.

استيقظت باكرًا، لكن هولمز سبقني، فبينما أرتدي ثيابي رأيته عائدًا من الخارج.

قال وهو يفرك يدَيه مغتبطًا: «أمامنا يومٌ مزدحم، لقد نصبتُ شباكي كلها، ولم يبقَ إلا الاستدراج. سنعرف قبل نهاية اليوم إذا كنا قد نِلنا من صيدنا الكبير ذي الفم الرفيع أم أنه مرَّ عبر الشِّباك».

– أكنتَ على الرابية؟

– كنت أرسل تقريرًا من جريمبن إلى برنستاون أبلغهم فيه بوفاة سيلدن. أعتقد أن بإمكاني أن أعدك ألا يتعرض أحدكم لمشكلة تخص هذا الأمر. ثم التقيت بصديقي المخلص كارترايت، الذي كان سيظل متسمرًا يحرس باب كوخي كما يفعل الكلب عند قبر سيده، لو لم أطمئنه على سلامتي.

– وما الخطوة التالية؟

– أن أقابل السير هنري. آه، ها هو ذا!

قال البارون: «صباح الخير يا هولمز. تبدو كقائد عسكري يخطط لمعركة مع رئيس أركانه».

– هذا هو ما أفعله بالضبط. واتسون كان يريد التعليمات.

– وأنا كذلك.

– عظيم. علمت أنك مدعو الليلة لتناول العشاء مع صديقينا من آل ستابلتون.

– أتعشَّم أن تأتي أيضًا. إنهما شخصان ودودان جدًّا، وأنا واثق من أنهما سيسعدان بشدة لرؤيتك.

– أخشى أن علينا أنا وواتسون أن نذهب إلى لندن.

– إلى لندن؟

– نعم، أعتقد أننا سنكون أكثر نفعًا هناك في الوقت الحالي.

تجهم وجه البارون على نحو ملحوظ.

– كنت آمل أن تساعداني في فهم ما يحدث. فالقصر والرابية ليسا بالمكان الذي يحب المرء أن يكون وحيدًا فيه.

– يجب أن تثق بي ثقة عمياء يا صديقي العزيز وتفعل ما أطلبه منك. أخبر صديقَيك أنه كان ليسعدنا أن نأتي معك، لكن أمرًا طارئًا اضطرَّنا إلى الذهاب إلى المدينة. وإنَّا لنأمل أن نعود إلى ديفونشاير عما قريب. هلا تذكَّرت أن توصل هذه الرسالة إليهما؟

– إن كنت مُصرًّا.

– ما من بديل، أؤكد لك.

رأيت من حاجبي البارون تأثره البالغ بهجرنا له.

سأل ببرود:

– متى تنويان المغادرة؟

– بعد الإفطار مباشرة. سنستقل عربة إلى كومب تريسي، لكن واتسون سيترك أغراضه تعهدًا منه بالعودة إليك. وأنت يا واتسون، سترسل رسالة إلى ستابلتون لتخبره بأسفك على عدم استطاعتك الذهاب.

قال البارون: «تلح عليَّ فكرة مصاحبتكما، فلماذا أبقى هنا وحدي؟»

– لأنه واجبك. ولأنك وعدتني أن تفعل ما أطلبه منك، وقد طلبتُ منك أن تبقى.

– حسنٌ إذن، سأبقى.

– شيءٌ آخر! أريدك أن تستقل عربة إلى منزل ميريبت. لكن اطلب من السائق أن يعود بالعربة، وأخبر آل ستابلتون أنك تنوي الرجوع إلى القصر سيرًا على الأقدام.

– تقصد أن أسير عبر الرابية؟

– أجل.

– لكن هذا هو ما حذرتني كثيرًا منه.

– يمكنك القيام به هذه المرة بلا خوف. لو لم أكن واثقًا في شجاعتك وجرأتك ما كنت لأقترح عليك ذلك، لكنه أمرٌ لا بد منه.

– سأفعله إذن.

– وإن كانت لحياتك قيمة عندك، فلا تتجول في الرابية، بل سِر في الطريق المستقيم الذي يصل بين منزل ميريبت وطريق جريمبن، أي طريقك الطبيعي إلى القصر.

– سأفعل تمامًا كما تقول.

– جيد جدًّا. يسرني أن أغادر بعد الإفطار مباشرةً، حتى أتمكن من الوصول إلى لندن بعد الظهر.

أدهشتني هذه التعليمات كثيرًا. فقد تذكرت حين أخبر هولمز ستابلتون ليلة أمس بأن زيارته ستنتهي في اليوم التالي، لكن لم يخطر ببالي قط أنه يرغب في أن أرافقه. لم أستطع أن أفهم كيف يمكن أن يغيب كلانا في لحظة وصفها بنفسه أنها حاسمة. لكن لم يسعني إلا الطاعة العمياء؛ لذا ودَّعنا صديقنا الحزين، وفي خلال ساعتين كنا في محطة كومب تريسي نطلب من سائق العربة أن يعود إلى القصر. كان ثمة صبي صغير ينتظر على الرصيف.

– أتأمر بشيء يا سيدي؟

– أودُّ منك أن تستقل هذا القطار إلى المدينة يا كارترايت. وفي اللحظة التي تصل فيها أرسل برقية باسمي إلى السير هنري باسكرفيل، تقول فيها إن عليه إن وجد مفكِّرتي التي أسقطتها أن يرسلها

بالبريد المسجل إلى شارع بيكر.

– حسنًا يا سيدي.

– والآن اسأل في مكتب المحطة إن كانت لديهم أي رسائل لي.

عاد الفتى ببرقية سلمها إلى هولمز. وكانت تقول:

«استلمت البرقية. قادمٌ ومعي مذكرة اعتقال غير موقَّعة. أصل في الخامسة وأربعين دقيقة.

– ليستراد»

– هذه البرقية ردًّا على برقيتي التي أرسلتها في الصباح. إنه أفضل شرطي في مجاله، على ما أعتقد، وقد نحتاج لمساعدته. أما الآن يا واتسون، فأظن أنه ما من طريقة لتزجية الوقت أفضل من زيارة إحدى معارفك، السيدة لورا ليونز.

بدأت ملامح خطته للمعركة تتضح. كان يستخدم البارون لإقناع ستابلتون بأننا رحلنا بالفعل، في حين أننا في الحقيقة سنعود في اللحظة التي يكون فيها البارون في أمسِّ الحاجة إلينا. وإذا ذكر السير هنري لستابلتون أمر برقية هولمز تلك المرسلة من لندن، فسوف يزيل أي شكٍّ من ذهنه. بتُّ أرى حقًّا شباكنا تنغلق أكثر حول صيدنا ذي الفم الرفيع.

كانت السيدة لورا ليونز في مكتبها، وافتتح شيرلوك هولمز مقابلته بصراحة وصرامة أذهلتها إلى حدٍّ كبير.

قال: «إنني أحقق في الملابسات المُحيطة بوفاة الراحل السير تشارلز باسكرفيل. لقد أخبرني صديقي الدكتور واتسون بما أدليتِ به، وأيضًا بما أخفيتِه فيما يتعلق بهذه المسألة».

سألت بتحدٍّ: «وما الذي أخفيته؟»

– لقد اعترفتِ بأنك طلبت من السير تشارلز أن يقابلك عند البوابة في العاشرة. ونحن نعرف أن هذا هو مكان وفاته وموعدها. لقد أخفيتِ الصلة بين هذه الأحداث وبعضها.

– لا توجد صلة.

– إذا كان الحال كذلك، فيا لها من مصادفة استثنائية. لكنني أعتقد أننا سننجح في إيجاد صلة رغم ذلك. أودُّ أن أكون صريحًا معك تمامًا يا سيدة ليونز. إننا نعتبر هذه القضية جريمة قتل، وربما لن تدين الأدلة صديقك السيد ستابلتون وحده، بل زوجته أيضًا.

قفزت السيدة من مقعدها صائحة:

– زوجته!

– إن الحقيقة لم تعد سرًّا. إن المرأة التي كان يدعي أنها أخته هي في الحقيقة زوجته.

استأنفت السيدة ليونز جلستها. كانت يداها تمسكان بذراعي كرسيها، ورأيت أظافرها الوردية تتحول إلى اللون الأبيض من جراء ضغط قبضتها.

أخذت تُكرر: «زوجته! زوجته! إنه غير متزوج».

هز شيرلوك هولمز كتفيه.

– اثبت لي! اثبت لي! إن استطعت ذلك...!

لمعت عيناها بوميض غضبٍ كان أبلغ من أي كلمات.

قال هولمز، مستخرجًا عدة أوراق من جيبه:

– لقد أتيتك مستعدًّا لفعل هذا، هذه صورة التُقطت للزوجين في يورك قبل أربع سنوات. وقد كُتب على ظهرها (السيد والسيدة فانديلر) لكنك لن تجدي صعوبة في التعرف عليه، وعليها هي كذلك إذا كنتِ تعرفين شكلها. وها هي ذي ثلاث شهادات كتبها شهودٌ موثوقون لأوصاف السيد والسيدة فانديلر، اللذين كانا لا يزالان حينها في مدرسة سانت أوليفر الخاصة. اقرئيها وأخبريني إن كان يسعكِ الشك في هُوية هذين الشخصين.

نظرت السيدة ليونز إلى الصورة ثم رفعت عينيها إلينا بوجهٍ جمدته القسوة واليأس.

قالت: «هذا الرجل عرض عليَّ الزواج يا سيد هولمز، بشرط أن أتمكن من الطلاق من زوجي. لقد كذب عليَّ، ذلك الوغد، بكل طريقة ممكنة. لم يخبرني بكلمة حقيقية واحدة. ولماذا، لماذا؟ لقد تخيلت أن كل ما فعله إنما كان من أجلي. لكنني فهمتُ الآن أنني لم أكن سوى أداة في يديه. لمَ أظل وفيَّة لمن لم يكن وفيًّا لي قط؟ لمَ أحاول حمايته من عواقب أفعاله الشريرة؟ اسألني ما تشاء، ولن أخفيك سرًّا. وإنِّي لأقسم لك بشيء واحد، وهو أنني عندما كتبت الرسالة لم أتصوَّر قط أن أي ضررٍ قد يصيب الكهل، فقد كان أفضل صديقٍ لي».

قال شيرلوك هولمز: «أصدِّق كل ما تقولين يا سيدتي. لا بد أن سرد هذه الأحداث يؤلمك كثيرًا، وربما أخفف عنك إن أخبرتك أنا بما حدث. ما عليك سوى التصحيح إن وقعتُ في أي خطأٍ جوهري. هل كان ستابلتون هو من اقترح إرسال تلك الخطابات؟»

– هو من أملاها عليَّ.

– وقد علل ذلك، حسبما أظن، بأنك ستنالين مساعدة من السير تشارلز لتغطية النفقات القانونية المتعلقة بطلاقك.

– بالضبط.

– وبعد أن أرسلتِ الرسالة أثناكِ عن الالتزام بالموعد.

– لقد أخبرني أن احترامه لذاته سيقل إن دفع أي رجلٍ آخر المال لمثل هذا الغرض، وهو وإن كان رجلًا فقيرًا، فسوف يدفع آخر بنسٍ لديه لإزالة العقبات التي فرَّقت بيننا.

– يبدو أنه شديد التمسُّك بمبادئه. وبعدها لم تسمعي أي شيء حتى قرأتِ أخبار الوفاة في الجريدة.

– نعم.

– وقد جعلك تقسمين ألا تقولي أي شيء عن موعدك مع السير تشارلز.

– نعم. لقد قال إن وفاته يكتنفها الغموض، وأن الشبهات ستحوم حولي إذا ظهرت الحقائق. وهكذا أقنعني بأن ألتزم الصمت.

– معك. ولكن ألم تساورك أي شكوك؟

ترددَت ونظرَت إلى الأسفل ثم قالت:

– كنتُ أعرفه جيدًا. لكنه ما دام مخلصًا لي فلزامًا عليَّ أن أُخلص له.

قال شيرلوك هولمز: «أعتقد أنكِ نجوت بأعجوبة. فقد كان يعرف أنه تحت رحمتك لأنكِ تعلمين سره، ومع ذلك ما زلتِ على قيد الحياة. كنت تسيرين لعدة أشهر على حافة هاوية. والآن علينا أن نتمنى لكِ نهارًا هنيئًا يا سيدة ليونز، وسوف نتواصل معكِ مرة أخرى على الأرجح عما قريب».

قال هولمز بينما وقفنا منتظرين وصول القطار السريع القادم من المدينة: «لقد اكتملت قضيتنا، والصعوبات تتلاشى من أمامنا واحدة تلو الأخرى. قريبًا سأكون في موقف يسمح لي بوضع واحدة من أكثر الجرائم تفرُّدًا وإثارة في عصرنا الحديث في سردٍ واحدٍ متصل. يتذكر دارسي علم الجريمة حوادث مشابهة، مثل تلك التي وقعت في جودنو بروسيا الصغيرة في عام 1866، وبالطبع جرائم قتل أندرسون بكارولينا الشمالية، بيد أن هذه القضية تتميز ببعض السمات التي تفوقهم جميعًا. فحتى هذه اللحظة ليست لدينا أدلة واضحة ضد هذا الرجل شديد المكر. لكنني سأتفاجأ إن لم تتضح كثيرًا قبل أن نخلد إلى فُرُشنا في المساء».

جاء قطار لندن السريع مطلقًا صفارته في المحطة، واندفع رجلٌ ضئيل الحجم يشبه كلب بولدوج من إحدى عربات الدرجة الأولى. تصافحنا جميعًا، ورأيتُ فورًا من نظرة التوقير التي نظر بها ليستراد إلى رفيقي كم تعلَّم منه الكثير منذ عملا معًا لأول مرة. أمكنني أن أتذكر بقوة نظريات صاحب الأدلة التي اعتادت أن تثير سخرية الرجل العملي.

سأل: «هل من أخبار جيدة؟»

قال هولمز: «أفضل شيء منذ سنوات. أمامنا ساعتان قبل أن نفكر في التحرُّك. لنستفِد من هذا الوقت في تناول العشاء، وبعدها يا ليستراد سنُخرج ضباب لندن من حلقك حينما تستنشق نسيم المساء العليل في دارتمور. هل سبق لك زيارتها؟ آه، حسنًا، لا أظنك ستنسى زيارتك الأولى لها».

الفصل الرابع عشر

كلب آل باسكرفيل

أحد عيوب شيرلوك هولمز – إن كان للمرء أن يعتبره عيبًا بحق – هو أنه يكره بشدة الإفصاح عن خططه كاملة لأي أحد حتى لحظة تنفيذها. يعود هذا في جزء منه إلى طبيعته المهيمنة التي تعشق السيطرة ومفاجأة من حوله، وفي جزء آخر إلى حذره المهني الذي يدفعه إلى عدم المجازفة أبدًا. غير أن النتيجة تكون إرهاقًا بالغًا لمن يعملون كمساعدين أو معاونين له. وقد عانيت كثيرًا من جراء ذلك، لكنني لم أعان قط بقدر ما عانيت خلال هذه الرحلة الطويلة في الظلام. كان أمامنا اختبار كبير؛ فأخيرًا كنا على وشك إنهاء جهودنا المضنية، ومع ذلك لم يقل هولمز شيئًا، ولم يكن في إمكاني سوى تخمين الطريقة التي ينوي التصرف بها. توترَت أعصابي من الترقب عندما أخبرتني الرياح الباردة، التي مسَّت وجوهنا والمساحات المظلمة الخاوية على جانبي الطريق الضيق، أننا عُدنا مرة أخرى إلى الرابية. كل خطوة للخيل، وكل انعطافة للعجلات كانت تقربنا من مغامرتنا شديدة الخطورة.

أعاق وجود سائق عربة الأجرة حديثنا، لذا اضطررنا إلى الحديث عن أمور تافهة في حين كانت أعصابنا متوترة من الانفعال والترقب. وكان من دواعي ارتياحي – بعد هذا التقيُّد غير الطبيعي – أن تجاوزنا منزل فرانكلاند أخيرًا وعرفنا أننا نقترب من القصر ومن مسرح الأحداث. لم نستقلَّ العربة حتى الباب، بل ترجلنا بالقرب من بوابة الطريق المشجر. نقدنا الحوذيَّ أجرته ووجَّهناه إلى العودة إلى كومب تريسي على الفور، بينما بدأنا السير إلى منزل ميريبت.

– هل أنت مسلح يا ليستراد؟

ابتسم المحقق الصغير.

– ما دمتُ أرتدي سروالًا فلدي جيب عند الفخذ، وما دام لدي جيبٌ عند الفخذ فلدي بداخله سلاح.

– جيد! أنا وصديقي مستعدان أيضًا لحالات الطوارئ.

– لقد اقتربت بشدة من إنهاء هذه القضية يا سيد هولمز. ماذا نفعل الآن؟

– ننتظر.

قال المحقق برجفة، ناظرًا إلى المنحدرات المظلمة للتلال من حوله وإلى بحيرة الضباب التي تخيم فوق مستنقع جريمبن: «أرى أضواء منزل أمامنا».

– إنه منزل ميريبت، نهاية رحلتنا. يجب أن أطلب منك السير على أطراف أصابعك وألا تتحدث إلا همسًا.

تحركنا بحذر على طول الممر كما لو كنا متجهين إلى المنزل، لكن هولمز أوقفنا عندما أصبحنا على بعد مائتي ياردة منه.

قال: «هذا سيفي بالغرض. هذه الصخور على اليمين تشكِّل ستارًا رائعًا».

– هل سننتظر هنا؟

– نعم، سننصب كميننا الصغير هنا. ادخل إلى هذا التجويف يا ليستراد. لقد دخلت المنزل من قبل يا واتسون، أليس كذلك؟ هل يمكنك تحديد أماكن الغرف؟ ما هذه النوافذ المغطاة بالشِبَاك في هذا الطرف؟

– أعتقد أنها نوافذ المطبخ.

– وماذا عن التي تليها، تلك التي ينبعث منها ضوء قوي؟

– هذه بالتأكيد غرفة الطعام.

– الستائر مرفوعة. أنت تعرف المكان على نحوٍ أفضل. فلتتسلل إلى هناك بهدوء وترى ما يفعلونه، ولكن أستحلفك بالله ألا تدعهم يعرفون أنهم مُراقَبون!

تسللتُ على أطراف أصابعي على الممر وانحنيتُ خلف الجدار المنخفض المحيط ببستان الأشجار المتقزمة. تسللت في ظله حتى وصلت إلى نقطة يمكنني منها النظر مباشرة عبر النافذة المفتوحة.

لم يكن في الغرفة سوى رجلان، ستابلتون والسير هنري. كانا يجلسان في مواجهتي على جانبي المائدة المستديرة. وقد أمسك كل منهما بسيجاره، ووُضِعَت أمامهما قهوة ونبيذ. كان ستابلتون يتحدث بحيوية، بينما بدا البارون شاحبًا ومشتتًا. ربما يثقل كاهله التفكير في تلك الرحلة المنفردة عبر الرابية المشؤومة.

وبينما أراقبهما نهض ستابلتون وغادر الغرفة، بينما ملأ السير هنري كأسه مجددًا واسترخى في مقعده، نافثًا دخان سيجاره. سمعت صرير باب، وحذاء يطأ الحصى. مرَّت الخطوات على طول الممر على الجانب الآخر من الجدار الذي جثوتُ وراءه. نظرت من أعلى فرأيتُ عالِم الطبيعة يتوقف عند باب كوخ خارجي في أحد أركان البستان. أدار مفتاحًا في القفل، وعندما دخل انبعث صوتُ شجارٍ غريب من الداخل. لم يمكث بالداخل غير دقيقة أو نحوها، ثم سمعت صوت المفتاح يدور مرة أخرى، ثم تجاوزني وعاود الدخول إلى المنزل. رأيته ينضم مرة أخرى إلى ضيفه، وتسللت بهدوء عائدًا إلى حيث ينتظرني رفيقاي كي أخبرهما بما رأيت.

سألني هولمز عندما أنهيت كلامي: «أمتأكدٌ أنت يا واتسون من أن السيدة ليست بالداخل؟»

–نعم.

– أين عساها تكون إذن، فما من غرفة مضيئة إلا غرفة المطبخ؟

– لا أدري.

قلتُ آنفًا إن ثمة ضبابًا أبيضَ كثيفًا يخيم على مستنقع جريمبن العظيم. وقد أخذ ينجرف ببطءٍ تجاهنا، وتراكم فوق بعضه كالجدار على مقربة منا، منخفِض لكنه سميكٌ وكثيف. لمع ضوء القمر فوقه ليبدو كأنه حقل جليد متلألئ وعظيم، وبدت رؤوس التلال البعيدة كالصخور فوق سطحه. رمقه هولمز، وتمتم بنفاد صبرٍ وهو يراقب انجرافه البطيء.

– إنه يتحرك في اتجاهنا يا واتسون.

– هل هذا خطير؟

– خطير للغاية في الحقيقة. إنه الشيء الوحيد على وجه الأرض الذي يمكنه إفساد خططي. لا يمكن للسير هنري البقاء بالداخل أطول من ذلك. إنها العاشرة بالفعل. ونجاحنا وحتى حياته يتوقفان على خروجه قبل وصول الضباب إلى الممر.

كان الليل صافيًا وبديعًا حولنا. ولمعت النجوم بوهجٍ بارد برَّاق، بينما غمر القمر نصف المكتمل المشهد كله بضوءٍ ناعم شحيح. أمامنا جثم الهيكل المظلم للمنزل، بسقفه المسنن ومداخنه الشامخة المحددة بوضوح في قبالة السماء الفضية. ومن النوافذ السفلية امتدت خيوط عريضة من الضوء الذهبي على البستان والرابية، ثم انقطع أحدها فجأة. كان الخادم يغادر المطبخ. لم يبقَ سوى المصباح الذي يضيء غرفة الطعام حيث لا يزال الرجلان – المضيف القاتل والضيف الغافل – يتجاذبان أطراف الحديث ويدخنان سيجاريهما.

في كل دقيقة، كان ذلك السهل الشبحي الأبيض الذي يغطي نصف الرابية ينجرف أقرب فأقرب تجاه المنزل. وقد بدأ أول خيوطه يلتف حول المربع الذهبي من الضوء الساقط من النافذة. أما الجدار البعيد من البستان فكان قد اختفى بالفعل، وصارت الأشجار واقفة داخل دوامة من البخار الأبيض. وبينما راقبناها التفَّت سُحُب الضباب الزاحفة حول جانبي المنزل وامتدَّت ببطء لتجتمع في سحابة واحدة كبيرة، طفا الطابق العلوي والسقف فوقها مثل سفينة غريبة فوق بحرٍ غامض. ضرب هولمز الصخرة التي أمامنا بيده في انفعال وسحق الأرض بقدميه بصبرٍ نافد.

– إن لم يخرج في غضون ربع الساعة سيغطي الضباب الممر. في غضون نصف الساعة لن نكون قادرين على رؤية أيدينا أمامنا.

– هل يجب أن ننتقل إلى أرضٍ أكثر ارتفاعًا؟

– نعم، يجدر بنا أن نفعل.

وهكذا، بينما أخذت سحابة الضباب تتقدم باتجاهنا، تراجعنا حتى صرنا على بُعد نصف ميلٍ من المنزل، وظل ذلك البحر الأبيض الكثيف يقترب ببطء دونما هوادة، وقد صبغ ضوء القمر حافته العليا باللون الفضي.

قال هولمز: «إننا نبتعد كثيرًا. لا يمكننا أن نترك السير هنري يجتاز الضباب قبل أن يبلغنا. علينا أن نظل في مكاننا هنا».

سقط على ركبتيه وألصق أذنه بالأرض ثم قال: «حمدًا لله، أعتقد أنني أسمعه قادمًا».

كسر صوت خطوات سريعة الصمتَ على الرابية ونحن جاثمون بين الصخور. حدَّقنا بانتباهٍ شديد إلى السحابة ذات السطح الفضي أمامنا. تعالى صوت الخطوات، ومن بين الضباب الذي يشبه الستار، خطا الرجل الذي كنا ننتظره. نظر حوله في دهشة عندما خرج إلى الليل الصافي الذي تضيئه النجوم. ثم تقدم بسرعة على طول الممر، ومرَّ بالقرب من المكان الذي نقبع فيه، ثم صعد المنحدر الطويل خلفنا. وبينما يسير كان ينظر باستمرار من فوق كتفيه، كما يجدر برجلٍ أضناه القلق.

صاح هولمز «صه!» وسمعت صوت قرقعة مسدَّسه يُعَد للإطلاق. «احترس! إنه قادم!»

سمعنا طقطقة خافتة متواصلة من مكان ما في قلب السحابة الزاحفة. كانت السحابة على بعد خمسين ياردة من المكان الذي قبعنا فيه، وقد حدق إليها ثلاثتنا، غير واثقين أي رعبٍ كان يوشك على الخروج من قلبها. كنت أرقد بجانب هولمز، ونظرت للحظة إلى وجهه. كان باهتًا وجذِلًا وقد تألقت عيناه في ضوء القمر. لكنهما اتسعتا فجأة بنظرة متجمِّدة ثابتة، وانفرجت شفتاه في دهشة. وفي اللحظة ذاتها أطلق ليستراد صرخة رعب وألقى بنفسه على وجهه منبطحًا على الأرض. هببتُ واقفًا، ويدي المتجمدة قابضة على مسدسي، وقد شُل عقلي من المخلوق المروع الذي انبثق أمامنا من بين الضباب. كان كلبًا، كلبًا هائل الحجم أسود كالفحم، كلبًا لم ترَ عينٌ بشرية مثله قط. اندلعت النار من فمه المفتوح، وتوهجت عيناه بنظرة ملتهبة، وأحاط لهيبٌ وامض بخطمه ولبدته ولغده. لم يكن لعقلٍ مضطرب قط في أكثر أحلامه هذيانًا أن يتخيل شيئًا أكثر ضراوة، أو شيطانية، أو إثارة للرعب من هذا المخلوق القاتم، بوجهه الوحشي الذي خرج علينا من حائط الضباب.

وثب المخلوق الأسود الضخم وثبات طويلة على الممر، متتبعًا خُطى صاحبنا بقوة. أصابنا الشلل من ذاك الظهور، لدرجة أننا سمحنا له بتجاوزنا قبل أن نستعيد رباطة جأشنا، ثم أطلقنا -أنا وهولمز- النار معًا، وأطلق المخلوق عواءً مريعًا، فعلمنا أن أحدنا على الأقل قد أصابه. لكنه لم يتوقف، بل مضى يعدو. وبعيدًا على الطريق رأينا السير هنري ينظر إلى الخلف، وقد شحب وجهه في ضوء القمر، ورفع يديه في رعب، يحدق بيأسٍ إلى المخلوق المرعب الذي يطارده.

لكن عواء الألم الذي سمعناه من الكلب كان قد بدَّد جميع مخاوفنا. فما دام يشعر بالألم فهو ليس خارقًا، وما دمنا استطعنا أن نجرحه فبوسعنا قتله. لم أرَ قط رجلًا يركض مثلما ركض هولمز في تلك الليلة. كنت أحسب أنني سريع، لكنه تجاوزني بقدر ما تجاوزت المحقق ضئيل الحجم. سمعنا صرخة تلو الصرخة تنطلق من السير هنري أمامنا وزئير عميق من الكلب بينما انطلقنا مسرعين نحو الممر. ووصلت في الوقت المناسب لأرى الوحش يثب على ضحيته، ويلقيه على الأرض محاولًا نهش حلقه. ولكن في اللحظة التالية أفرغ هولمز خمس رصاصات من مسدسه في خاصرة المخلوق. وبعواءٍ أخير معذب ونهشة شرسة في الهواء، تدحرج على ظهره، وخدشت أقدامه الأربعة الهواء بضراوة، ثم سقط بإعياءٍ على جانبه. انحنيت لاهثًا وضغطت بمسدسي على الرأس المخيف المتلألئ، لكنه كان من غير المجدي أن أضغط على الزناد، فقد مات الكلب العملاق.

رقد السير هنري فاقد الوعي حيث سقط. ففككنا ياقته وتنفس هولمز الصعداء عندما اكتشفنا أن عنقه خالٍ من الجروح، وأننا أنقذناه في الوقت المناسب. وبالفعل اختلج جفنا صاحبنا وبذل مجهودًا واهنًا ليتحرك. أقحم ليستراد قارورة البراندي الخاصة به بين أسنان البارون، الذي نظر إلينا بعينين مذعورتين.

همس قائلًا: «يا إلهي! ما هذا؟ ماذا كان هذا بربك؟»

قال هولمز: «أيًّا ما كان، فهو ميت. لقد تخلصنا من شبح العائلة إلى الأبد».

كان المخلوق المدد أمامنا رهيبًا من حيث حجمه وقوته. لم يكن دمومًا[3] نقيًا ولا درواسًا[4] خالصًا؛ لكن بدا كأنه مزيج بين الاثنين، شرسٌ ومتوحش وضخم مثل لبؤة صغيرة. حتى في هذه اللحظة، وفي سكون الموت، بدا أن الفكين الضخمين يقطران لهبًا أزرق، وأحاطت بالعينين الصغيرتين الغائرتين الوحشيتين حلقة من النار. وضعتُ يديَّ على الخطم المتوهج، وعندما رفعتهما وجدت أصابعي تتوهج وتلمع في الظلام.

قلتُ: «مادة فوسفورية».

قال هولمز وهو يتشمم الحيوان النافق: «إنها مُجهَّزة بدهاء، بحيث لا تُعيق رائحتها حاسة الشم عند الكلب. إننا ندين لك باعتذارٍ عميق أيها السير هنري لتعريضك لمثل هذا الرعب. لقد كنتُ مستعدًّا لكلب صيد، وليس لمثل هذا المخلوق. ولم يمنحنا الضباب سوى القليل من الوقت لاستقباله».

– لقد أنقذتَ حياتي.

– بعد أن عرَّضتُها للخطر أولًا. هل لديك ما يكفي من القوة للوقوف؟

– أعطني جرعة أخرى من هذا البراندي وسأكون مستعدًّا لأي شيء. حسنًا! والآن ساعدني على الوقوف. ماذا تقترح أن نفعل؟

– نتركك هنا. فلستَ في وضعٍ مناسب لخوض المزيد من المغامرات الليلة. إذا انتظرت، فسوف يعود أحدنا معك إلى القصر.

حاول أن يتهادى على قدميه؛ لكنه كان لا يزال شاحبًا بشدة وجميع أطرافه ترتجف. ساعدناه على الوصول إلى صخرة، حيث جلس ينتفض ووجهه مدفون بين يديه.

قال هولمز: «لا بد أن نتركك الآن. علينا أن ننهي باقي المهمة، فكل لحظة لها أهميتها. لقد أقمنا حُجتنا، والآن علينا أن نلقي القبض على رجلنا».

استكمل حديثه فيما نقتفي آثارنا عائدين بسرعة عبر الممر: «إن فرصة عثورنا عليه في المنزل تبلغ واحدًا في الألف. لا بد أن تلك الطلقات قد أخبرته بأن اللعبة انتهت».

– لقد كنا على مسافة بعيدة نوعًا ما، وربما يكون هذا الضباب قد عطله.

– لقد تبع الكلب ليصرفه بعد أن يُنجز مهمته. كُن على يقين من هذا. لا، لا، يقينًا سيكون قد رحل! لكننا سنفتش المنزل؛ لنتأكد.

كان الباب الأمامي مفتوحًا، فاندفعنا بسرعة من غرفة لغرفة لنُفاجِئ خادمًا كهلًا خرِفًا قابلنا في الرواق. لم يكن ثمة ضوء سوى ذاك القادم من غرفة الطعام، لكن هولمز أمسك بالمصباح ولم يترك ركنًا من المنزل دون أن يبحث فيه. لم نجد أثرًا للرجل الذي كنا نطارده. لكننا وجدنا أحد أبواب غرف النوم في الطابق العلوي موصدًا.

صاح ليستراد: «أحدهم هنا، يمكنني سماع صوت حركة. افتح الباب!».

جاء أنين خافت وخشخشة من الداخل. ضرب هولمز الباب بباطن قدمه فوق القفل مباشرة فانفتح بعنف. واندفع ثلاثتنا إلى الغرفة يحمل كل منا مسدسه في يده.

لكننا لم نعثر بداخلها على إشارة واحدة تنم عن وجود ذلك الشرير الجريء اليائس الذي توقعنا رؤيته. بل كنا في مواجهة شيء غريب وغير متوقع لدرجة أننا وقفنا للحظة نحدق في ذهول.

كانت الغرفة مؤثثة كمتحف صغير، وقد اصطف على الجدران عددٌ من الخزائن ذات الواجهات الزجاجية التي تمتلئ بمجموعات من الفراشات والعث التي كان التنقيب عنها هواية هذا الرجل المعقد والخطير. وفي وسط هذه الغرفة، كانت دعامة عمودية –وُضعت في وقت ما لتدعيم العارضة الخشبية القديمة التي أكلتها الديدان والتي امتدت بعرض السقف– وقد قُيِّد إليها جسد ملفوف ومربوط بإحكام بداخل الشراشف، لدرجة أن المرء لوهلة لا يسعه أن يميِّز إن كان هذا الجسد لرجلٍ أم لامرأة. رُبطت منشفة حول الحلق وثُبتت في الجزء الخلفي من الدعامة. وغطَّت أخرى الجزء السفلي من الوجه، ومن فوقها حدقت إلينا عينان داكنتان، عينان مليئتان بالبؤس والعار والتساؤل الرهيب. في خلال دقيقة كنا قد مزقنا الكمامة، وفككنا القيود، فانهارت السيدة ستابلتون على الأرض أمامنا. وعندما سقط رأسها الجميل على صدرها رأيت الحلقة الحمراء الواضحة التي تركها القيد حول رقبتها.

صاح هولمز: «الهمجي! ليستراد، أعطني زجاجة البراندي! اجلِسها على الكرسي! لقد غشي عليها من المعاملة القاسية والإنهاك».

– فتحت عينيها مرة أخرى وسألت:

– هل هو آمن؟ هل هرب؟

– لا يمكنه الهروب منا يا سيدتي.

– لا، لا، لم أقصد زوجي. السير هنري؟ هل هو آمن؟

– نعم.

– والكلب؟

– إنه ميت.

أطلقت تنهيدة ارتياح طويلة.

– حمدًا لله! حمدًا لله! أوه، هذا الشيطان! انظروا ماذا فعل بي!

شمَّرت أكمامها وكشفت ذراعيها، وشاهدنا برعب أنهما كانا مرقطين بالكدمات.

– لكن هذا لا شيء، لا شيء! لقد عذَّب ودنَّس عقلي وروحي. يمكنني أن أتحمل كل هذا، المعاملة القاسية والعزلة وحياة الخداع، كل شيء، ما دمتُ أستطيع التمسُّك بفكرة أنه يحبني، لكنني أدركتُ الآن أنني لم أكن سوى أداة ساذجة في يديه. –وانخرطَت في بكاء عميق بينما تتحدث–.

قال هولمز: «أرى أنك لا تحملين له أية نيات طيبة يا سيدتي. أخبرينا إذن أين نعثر عليه؟ إن كنتِ قد ساعدتِه في الشر، فساعدينا الآن وكفِّري عن ذنبك».

أجابت قائلة: «لا يوجد سوى مكان واحد يمكنه أن يفر إليه. ثمة منجم قصدير قديم في قلب المستنقع. كان يحتفظ بكلبه هناك، وقد أعدَّه أيضًا ليكون ملجأه إن لزم الأمر. هذا هو المكان الذي سيفر إليه».

غشت سحابة الضباب النافذة كالصوف الأبيض. وجَّه هولمز مصباحه تجاهها وقال:

– انظري إلى الخارج. لا أحد يستطيع أن يجد طريقه داخل مستنقع جريمبن الليلة.

ضحكت وصفقت بيديها. ولمعت عيناها وأسنانها بمرحٍ خبيث.

صاحت: «ربما يجد طريقه إلى الداخل، لكنه لن يخرج أبدًا. كيف استطاع رؤية العصي الإرشادية الليلة؟ لقد زرعناها معًا، أنا وهو، لتحديد مسارٍ آمن عبر المستنقع. آهٍ، لو أنِّي استطعت انتزاعهم اليوم، لكان حقًّا تحت رحمتك!»

بدا واضحًا أن أي مطاردة قبل زوال الضباب لن تأتي بنتيجة. تركنا ليستراد في حراسة المنزل وعدنا أنا وهولمز مع البارون إلى قصر باسكرفيل. لم يعد من الممكن إخفاء قصة آل ستابلتون عنه، لكنه تلقى الضربة بشجاعة حين عرف حقيقة المرأة التي أحبها. لكن الصدمة التي سببتها مغامرة الليلة حطمت أعصابه، وقبل حلول الصباح كان يعاني الهذيان بسبب الحمى الشديدة تحت رعاية الطبيب مورتيمر. وقد قررا السفر معًا حول العالم كي يعود السير هنري صحيحًا معافى مرة أخرى مثلما كان قبل أن يصبح سيدًا لتلك المقاطعة المشؤومة.

والآن أنتقلُ سريعًا إلى خاتمة هذه الرواية الفريدة، التي حاولت فيها أن أُشرِك القارئ في المخاوف المظلمة والتكهنات الغامضة التي خيَّمت على حياتنا لفترة طويلة، وانتهت بتلك الطريقة المأساوية. في الصباح الذي تلا موت الكلب، تلاشى الضباب وأرشدتنا السيدة ستابلتون إلى النقطة التي وجدا عندها مسارًا عبر المستنقع. وأدركنا كم كانت حياتها مرعبة حينما رأينا اللهفة والفرح اللذين قادتنا بهما إلى مكان زوجها. تركناها واقفة على شبه جزيرة رفيعة من تربة ثابتة بارزة في المستنقع الواسع. في نهايتها ظهرت عصي صغيرة مزروعة هنا وهناك حيث تعرج المسار من بقعة عشبية إلى أخرى بين تلك الحفر المكسوة بالزبد الأخضر والأراضي الموحلة، التي سدت الطريق أمام من يجهله. عبقت الأعشاب والنباتات المائية المورقة اللزجة برائحة العفن وبخار الماء الثقيل، بينما انغمسنا حتى مستوى الفخذ أكثر من مرة بسبب زلة قدم في المستنقع القاتم الذي اهتز في تموجات سطحية امتدت حولنا لعدة ياردات. كان يُمسك بقبضته العنيدة أعقابنا بينما نسير، وكلما غصنا فيه شعرنا كما لو أن يدًا خبيثة تسحبنا إلى تلك الأعماق الموحلة بمخالب شديدة الشراسة والعزم. لمرة واحدة فقط رأينا أثرًا يدل على مرور شخص ما قبلنا من هذا المسار الخطير. برز شيء داكن من وسط بقعة من عُشب القطن. غاص هولمز حتى خصره عندما ترك المسار ليمسك به، ولو لم نكن هناك لنسحبه ما كان ليضع قدميه على أرضٍ ثابتة مرة أخرى. كان ممسكًا بحذاءٍ أسود قديم، وقد طُبع على الجلد من الداخل كلمات «مايرز، تورنتو».

قال هولمز: «هذا يستحق الاغتسال بالوحل. إنه الحذاء المفقود لصاحبنا السير هنري».

– ألقاه ستابلتون هنا أثناء فراره.

– بالضبط. كان لا يزال في يده بعد أن استخدمه ليضع الكلب في أثر السير هنري. وهرب عندما علم أن اللعبة انتهت، لكنه ظل ممسكًا به، قاذفًا إياه بعيدًا في تلك النقطة أثناء هروبه. على الأقل نعرف أنه وصل إلى هنا بأمان.

لكن لم يكن مقدرًا لنا أن نعرف ما هو أكثر، فمع وجود الكثير مما يسعنا التكهن به، فقد كانت فرصتنا في العثور على آثار أقدام في المستنقع شبه معدومة. فقد أخفتها التموجات السطحية سريعًا. وبمجرد أن بلغنا أرضًا أكثر صلابة وراء المستنقع، رُحنا نفتِّش عنها جميعًا بلهفة متزايدة. لكن لم تقع أعيننا قط على أدنى علامة على وجودها. إذا كانت الأرض تروي الحقيقة، فستابلتون لم يصل قط إلى جزيرة الملجأ تلك بعد أن حاول شق طريقه إليها خلال الضباب ليلة أمس. إنه في مكانٍ ما في قلب مستنقع جريمبن العظيم، أسفل الوحل القبيح للمستنقع الضخم، دُفِن هذا الرجل المتوحش غليظ القلب إلى الأبد.

وجدنا الكثير من الدلائل التي تشير إلى مجيئه لهذه الجزيرة حيث أخفى وحشه الضاري. وأشارت عربة ذات عجلات وبئرٌ نصف مملوءة بالمخلفات إلى مكان المنجم المهجور. وبجانبه رأينا بقايا أكواخ عمال المناجم المتداعية، الذين طردتهم بلا شك الرائحة الكريهة للمستنقع المحيط بهم. وفي أحد تلك الأكواخ عثرنا على شبكة وسلسلة مع قدرٍ من العظام المقروضة التي دلَّت على مكان احتجاز الحيوان. وكان بين الحطام هيكلٌ عظمي وكتلة من الفرو البني تلتصق به.

قال هولمز: «إنه كلب! ربَّاه، كلب سبنيلي مجعد الشعر. لن يرى مورتيمر المسكين كلبه الأليف مرة أخرى. حسنًا، أشكُّ أن هذا المكان يحوي أيَّ أسرار لم نسبر غورها بعد. كان بإمكان ستابلتون أن يُخفي الكلب، لكنه لم يستطع حجب صوته، ومن ثم دوَّت تلك الصرخات التي لم يكن سماعها مبهجًا حتى في وضح النهار. وفي حالات الطوارئ كان بوسعه أن يُبقي الكلب في الكوخ الخارجي لمنزل ميريبت، لكن هذا كان مُخاطرة عُظمى، ولم يجرؤ على فعل ذلك إلا في اليوم الأهم، الذي اعتبره تكليلًا لجهوده. لا شك أن هذا العجين الذي في القصدير هو نفسه الخليط الذي دُهن به المخلوق. وقد استوحى هذه الفكرة بالطبع من قصة كلب العائلة الأسطوري، سعيًا منه إلى إثارة رعب السير تشارلز حتى الموت. لا عجب أن السجين الهارب المسكين كان يركض ويصرخ – تمامًا مثلما فعل صاحبنا، ومثلما كنا لنفعل نحن أيضًا – عندما رأى هذا المخلوق يتقدم مقتفيًا أثره في ظلام الرابية. يا لها من حيلة ماكرة! فبصرف النظر عن فرصة أن يلقى ضحيتك حتفه، فأي قروي ذلك الذي قد يغامر بالتفرُّس من كثب في مثل هذا المخلوق إذا لمحه على الرابية كما فعل كثيرون؟ لقد قلتها في لندن يا واتسون، وأكررها الآن، إننا لم نساعد قط في القبض على رجلٍ أكثر خطورة من ذاك الراقد هناك»

قالها مشيرًا بذراعه الطويلة تجاه الامتداد الهائل المرقَّط للمستنقع الملطخ بالأخضر، الذي امتدَّ بعيدًا حتى توحَّد مع منحدرات الرابية الخمرية.

الدموم: كلب صيد كبير، كان يستخدم في الأصل لصيد الغزلان والخنازير البرية، واستخدم منذ العصور الوسطى لتعقب الأشخاص.

الدرواس الإنجليزي: واحدة من أكبر سلالات الكلاب حجمًا.

الفصل الخامس عشر

استعراض الأحداث الماضية

وفي ليلة باردة من ليالي شهر نوفمبر الضبابية، جلستُ أنا وهولمز أمام المدفأة في غرفة جلوسنا بشارع بيكر. كان قد انشغل بعد النهاية المأساوية لرحلتنا إلى ديفونشاير في قضيتين على درجة كبيرة من الأهمية. كشف في الأولى عن تصرُّف العقيد أوبوود الشائن فيما يخصُّ فضيحة ألعاب الورق الشهيرة لنادي نونباريل، بينما دافع في الثانية عن السيدة مونبنسير التعِسة من تهمة القتل التي علقت بها فيما يخصُّ وفاة ابنة زوجها الآنسة كارير، الشابة التي عُثر عليها حية ومتزوجة في نيويورك بعد ستة أشهر. كان صديقي في أسمى حالاته المزاجية بفضل النجاح الذي كلل سلسلة متوالية من قضاياه المهمة، ومن ثم تمكَّنت من حضه على مناقشة تفاصيل لغز باسكرفيل. كنت أنتظر تلك الفرصة بصبر، لأنني كنت أعي أنه لن يسمح أبدًا بأي تداخُل للقضايا، وأن ذهنه الصافي والمنطقي لن يتشتت عن شاغله الحالي من أجل التأمُّل في ذكريات الماضي. لكن السير هنري والطبيب مورتيمر كانا في لندن في طريقهما إلى تلك الرحلة الطويلة الموصى بها لاستعادة رباطة الجأش. وقد زارانا بعد ظهر ذلك اليوم، لذلك كان من الطبيعي أن يُطرح الموضوع للمناقشة.

قال هولمز: «مُجمل الأحداث، من وجهة نظر الرجل الذي أطلق على نفسه ستابلتون كان بسيطًا ومباشرًا، مع أنها قد بدت شديدة التعقيد لنا، نحن من لم تكن لدينا وسيلة في البداية لمعرفة دوافع أفعاله، ولم نُحط علمًا إلا بجزءٍ صغير من الحقائق. لقد حظيت بفرصة محادثة السيدة ستابلتون مرتين، وصارت عندها القضية بأكملها واضحة أشد الوضوح لدرجة أنني لا أجد سرًّا واحدًا لم نكتشفه بعد. يمكنك العثور على بضع ملاحظاتي عن القضية تحت الحرف (ب) في قائمة القضايا المُفهرسة».

– آمل أن تتلطف بمنحي وصفًا لمسار الأحداث من ذاكرتك.

– ليكن إذن. وإن كنت لا أستطيع أن أضمن لك احتفاظي بالحقائق كلها في عقلي. إن التركيز الذهني المكثف له طريقة غريبة في محو ما فات. فالمحامي الذي ينكبُّ على قضيته بشغف بحيث يكون قادرًا على مجادلة خبير حولها، يجد أن التفاصيل كلها قد غادرت ذهنه بلا رجعة بعد أسبوعٍ أو اثنين في محاكماتٍ أخرى. إن كل قضية من قضاياي تزيح ما قبلها، وقد شوشت الآنسة كارير ذكرياتي عن قصر باسكرفيل. وغدًا قد تستحوذ مشكلة صغيرة أخرى على اهتمامي وتطرد بدورها السيدة الفرنسية الجميلة وأوبوود سيئ السمعة. ومع ذلك سأسرد عليك مُجمل الأحداث في قضية الكلب بقدر ما أستطيع، وعليك أن تشير لأي شيء قد أكون نسيته.

إن تحقيقاتي تُظهر بما لا يدع مجالًا للشك أن اللوحة العائلية لم تكذب، وأن هذا الرجل كان حقًّا من نسل باسكرفيل. فقد كان ابنًا لرودجر باسكرفيل، الأخ الأصغر للسير تشارلز، الذي فرَّ بسمعته الشريرة إلى أمريكا الجنوبية، حيث قيل إنه قد مات دونما زواج. الواقع أنه كان قد تزوج وأنجب طفلًا

وحيدًا، وهو هذا الرجل الذي كان اسمه الحقيقي هو نفسه اسم والده. ثم تزوج هذا الرجل من بيريل جارسيا، إحدى جميلات كوستاريكا، وبعدما اختلس مبلغًا كبيرًا من المال العام، غيَّر اسمه إلى فانديلر وهرب إلى إنجلترا، حيث أسس مدرسة في شرق يوركشاير. وكان سبب شروعه في هذا النوع المميز من الأعمال أنه تعرَّف على مُعلِّمٍ مصابٍ بالسُّل في رحلته إلى الوطن، فاستغل موهبة هذا الرجل لإنجاح مهمته. لكن المُعلِّم فرازر ما لبث أن وافته المنية، والمدرَسة التي بدأت مزدهرة أخذت تتدنَّى من سيئٍ إلى أسوأ. ارتأى فانديلر أنه من الأنسب أن يغيِّر اسمه إلى ستابلتون، وأحضر معه ما تبقى من ثروته، ومخططاته للمستقبل، وميله لعلم الحشرات إلى جنوب إنجلترا. وقد عرفتُ من المتحف البريطاني أنه كان مرجعًا معترفًا به في هذا المجال، وأن اسم فانديلر مُنح بصفة دائمة لفراشة معينة كان هو مُكتشفها الأول، عندما كان في يوركشاير.

وصلنا الآن إلى تلك الفترة من حياته التي تمثل أهمية كبيرة لنا. من الواضح أن الرجل قد أجرى تحرِّياته وأدرك أن روحين فقط تعترضان الطريق بينه وبين إرثه الثمين. عندما ذهب إلى ديفونشاير، كانت خططه ضبابية للغاية على ما أعتقد، لكن باستطاعتنا التكهُّن من الطريقة التي ادعى بها أن زوجته هي أخته أنه كان يتعمد الأذى منذ البداية. كانت فكرة استخدامها كطُعم في ذهنه من البداية، مع أنه لم يكن متأكدًا في الغالب من كيفية ترتيب مكيدته. كان يريد أن يحصل على الإرث في النهاية، وكان مستعدًّا لاستخدام أي وسيلة أو تحمل أي مخاطرة في سبيل بلوغ هذه النهاية. وأولى خطواته كانت أن يرسِّخ نفسه بالقرب من قصر أسلافه قدر المستطاع، والثانية كانت أن يقيم صداقاته مع السير تشارلز باسكرفيل ومع الجيران.

أخبره البارون بنفسه عن كلب العائلة، وبهذا مهَّد الطريق لوفاته. كان ستابلتون – كما سأستمر في تسميته – يعرف أن قلب الرجل ضعيف، وأن تعرضه لصدمة سوف يقتله حسب قول الطبيب مورتيمر. وقد سمع أيضًا أن السير تشارلز كان مؤمنًا بالخرافات وأنه أخذ هذه الأسطورة القاتمة على محمل الجد. ابتكر عقله العبقري على الفور طريقة يمكن أن تودي بحياة البارون. وفي الوقت نفسه سيكون إلقاء الذنب على القاتل الحقيقي شبه مستحيل.

وبعد أن رسم الفكرة، شرع في تنفيذها ببراعة كبرى. إن أي متآمرٍ طبيعي كان ليقنع باستخدام كلبٍ متوحش. بيد أن استخدام الوسائل الصناعية لإضفاء طابع شيطاني إلى المخلوق كان ومضة عبقرية من جانبه. اشترى الكلب في لندن من روس ومانجلز، التاجرين على طريق فولهام. كان أقوى الكلاب لديهما وأكثرها وحشية. أحضره عبر طريق ديفون الشمالي وسار مسافة كبيرة فوق الرابية حتى يعود إلى المنزل دون إثارة أي انتباه. كان قد تعلم اختراق مستنقع جريمبن بالفعل أثناء صيده الحشرات، وهكذا وجد مكانًا آمنًا لإخفاء المخلوق. وهناك ربَّاه وانتظر فرصته.

لكن الوقت مر دون أن يتمكن ستابلتون من استدراج الكهل النبيل خارج أرضه أثناء الليل. وقد حاول التربُّص له عدة مرات مع كلبه، لكن دون جدوى. وخلال هذه المحاولات غير المثمرة شاهده القرويون، وهكذا تلقَّت أسطورة الكلب الشيطاني إثباتًا جديدًا. كان يأمل أن تستدرج زوجته السير تشارلز إلى حتفه، لكنها أبدت استقلالية غير متوقَّعة. فلم تكن لتسعى إلى توريط الكهل النبيل في

ارتباطٍ عاطفي من شأنه أن يسلمه إلى عدوه. فشلت التهديدات – ويؤسفني أن أقول الضرب – في تحريكها. أبت أن يكون لها أي صلة بهذا الأمر، ولفترة كان طريق ستابلتون مسدودًا.

وجد طريقة للخروج من صعوباته من خلال الفرصة التي واتته حين فوَّضه السير تشارلز – الذي ظنَّه صديقًا – وكيلًا لأعماله الخيرية في حالة تلك المرأة التعِسة، السيدة لورا ليونز. وبتقديمه نفسه على أنه رجلٌ عزب، اكتسب تأثيرًا مُطلقًا عليها، وجعلها تُصدق أنه سيتزوجها في حال تمكُّنها من الطلاق من زوجها. وفجأة وصلت خططه إلى ذروتها عندما أدرك أن السير تشارلز كان ينوي مغادرة القصر بناءً على نصيحة الطبيب مورتيمر، الذي تظاهر ستابلتون نفسه بأنه يتفق معه في الرأي. كان عليه أن يتصرف فورًا، وإلا ابتعدت ضحيته عن سلطته، لذلك ضغط على السيدة ليونز لتكتب ذلك الخطاب، مُناشدة فيه الرجل الهَرِم أن يقابلها في المساء الذي يسبق مغادرته إلى لندن. ثم منعها من الذهاب بحجة خادعة، وهكذا أُتيحت له الفرصة التي كان ينتظرها.

عاد مساءً من كومب تريسي في الوقت المناسب للوصول إلى كلبه وطلائه بالمادة الجهنمية، وإحضاره إلى البوابة التي توقَّع وجود النبيل الهَرِم منتظرًا عندها. قفز الكلب – بتحريضٍ من سيده – فوق البوابة الصغيرة وطارد البارون المسكين الذي فر صارخًا على ممشى الطُّقسوس. لا بد أن رؤية هذا المخلوق الأسود الضخم يلاحق ضحيته في هذا النفق المُظلم بخطمه المشتعل وعينيه المتوهجتين كانت مروعة. وهكذا سقط ميتًا في نهاية الممشى من وطأة الرعب على قلبه الضعيف. كان كلب الصيد قد ظل على الحدود العشبية بينما كان البارون يركض في الممشى، لذلك لم يظهر أي أثر سوى أثر البارون. ربما اقترب المخلوق ليشمه عندما رآه مستلقيًا، لكنه ابتعد مرة أخرى عندما وجده ميتًا. حينها ترك الأثر الذي لاحظه الطبيب مورتيمر. صرف ستابلتون الكلب الذي هرع إلى مخبئه في مستنقع جريمبن، وترك لغزًا حيَّر السلطات وأثار الذعر بين سكان الريف، وجلب القضية في النهاية إلى نطاق بحثنا.

هذا هو كل شيء يخص وفاة السير تشارلز باسكرفيل. وكما تُلاحظ، فإنها مكيدة شيطانية تلك التي أدت لوفاته، إذ كان من المستحيل حقًّا إقامة دعوى ضد القاتل الحقيقي. فشريكه الوحيد في الجريمة لم يستطع الوشاية به، ولم تساعد الطبيعة الغرائبية الخارقة للوسيلة التي استخدمها إلا في جعل مكيدته أكثر فاعلية. كانت لدى المرأتين المعنيتين – السيدة ستابلتون والسيدة لورا ليونز – شكوكٌ قوية تجاه ستابلتون. فقد عرفت الأولى أن لديه خططًا بشأن العجوز، كما عرفت بوجود الكلب. أما السيدة ليونز فلم تعرف أيًّا من هذين الأمرين، لكنها تأثرت بحدوث الوفاة في الوقت الذي كان يُفترض أن تقابله فيه، والذي لم يكن يعرف به إلا ستابلتون. مع ذلك، كانت كلتاهما واقعة تحت تأثيره، ولم يكن يخشاهما مُطلقًا. مضى النصف الأول من مهمته بنجاح، وبقي النصف الأصعب بعد.

وارد أن ستابلتون لم يعرف بوجود وريثٍ للسير تشارلز في كندا. إلا أنه كان سيعرف في كل الأحوال عمَّا قريب من صديقه الطبيب مورتيمر، الذي أخبره بكل التفاصيل عن وصول هنري باسكرفيل. كان توقُّع ستابلتون الأول هو أن هذا الشاب الغريب القادم من كندا قد ينتهي أمره في لندن دون أن ينزل بديفونشاير على الإطلاق. لم يثق في زوجته منذ أن رفضت مساعدته في نصب الفخ للكهل، ولم يجرؤ على تركها بعيدًا عن عينيه خوفًا من أن يفقد تأثيره عليها. لهذا السبب أخذها معه إلى لندن. استقرَّا –

كما اكتشفتُ – في فندق ميكسبورو برايفت في شارع كرافن الذي كان في الواقع أحد الفنادق التي زارها عميلي في بحثه عن الدليل. وهناك أبقى زوجته حبيسة غرفتها بينما تتبع هو –متنكرًا بلحية – الطبيب مورتيمر إلى شارع بيكر وبعدها إلى المحطة، وفندق نورثمبرلاند. ساور زوجته بعض الشك في خططه؛ لكنها كانت تخاف زوجها بشدة، خوفًا نابعًا من سوء معاملته الوحشية، لدرجة أنها لم تجرؤ على كتابة خطاب تحذر فيه الرجل من الخطر الذي يُحدق به، إذ لو وقع الخطاب في يد ستابلتون ستتعرض حياتها لخطرٍ داهم. في النهاية – كما نعلم – تبنَّت حيلة اقتطاع الكلمات التي ستشكل الرسالة، وكتابة عنوان الرسالة بخطٍ غريب. وهكذا وصلت الرسالة إلى البارون ومنحته التحذير الأول من الخطر.

كان من الضروري لستابلتون أن يحصل على قطعة من ملابس السير هنري، حتى يمتلك وسيلة لإطلاق الكلب في أثره لو اضطر لاستخدامه، وبسرعة وجرأة مميزتين، شرع في تنفيذ الأمر في الحال، ولا مجال للشك في أن الخادم الذي ينظف الحذاء أو خادمة غُرف الفندق قد حصلا على رشوة كبيرة لمساعدته في مخططه. لكن تصادف أن الحذاء الأول الذي جيء به إليه كان جديدًا، ولذلك لا يفي بغرضه، فأعاده وطلب حذاءً آخر؛ وهي الواقعة الأكثر نفعًا، لأنها أثبتت لذهني إثباتًا قاطعًا أننا نتعامل مع كلبٍ حقيقي، حيث لا يمكن لأي افتراضٍ آخر أن يفسِّر هذا التلهُّف الشديد للحصول على حذاء قديم، وتلك اللامبالاة تجاه حذاءٍ جديد. فكلما كان الحدث أكثر غرابة وتنافرًا مع المنطق، استحقَّ أن يُفحص بدقة أكبر، والأمر الذي قد يبدو لأول وهلة يزيد القضية تعقيدًا، هو في الغالب ما يوضحها، عند النظر فيه بإمعانٍ كافٍ وتناوله من وجهة نظر العلم.

ثم حظينا بزيارة من صديقينا في صباح اليوم التالي، يتبعهما ستابلتون طوال الوقت في عربة الأجرة. ومن معرفته بمسكننا وبمظهري، وكذلك من سلوكه العام، أميل إلى الاعتقاد بأن مسيرة ستابلتون في امتهان الجريمة لم تقتصر بأي حال على قضية باسكرفيل وحدها. فمن المثير للانتباه أن وقعت خلال السنوات الثلاث الماضية أربع عمليات سطو كبيرة في غرب إنجلترا، ولم يُقبض فيها على أي مجرمٍ على الإطلاق. آخر هذه العمليات – التي وقعت في مبنى فولكستون، في شهر مايو – تميزت بإطلاق النار بدمٍ بارد على الخادم، الذي فاجأ اللص المقنَّع الذي كان بمفرده. ليس لديَّ شك في أن ستابلتون قد جنَّد موارده الضئيلة بهذه الطريقة، وأنه كان لسنوات مؤذيًا وخطيرًا.

كان لدينا مثالٌ على مَكره ودهائه في ذلك الصباح حينما نجح في الفرار منا بسهولة ويُسر، وكذلك جرأته في إرسال اسمي مع سائق عربة الأجرة. لقد أدرك منذ هذه اللحظة أنني توليت القضية في لندن، ومن ثم لم تكن لديه فرصة هناك. فعاد إلى دارتمور وانتظر وصول البارون.

قلتُ: «انتظر لحظة. لقد وصفت تسلسل الأحداث وصفًا صحيحًا من دون شك، لكن ثمة نقطة تركتها دون توضيح. ماذا حدث للكلب عندما كان سيده في لندن؟»

– لقد أوليت بعض الانتباه لهذه المسألة وإنها لعلى قدرٍ من الأهمية دون ريب. ليس لديَّ شك في أن ستابلتون كان يملك صديقًا موثوقًا، مع أنه من المستبعد أن يضع نفسه تحت رحمته ويُطلعه على كل خططه السرية. كان في منزل ميريبيت خادمٌ هَرِمٌ، يُدعى أنتوني. يمكننا تتبع صلته بستابلتون لعدة سنوات سابقة، تعود إلى أيام إدارته للمدرسة، ومن ثم لا بد من أنه كان على دراية بأن سيده ورفيقته

كانا في الحقيقة زوجًا وزوجة. لقد اختفى هذا الرجل وهرب من البلاد. من الواضح أن أنتوني ليس اسمًا شائعًا في إنجلترا، بينما اسم أنطونيو شائع في كل البلاد الإسبانية أو الأمريكية اللاتينية. الرجل يتحدث الإنجليزية بطلاقة مثل السيدة ستابلتون نفسها، لكن بلهجة لدغاء غريبة. لقد رأيت بنفسي هذا الرجل العجوز يعبر مستنقع جريمبن من الطريق نفسه الذي حدده ستابلتون. لذلك وارد جدًّا أنه من كان يعتني بالكلب في غياب سيده، وإن لم يعلم قط بالغرض الذي استُخدِم الوحش لأجله.

ثم سافر ستابلتون بعدها إلى ديفونشاير، وسرعان ما تبعتهما أنت والسير هنري. يتبقى الآن ما فعلته أنا في هذا الوقت. ربما تتذكر أنني عندما فحصت الورقة التي ثُبتت عليها الكلمات فتشت بدقة عن العلامة المائية. وأثناء ذلك كانت الورقة على بعد بضع بوصات من عيني، فشممتُ رائحة واهنة لما يعرف بالياسمين الأبيض. ثمة خمسة وسبعون عطرًا من الضروري للخبير الجنائي أن يستطيع تفريق أحدها عن الآخر، وقد استندت أكثر من قضية مررت بها على التعرُّف السريع عليها. دلت الرائحة على وجود سيدة، وبدأت أفكاري حقًّا تتحول تجاه ستابلتون. وهكذا كنت قد تأكدت من الكلب، وخمَّنت هوية الجاني قبل أن أذهب إلى غرب إنجلترا.

– كانت خطتي هي مراقبة ستابلتون. ومع ذلك بدا جليًّا أنني لن أستطيع فعل ذلك ما دمت معكما، لأنه حينها سيكون شديد الحذر. لذا خدعت الجميع، بمن فيهم أنت نفسك، وسافرت سرًّا حين كان مفترضًا أن أكون في لندن. لم تكن معاناتي كبيرة كما يُخيَّل إليك، مع أن مثل هذه التفاصيل التافهة ينبغي ألا تتدخل أبدًا في مسار التحقيق في القضية. أقمتُ معظم الوقت في كومب تريسي، واستخدمت الكوخ الموجود على الرابية فقط حين وجدتُه ضروريًّا أن أكون قريبًا من الأحداث. حضر كارترايت معي، وكان في تنكره على هيئة طفلٍ ريفي عون كبير لي. كنت أعتمد عليه في إحضار الطعام والشراشف النظيفة. وفي الوقت الذي كنت أراقب فيه ستابلتون، كان كارترايت يراقبك باستمرار، ومن ثم كنت قادرًا على وضع يدي على الخيوط كلها.

وقد سبق وأخبرتك أن تقاريرك كانت تصلني بسرعة، إذ كان يُعاد توجيهها فورًا من شارع بيكر إلى كومب تريسي. كانت ذات نفعٍ كبيرٍ لي، ولا سيما تلك الفقرة الصادقة التي ذُكرت عرضيًّا من سيرة ستابلتون. بها تمكَّنتُ من تحديد هوية الرجل والمرأة وعرفتُ أخيرًا أين أقف بالضبط. تعقدت القضية إلى حدٍّ بعيد بسبب حادث هروب السجين والعلاقة بينه وبين آل باريمور. وقد وضَّحت هذا اللغز أيضًا بأفضل الطرق، وإن كنتُ قد توصلت إلى نفس الاستنتاجات من خلال ملاحظاتي الخاصة.

بحلول الوقت الذي اكتشفت فيه وجودي على الرابية، كانت معلوماتي قد اكتملت عن القضية بأسرها، لكن نقصتني الحُجة التي يمكنني الذهاب بها لهيئة المحلفين. حتى محاولة ستابلتون قتل السير هنري في تلك الليلة التي انتهت بموت السجين الهارب التعس، لم تُساعدنا كثيرًا في إثبات تهمة القتل عليه. بدا أنه ما من بديلٍ سوى القبض عليه متلبسًا بجُرمه، ولفعل هذا كان علينا استخدام السير هنري كطُعم، وحيدًا وبلا حماية في الظاهر. وهذا ما فعلناه، ونجحنا في إكمال قضيتنا وقُدنا ستابلتون إلى هلاكه، بعد أن كلفَنا ذلك صدمة عنيفة لعميلنا. عليَّ أن أعترف أن تعريض السير هنري لهذا الرعب يعد عارًا على إدارتي للقضية، لكن لم يكن باستطاعتنا التنبؤ بالمشهد الرهيب الصاعق الذي قدمه الوحش، ولم

نستطع توقُّع الضباب الذي مكَّنه من الاندفاع أمامنا بتلك الطريقة المفاجئة. لقد نجحنا في هدفنا بتكلفة أكد لي كل من الاختصاصي والطبيب مورتيمر أنها ستكون مؤقتة. قد تُمكِّن رحلة طويلة صديقَنا من التعافي، ليس فقط من أعصابه المحطمة، لكن أيضًا من مشاعره الجريحة. فقد كان حبه للسيدة ستابلتون عميقًا وصادقًا، وكان أكثر ما أحزنه في تلك المسألة القاتمة هو خديعتها له.

لم يتبقَّ إلا توضيح الدور الذي لعبَته هي طوال الوقت. لا شك أن ستابلتون كان يمارس سُلطته عليها، حبًّا أو خوفًا، أو كليهما على الأرجح، إذ هما عاطفتان غير متنافرتين بأي حالٍ من الأحوال. لكن تلك السلطة أثبتت فعاليتها المُطلقة. وبناءً على تعليماته وافقت على أن تكون أخته، مع أنه وجد حدودًا لسلطته عليها حين حاول أن يجعلها شريكًا مباشرًا في القتل. كانت مستعدة لتحذير السير هنري بقدر ما تستطيع، دون توريط زوجها، وقد حاولت مرارًا أن تقوم بذلك. ويبدو أن ستابلتون نفسه كان قادرًا على الشعور بالغيرة، وعندما رأى البارون يتغزَّل بالسيدة، ورغم أن هذا كان جزءًا من خطته، لم يسعه إلا مقاطعته بثورة عاطفية كشفت عن طباعه الشرسة التي أخفاها سلوكه المتحفظ. وبتشجيعه لهذه العلاقة تيقن من أن السير هنري سيُكثر من التردد على منزل ميريبت، وأن الفرصة التي يريدها ستتاح له عاجلًا أو آجلًا. لكن في يوم المأساة، انقلبت زوجته ضده فجأة. كانت قد علمت بموت السجين، وعلمت أن الكلب كان محتجزًا في الكوخ الخارجي مساء اليوم الذي كان السير هنري حاضرًا فيه لتناول العشاء. واجهت زوجها بالجريمة المُزمعة. وتبع ذلك مشهد غاضب أظهر لها فيه لأول مرة أن ثمة من ينافِسها في حبه. فتحول إخلاصها في لحظة لكراهية مريرة، ورأى أنها ستخونه. لذلك قيدها حتى لا تكون لديها فرصة لتحذير السير هنري، وكان يحدوه الأمل دون شك أن يتمكن من استعادة زوجته وحملها على تقبل الأمر الواقع والتزام الصمت حيال ما عرفته، عندما ينسب سكان الريف وفاة البارون إلى اللعنة التي تطارد عائلته، كما سيفعلون بكل تأكيد. أظنه قد أخطأ التقدير في هذا الصدد على أي حال، وأننا لو لم نكن هناك ما كان مصيره أفضل حالًا، فلن تغفر امرأة من الدم الإسباني مثل هذا الأذى بسهولة. والآن يا عزيزي واتسون، من دون العودة إلى مذكراتي، لا يمكنني أن أقدم لك وصفًا أكثر تفصيلًا لهذه القضية الغريبة. فأنا موقن من أنني لم أدع أي لغزٍ جوهري دون تفسير.

– لم يكن لديه أمل في إثارة رعب السير هنري حتى الموت، كما أثار رعب عمه بكلبه.

– كان الوحش ضاريًا ويتضور جوعًا. فإذا لم يُخِف ظهوره الضحية، فعلى الأقل سيشل أي مقاومة قد يبديها.

– معك حق. تبقَّت فقط مشكلة واحدة. لو أن ستابلتون نجح في الحصول على التركة، كيف عساه يفسر حقيقة أنه –كوريثٍ– كان يعيش بالقرب من القصر تحت اسمٍ آخر دون الإعلان عن هويته؟ فكيف عساه يطالب بها دون إثارة الشك والتساؤل؟

– إنها مشكلة هائلة، وأخشى أنك تطلب الكثير إذ تتوقع مني حلها. فالماضي والحاضر يقعان ضمن مجال تحقيقي، إنما ما قد يفعله الرجل في المستقبل فسؤالٌ يصعب الإجابة عنه. لقد سمعَت السيدة ستابلتون زوجها يناقش المشكلة في عدة مناسبات. ثمة ثلاثة مسارات محتملة. قد يطالب بالممتلكات من أمريكا الجنوبية، ويثبت هويته أمام السلطات البريطانية هناك؛ وبالتالي يحصل على الثروة دون أن

يأتي إلى إنجلترا على الإطلاق؛ أو ربما يتنكر تنكرًا متقنًا خلال الفترة القصيرة التي يتوجب عليه قضاؤها في لندن، أو ربما -مرة أخرى- يزوِّد شريكًا بالأدلة والأوراق ويضعه كوريث، ويحتفظ بحقه في المطالبة بنسبة من دخله. لا شك أنه مما نعرفه عنه سيجد طريقة ما للخروج من هذه المشكلة.

والآن يا عزيزي واتسون، لقد مررنا ببضعة أسابيع من العمل الشاق، وأعتقد أن علينا أن نُحوِّل تفكيرنا –لليلة واحدة– إلى أمور أكثر متعة. لدي حجزٌ لمقصورة في أوبرا (ليوجنو). هل استمعت إلى دي ريزكي من قبل؟ هل لي أن أُزعجك إذن، وأطلب منك أن تكون مستعدًّا في غضون نصف ساعة؟ ويمكننا التوقف عند مطعم مارسيني لتناول عشاء خفيف في طريقنا.